سلسلة التواصل الحضارى

ميادين
الحضارة العربية الإسلامية
وأثرها على الفكر الأوروبى

الجزء الأول

الآداب

دكتور
عبد الفتاح مصطفى غنيمه
كلية الآداب - جامعة المنوفية
قسم الفلسفة وعلم النفس

الناشر / دار الفنون العلمية - الأسكندرية

١٩٩١م

سلسلة التواصل الحضارى

ميادين الحضارة العربية الإسلامية وأثرها على الفكر الأوروبي

الجزء الأول

الآداب

دكتور
عبد الفتاح مصطفى غنيمه
كلية الآداب - جامعة المنوفية
قسم الفلسفة وعلم النفس

الناشر / دار الفنون العلمية - الأسكندرية

١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أجمع الباحثون على أن الحضارة العربية هى أعظم حضارة شهدها العالم طوال العصور الوسطى ، وفضل الحضارة العربية على مسيرة الحضارة الأوروبية وتواصلها لا يقتصر على النقل عن السابقين ، ولكن بعث روح الفكر العلمى عند أعلام الحضارات القديمة ، وشرح ما وقعوا فيه من أخطاء وإضافة الجديد ، لأن تطور الحضارة البشرية متصل الحلقات ، يقوم على أساس استفادة الخلف من جهود السلف والسير به - وهذا هو الأهم - إلى مدى أبعد فى إغناء الفكر البشرى ، ويكفى العرب فخراً أنهم بحثوا واجتهدوا وابتكروا وأضافوا عناصر جديدة دفعت عجلة التواصل الحضارى إلى الأمام.. ولا يقلل من شأن الحضارة العربية أن كثيراً من أعلامها يرجعون إلى أصول غير عربية ، فارسية وتركية أو غيرها من الجنسيات التى حكمها العرب ، ذلك أن هؤلاء الأعلام ما كان لهم أن يظهروا وينتجوا إلا فى رعاية الحكم العربى الذى وفر الجو الصالح للإنتاج والإبداع . . وحيث يكمن سر النهضة العلمية للعرب المسلمين وراء تشجيع وتكريم الخلفاء والأمراء والأثرياء للعلم والعلماء، والإعلاء من شأنهم ، هذا فضلا عن أن هؤلاء الأعلام استعربوا ودونوا ثمرة خبراتهم وخلاصة فكرهم باللغة العربية، فهم لذلك ليسوا إلا نتاجاً مباشراً للحضارة العربية ومظهراً قويا من مظاهرها. وهل ينكر أحد أن كافة مراحل البناء الثقافى من الماضى إلى الحاضر مرتبطة الحلقات، فالثقافة الإسلامية لا يمكن تصورها بغير الثقافة اليونانية الرومانية . والثقافة المعاصرة في الشرق لابد وأن يقترن التفكير فيها بالحضارة الأوروبية الحديثة .

نعلم أن الوقت الذى بلغت فيه الحضارة العربية مرحلة النضج والازدهار ، كانت أوروبا تسودها موجات الظلام والجهل والتأخر ، ولم يلبث أن أفاق الأوروبيون قرب نهاية القرن الحادى عشر للميلاد بعد أن ضاقوا بتزمت الكنيسة التي حصرت الفكر والتعليم داخل دائرة ضيقة ، ليجدوا أنفسهم أمام حضارة عربية شامخة ، وهنا هرع طلاب العلم من مختلف بلدان أوروبا إلى حيث تتوافر علوم العرب ومؤلفاتهم وبخاصة فى الأندلس وصقلية وانصرفوا إلى ترجمة ما صادفوه من كتب العرب اللاتينية .

إن ميادين إسهامات الحضارة العربية الإسلامية على التفكير الأوروبى لا تقتصر على باب واحد ، بل هى أبواب متفرقة تشمل الآداب والعلوم والفنون ، بدءاً من الأدب بفروعه والفلسفة والجغرافية والتاريخ والاجتماع والكيمياء والطبيعة والفلك والطب والصيدلة والهندسة والموسيقى والنظم السياسية والتربية . . إلخ ، وكل فرع

من هذه العلوم فى حاجة إلى أهل التخصص الملمين بتاريخه وشتاته ، الباحثين عن جذوره ونشأته ، ولا أدعى الإستطاعة للقيام بهذا العبء ، وإنما أحاول رسم خطة الموضوع وأعرض به فكرة. القصد منها تجميع شتات الفكر الحضارى العربى الإسلامى، وكيف انتقل من جيل إلى جيل للتواصل وحيث أن هذا الموضوع أكثر من أن يحيط به أفراد . إنه يحتاج إلى جهود مجمع علمى بعلماء ويعكفون على الغوص فى المراجع والاطلاع على المصادر والمخطوطات. حيث يجد كل متخصص مكانه ، وبجهود المخلصين نصل للاقتراب من الحقيقة ونحقق قضية التواصل ، فالحضارة العربية سلسلة متصلة من الأسباب يؤثر بعضها على بعض ، وهى وحدة لا تتجزأ فى الزمان والمكان فهى تدين لأرض العروبة حيث كانت مهداً لها ، ولقوم هم العرب حيث كانوا سادتها . ولاشك أن حضارة الإسلام في وقتها تضارع الحضارة الحديثة التى نعيش فى كنفها ، ولو استطاع أحد أن يقارن لخرج بهذه النتيجة . فالفلسفة الإسلامية مزجت بين المعقول والمنقول ووفقت بين الآراء المقدسة التى لا يعتريها الباطل ، وبين البيئة التى عاشت فيها هذه الآراء ، أما إذا اتعرضنا للعلوم الطبيعة والرياضة والفلك ، فإننا لا نستطيع إلا أن نشيد بالمجهود الرائع الذى قام به المسلمون فى سبيل الأخذ بهذه العلوم التى تركتها الحضارات السابقة على نحو بدائى . وليس معنى ذلك أن الحضارة تموت ، ولكنها تهاجر من منطقة إلى منطقة ، فهى تغير مسكنها وملبسها ، لكنها تظل حية وهجرة الحضارة تفسح المكان وتنتقل مع الزمان لكى يهيئ لها الله قوما آخرين ، فعندما فتح الله علي العرب ، قامت الحضارة على رعاية علماء وهبوا أنفسهم للبحث والدرس وبجانب هؤلاء مال وعتاد وقوة سياسية تمثلت فى تعامل الخلفاء والأمراء مع العلماء ، لذا اتجه نشاط العلماء للأخذ بيد العلوم اليونانية والفارسية والهندسية وترجمتها والإضافة عليها .

والكتاب الذى بين أيدينا يطوف بناء فى ميادين الحضارة العربية الإسلامية التى شعت أضواؤها على أوروبا فى الآداب والعلوم الانسانية - ويبين لنا كيف ولدت الحضارة العربية وكيف تطورت إلى أن بلغت الصدارة ، وبما لم تبلغه حضارة أخرى فى العصر الوسيط . وكيف كانت سبباً فى إنبثاق حركة التنوير وعصر النهضة ، وكيف أسهمت علومها فى الأخذ بيد المجتمعات الأوروبية من الجهل إلى العلم ، ولولا أعمال ابن المقفع وابن النديم وابن طفيل والكندى والفارابى وابن سينا وابن حزم الأندلسى وابن باجة وابن رشد وابن الهيثم والبيرونى والبتانى والخوارزمى والبوزجانى والطوسى وغيرهم من المترجمين فى مدرسة المأمون لأضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدءوا من

حيث بدأ هؤلاء التأخر سير الحضارة قرون وقرون .

وإذا قلنا الحضارة العربية الإسلامية ، فالمقصود أن العرب بالإسلام أصبحوا أمة وأن هؤلاء العرب قد عمّروا البلاد التى فتحوها . فصارت تُدعى عربية ولأن اللغة العربية سادت معظم هذه البلاد . وإذا قيل أن هناك عناصر غير عربية ساهمت بنصيب ضخم في تقديم الآداب والعلوم والفنون . لقلنا بلا مغالاة أن من أسهموا من الموالى فى الحياة العربية الإسلامية ، كانوا أكبر عدداً وأغزر إنتاجاً من العرب أنفسهم . ولذا فإننا نتيه بالعروبة ، لأن لغتنا هى لغة القرآن الذى أنزل علي محمد ﷺ بلغة العلم ومنه انفجرت بدايات النور . . فجر الحضارة . ولاشك أن اللفظين العرب والإسلام . . فى العرف الدارج لفظان مترادفان . . . العرب يشمل هؤلاء الذين كانوا من الناحية السياسية تحت الحكم العربى ، وتكلموا العربية ، واعتنقوا الإسلام دين العرب ، كما أن لفظ العرب لا يخرج النصارى واليهود والصابئة وأصحاب الديانات الأخرى الذين لهم نصيب غير يسير فى العلوم العربية خصوصا فيما يتعلق بالترجمة والرياضيات والفلك والطب والفلسفة .

الأمل فى الله أن أكون قد وضعت لبنة على الطريق لتاريخ العلوم والتواصل الحضارى بين العرب وأوروبا .

والله ولى التوفيق

د . عبد الفتاح مصطفى غنيمة

الأسكندرية فى ديسمبر ١٩٩١

شكر وتقدير

يتقدم المؤلف بجزيل الشكر والتقدير للأخ الصديق الكيميائي عبد السلام عطا الله لتفضله بالمراجعة اللغوية كعادة بكريم فضله في كل مؤلفاتي راجيًا ومتمنيًا لسيادته موفور الصحة والعافية .

د/ عبد الفتاح غنيمة

محتويات الكتاب

الفصل الأول

منابع الثقافة الإسلامية ، ظهور الاسلام وفتوحاته وحركة الترجمة

الرسالة المحمدية ، ولد محمد بن عبد الله فى مكة حوالى سنة ٥٧٠ ميلادية ،ونشأ يتيما فقيرا إذ توفى أبوه عبد الله وهو لايزال جنينا فى بطن أمه . كفله جده عبد المطلب وأحسن رعايته وتربيته ، حتى بلغ الثامنة ، ثم كفله بعد موته عمه أبو طالب وجعله كأحد بنيه ، وأسبغ عليه من عطفه وحمايته ما كان له أكبر الأثر فى حياته . اشتهر بصدقه وأمانته ، فتزوجته السيدة خديجة ، إحدى ثريات قريش وهو فى الخامسة والعشرين ، ونعم بالعيش معها واطمأن إليها . وفى الأربعين نزل عليه الوحى ، وهى أول من آمن به إذ كذبه الناس وبدأ يدعو للإسلام وخاض صراعا عنيفا ضد المشركين انتصر فى نهايته ، وتكونت دولة الإسلام وخضع العرب لأول بشير فى تاريخهم استطاع أن يجمعهم تحت راية واحدة ، ويوجههم نحو هدف مشترك [1].

محمد فى المفهوم الإسلامى هو النبى الذى أرسله الله ليبلغ الناس كافة دينه الحق - دين أنبيائه ورسله جميعا ، وليقضى على الشرك - وليجعل كلمة الله هى العليا . ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ومآ أوتى موسى وعيسى ومآ أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ « البقرة : ١٣٦ » .

هذا فيما يتعلق بالإيمان بالرسالات السابقة ، أما فيما يتعلق ﴿ **بالله** ﴾ فالإسلام يدعو إلى ﴿ **إله** ﴾ واحد : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا** ﴾ « الإخلاص » كذلك هو يدعو الناس كافة إلى الإسلام ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ « سبأ / ٢٨ » .

محمد إذن بلغ الناس كافة رسالة ربه . أما من حيث علاقة المسلم بربه ، فالإسلام لاينطوى على أى مبدأ يجعل أحدا حتى رسول الإسلام ذاته بين الله وعباده ، فعلاقة الإنسان بربه فى الإسلام مباشرة وبغير واسطة ، والإنسان منذ مولده وحتى وفاته في حضرة

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ط ١١ دار المعارف . ١٩٧١ . ص ١٢٥، وما بعدها .

الله ، وتحت سمعه وبصره . إذن فالعقيدة مسألة شخصية والله وحده القادر على الحكم على عباده ،المؤمنين . ومن هنا لايوجد فى الإسلام رهبنة ولاقديسون ، ولا أحد أيا كان بين المسلم وربه .

اعتنقت جميع القبائل العربية الدين الجديد ، وتوحدت لأول مرة فى تاريخها الطويل الحافل بمختلف ضروب بطولات الفتح الإسلامى ، وكان من الواجبات الأولى التى حثهم عليها دينهم الجديد ، الجهاد فى سبيل الله لنصرة الدين ، ونشره بكل وسائل الاتصال المعروفة لديهم آنذاك ، وهى التلقين بما حفظته الصدور وبما كتبته أيدى كُتّاب الإسلام الأوائل .

الفتــح الإســلامى : اجتاحت جحافل المسلمين جزءا كبيرا من العالم المعروف فى ذلك الوقت واستطاعت أن تؤسس فى أقل من قرن من الزمان أكبر وأقوى دولة عرفتها القرون الوسطى . واستولى المسلمون على شاطئ الفرات فى سنة ٦٣٣م وانتصروا على الروم فى أجنادين فى سنة ٦٣٤م ودخلوا دمشق فى سنة ٦٣٤م وحققوا نصر اليرموك الرائع فى سنة ٦٣٦م ، وانتصروا على الفرس فى القادسية فى سنة ٦٣٧م ، وخضعت لهم سوريا فى سنة ٦٣٨م وجميع فارس فى سنة ٦٤٢م ومصر فى سنة ٦٣٩م - ٦٤٢م وأذربيجان فى سنة ٦٤٢م وأفغانستان فى سنة ٦٦١م ، وتونس فى سنة ٦٧٤م ، وبخارى فى سنة ٦٧٤م ، والسند فى سنة ٧٠٨م ومراكش فى سنة ٧٠٨م ، وأسبانيا فى سنة ٧١١ - ٧١٢م ، وسمرقند فى سنة ٧١٢م . واستولوا فى خلال القرنين الثامن والتاسع على معظم جزر البحر المتوسط ، وأصبحوا سادة الدنيا بلا منازع [١] .

وهنا يجدر بنا أن نثير بعض التساؤلات . كيف كانت حال الشعوب التى فتحها المسلمون قبل الفتح وكيف صارت بعده ؟ هل كانت المبادئ التى حكمت هذه الشعوب قد حققت بمقتضاها خطوة إلى الأمام أم إلي الوراء ؟ هل حدث تطور وتقدم أم لا ؟ هل حققت الشعوب المغزوة رواجا اقتصاديا ومزيدا من الحرية أم لا ؟ وهل حققت رواجا ثقافيا ودينيا وعلميا أم لا ؟

وسواء أكانت طبيعة هذه الحروب دينية بحتة ، أم اقتصادية ، أم مزيجا من هذا وذاك ، فذلك أمر لا يعنينا كثيرا فى هذا الكتاب . وإنما يعنينا فى المقام الأول المآثر الحضارية المترتبة على نقل واستساغة الثقافة الإسلامية المباشرة لهذه الانطلاقة العربية الإسلامية التى غيرت وجه التاريخ .

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، خمسة مجلدات . طبعة بيروت ١٩٥٥ جـ ٢ ص ٢٦٢ .

ونحن إذا نظرنا فى صفحات هذا التاريخ نظرة موضوعية صرفة ، إذن لاستطعنا أن نستوضح حقيقتين هامتين جداً . أولا : أن الإسلام كان خطوة تقدم هامة وكبرى فى التخفيف عن عاتق الشعوب ، الكثير ، بل الكثير جدا من القيود والظلامات التى فرضتها عليها الإمبراطورية الرومانية التى ازدهرت كحضارة وكانت موضع دهشة العالم وإعجابه . وثانيا : أن الإسلام كان باعثا على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون فى حركة من أهم حركات تاريخ العلم . نتيجة امتزاج ثقافات متعددة متباينة ، كما أن حضارة الإسلام تقوم على أساس روحى يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ، ومكانه منه قبل كل شئ ، فإذا بلغ من هذا الإدراك حد الإيمان ، دعاه إيمانه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده ، وإلى تغذية عقله وقلبه بالمبادئ السامية ، مبادئ الإباء والأنفة والأخوة والمحبة والبر والتقوى [1] .

ترك الإسلام لأهل الكتاب اليهود والنصارى ، حريتهم الكاملة فى أن يقدموا شعائرهم الدينية كيفما يريدون . وكانت كنيسة القسطنطينية تدعمها قوة الإمبراطورية المادية والحربية ، قد أذاقت السوريين والمصريين وكل أتباع كنائس سوريا وأرمينية ومصر ألواناً من الاضطهاد لأنهم تحدوا كنيسة القسطنطينية التي تشبثت بالاعتقاد بأن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين ، فى حين اعتقدت كنائس مصر وسوريا وأرمينية بأنه ذو طبيعة واحدة لا ذو طبيعتين [2] .

والحقيقة المؤكدة هى أن اليهود والنصارى أصبحوا فى الواقع تحت الحكم الإسلامى آمنين على أموالهم وأنفسهم وأبنائهم وتمتعوا بغض النظر عن بعض القيود التى فرضت عليهم بكثير من الامتيازات التى كانوا يحلمون بها منذ قرون تحت الحكم الرومانى . لذلك نجدهم وقد تنفسوا كثيراً من ريح الحرية ، فازدهروا ، وظهر كثير من الفلاسفة والعلماء النصارى واليهود ، نالوا حظوة كبيرة فى رحاب الخلفاء والأمراء المسلمين [3] .

ومما يدلنا أبلغ دلالة على ترحيب الشعوب المغزوة بالفتح الإسلامى الذى خفف عن كاهلها كثيراً من أعباء الماضى ، ما جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى من أنه « عندما جمع هرقل (العاهل الرومانى) للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٥٩٢ وما بعدها .
وأيضا محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥١٨ وما بعدها .

(٢) القول بالطبيعة الواحدة يعنى أن المسيح هو الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح . أما القول بالطبيعتين فيعنى أن المسيح إله حق وإنسان حق فى نفس الوقت . أستغفر الله العظيم .

(٣) عبد الحميد سند الجندى : ابن قتيبة . العالم الناقد الأديب . أعلام العرب العدد ٢٢ ص ٣١ .

ليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدينة التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد [1] .

التسامح طابع الإسلام : إذن نستطيع القول مطمئنين بأن طابع التسامح الديني الذي كان سائداً في أنحاء العالم الإسلامي في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية كان كبيرا . ولنا أن نشير هنا إلى أقوال بعض كبار المؤرخين الذين أعجبوا أيما إعجاب بهذا التسامح الذي كان مثله في غير الدولة الإسلامية ضربا من المستحيلات في ذلك العصر . يقول الأستاذ « سيديو » إن المذهب النسطوري المسيحي قد تغلغل وانتشر في الأجزاء الشرقية من آسيا تحت الحماية العسكرية بممارسة شعائرهم الدينية بحرية فحسب [2] ، وإنما عهدوا إليهم في بعض الأحيان بتثقيف أبناء العائلات الكبيرة . ويضيف إلى ذلك قوله إن هذا الموقف تحرر منهل إذا قورن بتعصب أوربا في ذلك الوقت . وهو تحرر . تطرف فيه هارون الرشيد لدرجة أنه جعل يوحنا بن ماسويه وهو نسطوري مسيحي مشرفاً على التعليم العام في عصره [3] .

أما مجلس الخليفة المأمون فكان يتكون من ممثلين لجميع الطوائف التي تدين بملكه. ويذكر الأستاذ « دوزي »(Dosy , 1861) مبرهنا على حرية الفكر في ذلك العصر ، أي عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، قصة نقلها عن أحد علماء الكلام العرب ، يروى فيها كيف أنه كان يحضر في بغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشترك فيها يهود وزنادقة ومجوس ومسلمون ونصارى ، وكيف أن الحضور كانوا يستمعون إلى كل منهم باحترام عظيم ، وأنه لم يكن ينبغي لأي منهم أن يستند إلا إلى الأدلة الصادرة عن العقل ، لا إلى الأدلة المستقاة من أي كتاب مقدس وحيث منهج البحث العلمي قائم على المنطق والتفكير الحر ، وهذا هو سر قيام النهضة لأن النهضات العلمية في كل مكان وزمان ، لايمكن أن

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ ، وأيضا البلاذري : فتوح البلدان ١٨٦٦ ليدن - ١٩٢٢ القاهرة ١٩٥٦ / ص ٥٨

(٢) Sedillot : Histoire générale des Arabes 1877 p. 37

(٣) د. عبد الحميد سند الجندي : ابن قتيبة ص ٢١ .

تبعث والتفكير مقيد ومفروض عليه اتجاه معين ، لأن من صفات النهضة العلمية التحرر والانطلاق والدراسة المستنيرة البعيدة عن الغرض والتعصب ، وكل هذه الصفات توافرت بالفعل فى عصر المأمون ، وكان المأمون نفسه مؤمنا بها ومشجّعاً عليها [١].

لا غرو إذن أن سمح الخلفاء والأمراء المسلمون للنصارى واليهود أن يتقلدوا مناصب الدولة كالمسلمين تماماً . ويدلل الأستاذ « جوستاف لوبون » فى كتابة حضارة العرب على ذلك بقوله : إن أسبانيا الإسلامية كانت الدولة الوحيدة فى أوروبا التى تمتع فيها اليهود بحماية الدولة ورعايتها فازداد عددهم زيادة كبيرة . وفى ذلك تقول الموسوعة البريطانية أيضاً . إن حكام طليطلة العرب كانوا يحمون الجالية اليهودية الكبيرة فازدهرت فيها وأينعت أعمالها التجارية والثقافية ، ولكنهم فقدوا كل شئ بل طردوا منها عندما انتهت دولة الإسلام فى أسبانيا[٢].

التسامح وحركة ازدهار العلوم : ولاشك أن طابع التسامح الإسلامى كان ذا أثر فعال هائل فى حركة الإحياء العلمى والبناء الحضارى التى تولاها العرب بعد الفتح . ذلك أن علماء النساطرة كانوا قد لجئوا إلى فارس التى حمتهم من اضطهاد الروم . وسرعان ما ازدهرت تعاليمهم فى المدرسة الفارسية فى « جند يسابور » وكانوا يستعينون بشئ من الفلسفة اليونانية لبث تعاليمهم. كما لجأ العلماء والفلاسفة اليونان - عندما أغلق الإمبراطور جوستنيان فى سنة ٥٢٩م أكاديمية أفلاطون فى أثينا ، وكانت آخر معقل من معاقل العلوم فى العالم الرومانى فى ذلك الوقت - إلى فارس ، والتقت الثقافات المسيحية واليونانية والهندية والفارسية فى هذه المدرسة ، التي اشتهرت شهرة واسعة . وعندما وقعت جنديسابور فى قبضة العرب فى القرن السابع ، لقى هؤلاء العلماء المسيحيون تسامحاً كبيراً وتشجيعاً عظيماً من الحكام المسلمين الذين استعانوا بهم فى تشييد صرح الدولة العلمى والثقافى ، فظهر منهم كثير من الأطباء والعلماء والتراجمة [٣].

لم يخرج العرب فى واقع الأمر من جزيرتهم إلي الأقطار المغزوة خاليى الوفاض أو مجرد غازين فحسب ، وإنما خرجوا إلى رحاب هذا العالم الفسيح الذى فتحوه وهم يحملون ثروة هائلة من أدبهم الجاهلى تتمثل فى لغة كاملة وخطابة وشعر وحكم وأمثال . وفوق

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢) Encyclopedia Britanica. 1968. 13. P. 289.

(٣) د. أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون . دار الكتب المصرية ١٩٢٨ ص . . ٤ .

ذلك ثروة هائلة من الأحكام الدينية والأخلاقية والاقتصادية والتشريعية المنظمة لمختلف شئون المجتمع والتى تضمنها القرآن والحديث . ولا عجب إذن أن كان للدين الجديد وتعاليمه الفضل كل الفضل فى دفع الناس إلى تعلمه وتسابقهم للاستزادة منه والوقوف على حقائقه .

وإن في تعاليم محمد النورانية : « الناس عالم ومتعلم وسائر هم همج » ، « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » ، « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله» .

لقد رفع الإسلام الحنيف من قدر العلم والعلماء ، وحث على طلب العلم ثم إن معجزاته كتاب هو القرآن الكريم ، ومن آياته ﴿ **إقرأ باسم ربك** ﴾ « العلق : ١ »﴿ **ورفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ ﴿ **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ ومن أقوال الرسول ﷺ أيضاً : (غدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة ، ثم (لموت قبيلة أيسر من موت عالم) وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله : « لاخير فيمن كان من أمتى ليس بعالم ولامتعلم » وقوله : « لايزال طالب العلم عالماً حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل » .

ومن ثمّ كان طبيعيا وضروريا أن يظهر فى أعقاب الاستقرار الإسلامى الكثير من الكتبة الذي يعلمون غيرهم القراءة والكتابة ، ومن ثم أنشئت المدارس اللازمة لتعليم القراءة بالقدر الكافى على الأقل للتمكين من الاطلاع على القرآن . وكان حفظ القرآن وتلاوته فى جميع المناسبات هم الناس الأول وشاغلهم الذي لا يشغلهم عنه شئ . كذلك كان الخليفة يوصى ولاته بالعدل حسبما جاء فى القرآن والسنة . وإذا كان الإسلام ذاته فى واقع الأمر أول حافز على ازدياد حركة القراءة والكتابة والنسخ لتعليم الناس مبادئ الدين الجديد . وأسلوب تعامل الانسان مع غيره من الناس . بعد ذلك تطور الأمر بطبيعة الحال ، ونشأت علوم جديدة مثل التفسير والحديث واللغة والبلاغة والبيان ، فلما اتسعت دائرة العلوم ، اتسع بطبيعة الحال مجال العلم والتدريس وشمل هذه العلوم أيضاً [1] .

ورث العرب عن الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ثلاث مدارس ، هى مدرسة جند يسابور الزرداشتية التي اختلطت فيها ثقافة اليونان وعلومهم بثقافة الهنود

(١) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٦٤ وما بعدها .

والفرس وعلومهم ، ثم **مدرسة حران الوثنية** ، وكانت مركزاً للتأثر اليونانى منذ عصر الإسكندر المقدونى ثم ، **مدرسة الإسكندرية المسيحية** المتأخرة . على أن العرب لم يرثوا هذه المدارس فارغة ، وإنما ورثوها بالعلماء والفلاسفة والمترجمين الذين كانا يعملون بها . ولما كان الإسلام دينا واقعيا ، حض المسلمين على الاستزادة من العلم ولم يضع أى عقبات فى هذا السبيل ، كان طبيعياً أن تستمر هذه المدارس وأن تنشأ مدارس جديدة وأن يستفيد المسلمون من هذه المدارس ، وهؤلاء العلماء بمثابة حجر الأساس للحضارة العلمية الإسلامية [1].

لم يلبث العرب طويلاً بعد استقرارهم فى الأمصار التى فتحوها حتى بدأت أنظارهم تتوجه إلى العلوم الدنيوية . وقد يكون الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموى المتوفى فى سنة ٧٠٤م ، هو أول أمير عربى أضاء شعلة العلم فى الإسلام . ذلك أنه كان أول من عمل على ترجمة كتب القدماء فى الطب والفلك والكيمياء كما يقول ابن النديم فى كتابه الفهرست . ثم جاء العباسيون واهتم أبو جعفر المنصور منذ البداية بترجمة العلوم، واتسعت الحركة اتساعاً كبيراً فى عهدى هارون الرشيد وولده المأمون على الأخص [2].

أسس الرشيد بيت الحكمة أو مدرسة الترجمة التى أخذت فى عصر المأمون صورة أكاديمية . وضع المأمون على رأسها يوحنا بن ماسويه فقامت المدرسة بأكبر مجهود فى ترجمة العلوم والفلسفة والمعارف القديمة . وفى حدود منتصف القرن التاسع الميلادى أصبح تحت يد العرب مختلف علوم الأسبقين ومعارفهم [3].

اشتمل العلم اليونانى على علوم الأقدمين كالمصريين القدماء والبابلين ، زيادة على الإنجازات التى حققها اليونان أنفسهم . وأنحصرت العلوم حتى ذلك العصر فى الطب والرياضات والجغرافيا والفلك . . . وكانت أهم الكتب التى اعتمد عليها العرب فى بناء صرح حضارتهم العلمية . كتب أبقراط[4] وجالينوس[5] . وديسقوريدس[6] من أعلام

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٨٦١ وما بعدها .

(٢) جلال مظهر : الحضارة الإسلامية . مركز الشرق الأوسط ١٩٦٩ ص ٧٠ .

(٣) د. أحمد رفاعى : عصر المأمون ص ٣٧٧ .

(٤) أبقراط : Hippocrates : من أعظم اطباء العالم في التاريخ . وقد سماه العرب أبو الطب ولد في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالى ٤٦٠ ق . م) وقد بنى مبادئ العلاج مع ثلاث نقاط هى مبدأ الحيوية ، ومبدأ الأخلاط والمبدأ الطبيعى ، من أسباب شهرته قسمه المشهور رمز الأخلاق الطبية الراقية .

(٥) جالينوس Galen (١٢٩ - ١٩٩م) الطبيب اليونانى المعروف . ولد فى برجاموم بآسيا وتعلم الطب فى أزمير والاسكندرية وروما . عمل طبيبا لبلاط قيصر الرومان . وظـل سلطان علمه قائما =

اليونان فى الطب مع بعض الكتب الهندية ، وكتاب المجسطى لبطلميوس السكندرى فى الفلك . وكتابه فى الجغرافيا ، وكتب اقليدس وأرشميدس [1]. وأبو لونيوس وديوفنطس من علماء اليونان فى الرياضيات وكتاب « السند هند » فى الفلك والرياضة ، وهو النسخة الهندية المنقحة من كتاب سدهانا لبراهما كويتا الهندى . وهذه هى أهم الكتب العلمية التى تلقاها العرب من الدنيا القديمة عن طريق اليونان والهنود ، والتى كونت المادة العلمية التى بنوا عليها ثقافتهم العلمية [2]. والحق أن طريقة اكتساب المسلمين للعلوم واستيعابهم لها وقصر المدة التى استغرقوها ليصبحوا قادرين على تصحيح هذه العلوم ، وإضافة جديد ، لم يسبقهم إليه أحد ، أمور كانت فريدة فى التاريخ . بعد جيل واحد أو جيلين من دخولهم دنيا العلم، تربعوا على عرشها وأصبحوا سادتها لامنازع لهم . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام قولة الأستاذ جورج سارتون : حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر فى القرون الوسطى . فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية ، التى كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله ، حتى لقد كان ينبغى لأى كائن ، إذا ما أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ، أن يتعلم اللغة العربية ، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها »[3] .

صحح المسلمون علوم الأقدمين بالقدر الذى سمح به علم عصرهم ، وأضافوا علوماً جديدة مثل الكيمياء والجبر فى صورته الجديدة ، وعلم البصريات الهام ، وحساب المثلثات المسطحة والكروية ، والحساب الجديد الذى نقلوة عن الهنود وطوروه وجعلوه علماً ذائعاً ،

= فى أوروبا حتى منتصف القرن الحادى عشر . وقد بحث جالينوس فى الظواهر الجسمية والظواهر النفسية . راجع د. شحاته قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير - دار المعارف ١٩٥٩ ص ١١٢ .

(٤) ديسقوريدس : Dioscorides : طبيب يونانى ولد فى القرن الأول الميلادى . اهتم بدراسة الأعشاب الطبية وألف كتاب الحشائش ، به ما يربو على ٦٠٠ عشبه وعدداً من الأدوية المعدنية والزيوت والأدهان ذات الفائدة الطبية وقد ترجم هذا الكتاب الي العربية مصطفى بن بسيل فى عهد جعفر المتوكل العباسى (٨٤٧ - ٨٦١ م)

(١) ارشميدس Archimedes . ولد عام ٢٨٧م . وهو عالم الفيزياء والهندسة اليونانى الشهير . . خلف لنا شيئا نافعا فى الميكانيكا والهيدرماتيكا وعلم موازنة السوائل . ومن الأخيرة نظريته فى الأوانى المستطرقة.

راجع : James. B. C. Science and common sense. U.S.A. 1955 P. 27.

(٢) إبراهيم مدكور وآخرون : تاريخ الفلسفة ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ، ١٩٥٣ ص ت .

(٣) چورج سارتون : تاريخ العلم ستة أجزاء اشراف : ابراهيم مدكور وترجمة د . محمد خلف الله وآخرون جـ ١ ص ١٤٣ وما بعدها

هذا فضلاً عن كثير من الإضافات الأخرى مما سيأتى ذكره فيما بعد. ولم يتأتى ذلك لهم إلا بظهور فئة الكُتّاب والنُسّاخ أو هؤلاء الذين يطلق عليهم كتبة ديوان الإنشاء . . . بذلك كون المسلمون تراثاً علمياً جديداً مميز الطابع ، نستطيع بحق أن نصفه بالتراث العلمى الإسلامى . الذى أصبح فيما بعد الأساس الذى ارتكزت عليه الحضارة الحديثة [1] .

أهمية الكتابة والعلم فى الإسلام

﴿ إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ « سورة العلق : آية ١ » .

هذه أول آيات بينات نزلت على سيدنا محمد الرسول الأمين ، تنبئه بالرسالة وتحمله مسئوليتها ، تصدع أول كلماتها بالقراءة وهى مفتاح التعليم ، وتنطق آياتها بتعليم الله عز وجل لعباده ما لم يعلموا ، وتذكر القلم وسيلة الكتابة وحفظ العلم ونقله ، وآلة التدوين بما يجول فى الخواطر .

لقد استرعى الله عز وجل انتباهنا إلى أهمية العلم ، فى أولى آيات القرآن الكريم، لأنه سبيل إلى التحرر من العبودية لغير الله والطريقة القويمة إلى معرفة الله عز وجل ومعرفة شرعه وحسن تطبيقه والعمل به .

وحسبنا أن تنوه الآيات الأولى من دستور الإسلام بالعلم لندرك اهتمام هذا الدين الحنيف به ، ولو أنا تأملنا فيما ورد فى القرآن الكريم من آيات تتناول العلم وفضله وسبيله وما يلحق به ، وما ورد فى السنة فى هذا الباب ، لوقفنا على مكانه العلم فى الإسلام وأدركنا اهتمامه الكبير به ، ومن خلال الآيات التى تحث على العلم والتعليم وتشجع طلاب العلم ، وترفع من شأن العلماء ومحاربة الجهل والظلام ، تريد للإنسانية العقول والقلوب ، وجعل العقل مدار التكليف ، وبه ميزه الله عز وجل الإنسان على سائر مخلوقاته من هذا قوله عز وجل **﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾** « سورة الزخرف آية ٣ » وقوله عز وجل **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾** «سورة العنكبوت آية ٤٣ » وقوله سبحانه **﴿ هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾** « سورة الأنعام من آية ٥٠ » وقوله سبحانه وتعالى **﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾** « سورة النحل آية ٤٤ » . وإنا لنجد دعوة القرآن الكريم إلي العلم والرفع من شأنه مبثوث فى كثير من آياته قال تعالى : **﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾** « الزمر : من آية ٩ » .

---

(١) أحمد جمال العمرى : أبو بكر الصولى – الهيئة العامة للكتاب ٩٧٣ ص ٣٨ وما بعدها .

ورفع مكانة العلماء فى قوله عز وجل : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ « المجادلة من آية ١١ » .وقال سبحانه : ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ « يوسف من آية ٧٦ » .

ونرى من خلال آيات القرآن الكريم ما للعلم والعلماء من أهمية كبيرة فى الدعوة إلى الله والتحرر من عبودية ما سواه ، وقد خاطب الإسلام فى الإنسان عقله وحواسه وجوارحه ، التى تنفذ به إلى المعرفة والتعليم ، فاسترعى انتباهه إلى مفاتيح العلوم بالنظر والمشاهدة والتأمل والاعتبار ، وغير ذلك مما يدفع به إلى ذروة المعرفة والوقوف على الحقيقة الكبرى لهذا الكون [(١)].

وقد حض الرسول عليه الصلاة والسلام على طلب العلم ، وبين منزلة العلماء فقال : (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين) [(٢)]. وجعل طلب العلم الشرعى الذى يحتاج إليه كل مسلم ليقيم أمور دينه فريضة على كل مسلم بنص قوله صلى الله عليه وسلم : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) [(٣)].

ولم يترك الرسول ﷺ طريقة من طرق التعليم والتبليغ والتوصيل والإعلام فى ذلك العصر إلا سلكها فى سبيل نشر الإسلام وتبليغه فكان يعقد مجالس العلم بنفسه ، ويبعث الرسل ويرسل الكتب ويوجه الأمراء والقضاة والمعلمين ليفقهوا الناس بالدين فكان ﷺ خير مبلغ . ومنزلة العلماء من أرفع المنازل فى الإسلام بنص قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (العلماء ورثة الأنبياء) [(٤)]. ومن هنا حث الإسلام على احترام أهل العام ، على لسان سيدنا محمد ﷺ فقال :(ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه) [(٥)].

هكذا يتبين لنا حرص الشريعة الإسلامية علي العلم والتعليم ، وقد مارس الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه ، وشجع علي طلب العلم ، وأوصى بطلابه ، وبين ما للمشاركة فيه من أجر حتى بلغ التشجيع العلمى أوجه ، وفتح باب العلم للجميع . ليس بينه وبين أحد حاجز أو مانع ، وأبلغ من هذا كله ، أن الرسول صلى الله عليـه وسـلم

---

(١) محمد عجاج الخطيب : فى المكتبة والبحث والمصادر . ص ١٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة مسند أحمد حـ ١٢ ص .١٨ حديث ٧١٩٣ .

(٣) أخرجه بن ماجه حـ ١ ص ٥ .

(٤) مجموع الزوائد حـ ١ ص ١٢١ .

(٥) مجمع الزوائد حـ ١ ص ١٢٧ .

حذر العلماء من أن يتساهلوا في أداء واجبهم وتعليم الجاهلين وأنذرهم بالعقاب ، وحذر الجاهلين من البقاء علي جهلهم وحثهم علي طلب العلم .

أهمية الكتابة ، إن أغلى ما يعبر به الإنسان عن فكره وأحساسيسه هو الكلام بمجموع ألفاظ مفرداته وجمله ، وهو الوسيلة الأولى للخطاب ونشر العلم وكسب المعرفة ، والإنسان فى خطابه وعباراته المنطوقة أقوى على التعبير عما يريد ، وأنصح من محاولته ذلك بأى وسيلة أخرى ، ويلى العبارة المنطوقة فى الإفصاح عن الفكر ، العبارة المكتوبة . ومن ثم كان للكتابة عند الأمم جميعا أثر بعيد ، وكان لها الفضل الكبير فى حفظ تراث الأمم السابقة فى دواوين العلم . وقد ازدادت أهمية الكتابة وآثارها فى العصر الحاضر ، وتطورت وسائل الطباعة تطوراً سريعاً يناسب روح العصر ، ويفى بحاجته ، ولقد كتب القلقشندى كتابا ضخما فى أربعة عشر جزءا عن الكتابة أسماه « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » وهو قاموس زاخر بالفوائد الرائعة فيما يتعلق بهذه الصناعة من جميع نواحيها . . . ويقول الكاتب فى فضل الكتابة ، إن أعظم شاهد لجليل قدرها وأقوى مثل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إليه جل جلاله واعتبرها من وافر كرمه .

ثم قال بأن الله سبحانه ، تعالى وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلت قدرته ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين** ﴾ « سورة الإنفطار آية ١٠ ، ١١ » .

وقول القلقشندى : ليس بين الصناعات ما يلحق بصناعة الكتابة ، ولا يكسب ماتكسبه من الفوائد ، مع الحصول على الرفاهية والتنزه عن دناءة المكاسب ، ثم مع توصل إليه من مشاركة الملوك والرؤساء . وكفى بهذه الصناعة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه [١] .

وقد اشتغل بالكتابة علية البشر ، ومنهم من صاروا أنبياء أو خلفاء ، ومن هؤلاء يوسف عليه السلام الذى كان يكتب للعزيز بمصر ، وهارون ويوشع ابن نون وكانا يكتبان لموسى ، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم ، وكانوا يكتبون للرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم أصبحوا بعده خلفاء الواحد بعد الآخر [٢] .

وقد تنبه قوم بالكتابة بعد الخمول ، وصاروا إلي الرتب العالية والمنازل السنية ، منهم « سرجون » الرومى وكان خاملا فرفعته الكتابة ، حتى أتصل بمعاوية وكتب له ولابنه

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١ ص ٣٩ ، وما بعدها .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١ ص ٤٢ .

يزيد ولمروان بن الحكم ، ومنهم عبد الحميد بن يحيى الذي اشتهر باسم الكاتب الأول حتى غمر اللقب نسبه ، وشرف بضاعته ، واشتهر بها [1]. ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال : ريح لا يبقى . قال : فما قيده ؟ قال الكتابة . . . . .

وقال عبيد الله بن العباس : الخط لسان اليد . وقال النظام : الخط أصل الروح له جسدانية فى سائر الأعمال . وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : الخط لسان اليد وبهجة الضمير وسفير العقول ، ووصى الفكر ، وسلاح المعرفة ، وأنس الإخوان عند الفرقة ، ومحادثتهم على بعد المسافة ، ومستودع السر وديوان الأمور ولو لم يكن من شرف الكتابة لكفي أن الله تعالى أنزلها على آدم عليه السلام - وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورة ، وأنزل الألواح على موسى عليه السلام مكتوبة [2].

ففى الآيات الكريمة الآتية قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أم لم يُنبأ بما فى صحف موسى** ﴾ «سورة النجم آية ٣٦» ، ﴿ **بل يريد كُلُّ امرئٍ منهم أن يؤتى صحفا مُنشرة** ﴾ «سورة المدثر آية ٥٢» ، ﴿ **رسول من الله يتلوا صحفا مُطهرة** ﴾ «سورة البينة آية ٢» ، ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هُدى ورحمةٌ للذين هم لربهم يَرهَبُون** ﴾ «سورة الأعراف آية ١٥٤» .

هذا وفى الكتابة حفظ الحقوق ومنع تمرد ذوى العقوق ، بما يُسَطر عليهم من الشهادات التى تقع فى السجلات والمكاتبات بين الناس لحوائجهم من المسافات البعيدة ، التى لاينضبط مثل ذلك لحامل رسالة ، ولايناله الحاضر بمشافهة وإن كثر حفظه ، وزادت بلاغته ولذلك قيل : الكتابة أفضل من اللفظ لأن اللفظ المنطوق يُفهم الحاضر فقط واللفظ المكتوب يُفْهِم الحاضر والغائب [3].

تفضيل الكتابة على الحفظ ، لم يقدر للحروف العربية أن تتطور تطورا كافيا جعل شكلها مقاربا للشكل الذى نعرفه الآن إلا مع ظهور الإسلام وبعده ، وقد مرت الحروف العربية التى كانت فى الأصل نبطية متفرعة من الهجاء الفينيقى فى سلسلة من التطور جعلتها تتخلص من بعض العيوب التى ورثتها عن الحروف التى نقلت منها . وكان

---

(١) عبد الحميد بن يحيي الكاتب : سماه الجاحظ عبد الحميد الأكبر ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم .

راجع : د. عبد الفتاح غنيمة : دراسات حول الكتابة العربية دار الفنون العلمية . ١٩٨٨ ص ١٩٩.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى . جـ ٣ ص ٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٣ .

حذق العرب للكتابة فى الجاهلية حدثا هاما فى تاريخ الفكر لم يظهر أثره إلا بظهور الإسلام ، وقد عرف الكتابة أهل الذمة ونقلها عنهم الصحابة من كتاب الوحى . وفي الواقع كان لها أثر بالغ فى نقل الإسلام ولا عيب فى هذا فهى الوسيلة إلى تعلم العربية وحفظ القرآن وتعاليم السنة النبوية وتدوين الأحاديث الشريفة والتفسير ، هذا بالإضافة إلى خدمة الدولة وأولى الأمر [(١)] .

ومن أبرز مظاهر التطور التى أدخلت على الهجاء العربى ، زيادة حروف الروادف وابتكار التنقيط والإعجام والحركات والضوابط والهمزة [(٢)] .

وفى عصر النبوة كان كتبة الوحى يكتبون بذلك الخط العربى الذى تحددت صورته ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من بعض مظاهر الخط النبطى ولم تصل إلينا أمثلة من هذا الخط الحجازى الذى كان مستعملا أيام النبى صلوات الله عليه في مكة والمدينة المنوره ، وأغلب الظن أنه تحددت لهذا الخط من ذلك الوقت صورتان :

صورة لينة يميل فيها إلى التدوير ، وكانت تستعمل فى التدوين السريع وصورة جافة يميل فيها إلى التربيع ، وكانت تستعمل فى كتابة الشئون الهامة التى يراعى فى كتابتها التأنى والتؤدة ، والراجح أن كتاب الوحى كانوا يكتبون القرآن فور نزوله على النبى بالخط اللين لأنه أطوع لهم وأيسر عليهم حتى يلاحقوا النبى وهو يتلو الآية ، وكانوا عندما يعودون إلى دورهم ويستقرون فى مجلسهم يعيدون كتابة ما دونوه بالخط اللين فى حضرة النبى صلوات الله عليه - بالخط الجاف تعظيما لكلمات الله وتقديرا لها [(٣)] .

وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يدرك قيمة الكتابة ، ويقدر أثرها ولذلك كان يطلق الأسير فى غزوة بدر إذا علم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة ، كما كان أقرب الناس إلى نفس الرسول كتاب الوحى . بظهور الإسلام أخذ شأن الكتابة العربية في الأزدهار ، ولم يلبث العرب أن انتشروا فى كثير من أجزاء العالم المتحضر فى ذلك الوقت، وامتد نفوذ العرب والمسلمين فى نحو قرن من الزمان من حدود الهند شرقا إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن ثم أصبحت اللغة العربية ذات قيمة سياسية إلى جانب أهميتها الدينية والأدبية ، وتبع ذلك بطبيعة الحال التمكين فى هذه الأقطار للكتابة العربية التى لم يقتصر نفوذها علي اللغة العربية ، بل امتد نطاقها فصارت تكتب بها لغات أخرى مثل

---

(١) د. عبد الفتاح غنيمة : دراسات حول الكتابة العربية ص ١٣٤ .

(٢) ، (٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٤ .

الفارسية والأردية . . . وهكذا نجد أن العرب نقلوا إلى الأقطار الإسلامية بدايات الخط العربي كما نقلوا إليها اللغة العربية والإسلام سواء بسواء . وتأكدت نزعة تفضيل الكتابة علي الحفظ عند العرب بعد الاسلام ، وقد عبّر ذو الرقة عن ذلك حين قال لعيسى بن عمر : أكتب شعرى فالكتاب أهم إلى من الحفظ لأن الأعرابى ينسى الكلمة ، قد تعب في طلبها يوماً أو ليلة فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ثم ينشدها الناس » .

القرآن والعلم : ينبغى أن نعترف ابتداء بأن عناية الله قد أحاطت باللغة العربية حين عزلتها طيلة العصر الجاهلى داخل أسوار الجزيرة ، لاتتصل بجاراتها إلا من فصل إلى فصل ، عبر رحلة الشتاء والصيف من ناحية ، وعبر وفود الحجيج والتجار التى كانت تأتى إلى مكة . ولم تكن هذه الاتصالات بكافية لإحداث تغير عميق فى اللسان العربى ، بقدر ما كانت تترك بعض بصماتها على استعمالاتها أو على ألفاظها ، كان البطء طابع كل شئ فى دنيا العرب آنذاك . ولو قدر للحياة أن تبقى على هذه الحال لما تجاوزت العربية تلك المرحلة الجاهلية خلال القرون التالية إلا بمقدار بسيط ، ولبقى العرب أمة جاهلية كما كانوا ، إلى أن يأذن الله بتفجر هذا الركود فى صورة أو أخرى .

وقد اختار الله سبحانه أن يحدث هذا التفجير حين بعث محمد ﷺ بدين الإسلام وجعل معجزته **القرآن** ، المعجزة اللغوية الوحيدة بين معجزات الأنبياء [١] .

ولقد رج القرآن أنحاء الحياة العربية على اختلاف مستوياتها ، ولاسيما الجانب اللغوى والبيانى ، فقد واجه العرب في لغتهم شيئا لم يعهدوه من قبل فى لغة شعرائهم وخطبائهم ، كان جديدا فى كل شئ ، فالألفاظ المعروفة بأصواتها تختلف عما عرفوه بمعانيها القرآنية ، واختلاف معانى الألفاظ يقتضى من القارئ أن يتعرف عليها حتى يفهم المراد من الجمل والعبارات ، وحتى يستوعب المفهوم الكامل للنص المقروء .

ولابد أن جزءاً كبيرا من إعجاز القرآن كان مرتبطا بتذوق العرب للمعانى التى استعملت فيها الألفاظ ، فليس فى طاقة أحد أن يجعل لغته كلها جديدة فى استعمالها للألفاظ والأدوات بما لم يسبق به ، وها نحن أولاء ننظر إلى كتابنا المجيدين فنقيس براعتهم اللغوية بقدرتهم على صوغ تعبير جديد ، أو ادخال لفظة كانت مهجورة فصارت بهم مألوفة ، أما بقية الحديث فمن لغة الناس ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويألفونه إلف العادة [٢] .

---

(١) د. عبد الصبور شاهين : العربية لغة العلوم والتقنية . دار الاعتصام ط ٢ ١٩٨٦ ص ٥٩.

(٢) المرجع السابق ص ٦١ .

ولنأخذ من القرآن آياته الأولى التى بها العرب : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾. (العلق الآيات من ١ : ٥) .

فهذه آيات خمس ، تضمنت من الألفاظ مجموعة لاتزيد على عشرة ، ولسنا نستطيع القول بأن عرب الجاهلية كانوا يجهلون هذه الألفاظ ، ولكنا نملك الجزم بأن كل لفظ منها كان يحمل معنى لايعرفه جاهلى ، وهذا هو الاختلاف بين ما ألفوه من قدرتهم على البيان ، وبين ما تميز به بيان القرآن من اقتدار .

لقد قيل دائما (إن المعانى ملقاة فى الطريق يتناولها من شاء ، وإنما يتفاضل البلغاء فى الألفاظ) ، ولكن القرآن عكس هذه القضية تماما ، حين جاء بألفاظ يستعملها كل الناس فى معان لا يعرفها أحد من الناس [١] .

كان العرب يعرفون كلمة (اقرأ) ، ومعنى القراءة ، ولكن المراد بهذه اللفظة فى الآيات لاعلاقة له بمعرفتهم هذه ، فالأمر (اقرأ) أمر إلهى ، وهو موجه إلى من لا يعرف القراءة ولا الكتابة بالمفهوم اللغوى ، وقد وضع الوحى بين يديه مادة القراءة ، فإذا هى معان لاتمت إلي ذخيرة العقل العربى بصلة ما ، وذلك متمثل فى الربط البديع بين القراءة واسم الرب الخالق ، وقد كانت للعرب الجاهليين فكرة عن الإله مشوشة ، مغلوطة ، تختلط بفكرة الوثنية المشركة ، فلاريب أن مسافة هائلة كانت تفصل بين فكرتهم هذه ، وبين ما دعى إليه محمد فى هذه اللحظة الإلهية من القراءة باسم الرب الخالق ، شئ غريب على العقلية العربية الجاهلية ، وهو شديد الغرابة إذ استمرت الآيات فذكرت (**خلق الإنسان من علق**) - الألفاظ سهلة مألوفة ، ولكن المعنى جديد تماما ، بل إن هذا المعنى بقى جديدا حتى الآن ، يحاول العلم أن يصل إلى أسرار هذه العلقة ، فيتكشف له كل يوم جديد ، دون أن يتصور أنه وصل إلى الكلمة الأخيرة أو إلى غاية هذا المعنى القرآنى ، عن أصل الإنسان ، اللغز الأبدى .

وحين تمضى الآيات فى وصف الرب (الأكرم) فلابد أن ندرك من هذا الوصف لامحدودية الكرم الإلهى . لقد كان العربى يرى أن الخير كله فى أوثانه التى يعكف عليها ولم يكن يتصور هذه (الأكرمية) للرب الواحد الخالق ، ولامناص من أن نعترف نحن الآن وبعد أن عاشت العقيدة بيننا أربعة عشر قرنا ، أننا عاجزون عن إدراك كنهها ، إذ هى

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠ .

معبرة عن صفة للرب تمتد إلى وجود لايحده زمان ولا مكان ، وقد جاءت بصيغة تفضيل يعبر عن المطلق ، لا عن النسبى : (ربك الأكرم) [١].

ثم كيف تم هذا التعليم بالقلم ، وما مادته ، وما حقيقة القلم ؟ . . . وأى إنسان؟ أهو الإنسان بعامة ؟ وما حقيقة (ما لم يعلم) ؟ وما مداه ؟ .

تساؤلات تحير العقول ، فتذهب فى إجاباتها مذاهب شتى ، دون أن ننتهى إلى رأى قاطع ، فالمعنى القرآنى لانهائى ، والفهم البشرى محدود ، ولكنه مستمر بتتابع الأجيال[٢] .

هذا هو الإعجاز القرآنى الذى منح اللفظ العربى امتداداً فى المدلول ، فأحدث ثورة لغوية لم تشهدها لغة البشر ، وقد وقع التطور فى اللغة العربية فى صورة انتقالات على خيط المعنى الممتد من استعمال الجاهلية إلي استعمال القرآن .

معنى ذلك أن القرآن حين وسع دائرة الدلالة اللفظية - قد منح ألفاظ اللغة طواعية ومرونة هائلة ، وصلاحية باهرة للتعبير عن مختلف المعانى الطارئة فى حياة الناس . لقد فك الألفاظ من إسارها ، وأطلقها من عقالها ، وقال لها : انطلقى فى هذه الدنيا فعبرى عن كل ما تصادفين من واقع أو إبداع حضارى وبذلك اتسعت العربية لكل مستحدث فى العلم ، أو مستنبط فى الفكر ، مما نجده فى كتابات الفلاسفة والمفكرين ، والعلماء والمترجمين ، إبان ازدهار الحضارة الإسلامية موضوع كتابنا [٣].

إن دراسة هذا الجانب ليست بالمهمة السهلة فى إطار التراث العربى ، لأن عناصر هذه الدراسة مفقودة حتى الآن ، ويقتضى تحقيقها معرفة خط التطور الدلالى بالنسبة إلى كل مادة ، من مواد اللغة ، وبالنسبة إلى كل صورة من صورها ، ولاسيما فترة ازدهار الحضارة الاسلامية خلال القرون الهجرية الستة الأولى ، فحياة اللفظ سلسلة من الاستعمالات المختلفة من شاعر إلى أديب إلى مترجم إلى آخر ، ومن جيل إلى جيل .

---

(١) ، (٢) المرجع السابق ص ٦١ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٢

الترجمة بداية التأريخ للعلوم عند العرب

عرفت اللغة العربية استخدام الألفاظ فى معان اصطلاحية بداية من نزول القرآن ، واستعماله كثيرا من ألفاظه للدلالة على معان غير ما عرفت فى اللغة العربية العامة ، ومن ذلك ألفاظ الصلاة والزكاة والحج ، وألفاظ الركوع والسجود ، والتشهد ، والامساك والنصاب . . . الخ فكلها ذات معان لغوية ، وذات معان اصطلاحية محددة . والنظر فى كتاب أبى حمدان الراوى المسمى (الزينة فى الكلمات العربية الإسلامية) بتحقيق المغفور له الدكتور حسين الحمدانى – يجد مئات من الألفاظ ذات الاستخدام المخصوص فى مجالها . ولقد نجحت اللغة العربية فى هذه القفزه الهائلة التى حققها القرآن الكريم ، بكل ما تضمن من ألفاظ جديدة في ذاتها ، وفي دلالتها على معان جديدة أيضا [١] .

ومن المؤكد أن فترة الرسالة المحمدية وما قدمت من لغة النبوة وأحاديثها – قد ساعدت على تمثل اللغة العربية لكل ما جاء فى القرآن الكريم من مصطلحات ، حتى عرف الناس الكلمات بمعانيها ومفهوماتها الجديدة على وجه التقريب ، دون أن يلتفتوا إلى قَدِمِهَا ، اللهم إلا ما كان من جهود الرواة ، حين أخذوا يجمعون ألفاظ اللغة وشواهدها واستعمالاتها من ألسنة البدو فى أنحاء الجزيرة العربية ، ثم كان أن حفلت كتب التفسير القرآنى ، ومعاجم اللغة بهذه الشواهد الكثيرة على استعمال الألفاظ فى معان مختلفة ، عبر الأجيال اللغوية التى تبدأ فى الأغلب قبل الإسلام بقرن واحد على الأكثر ، فيما يتعلق بتاريخ الشعر العربى منذ أقدم مراحله المروية ، بدءا بامرئ القيس (المتوفى عام (٨٠) قبل الهجرة والغريب فى الأمر أن تستطيع اللغة العربية هضم هذه الكمية من الألفاظ و المصطلحات الجديدة بهذه السرعة ، وهو دليل على أن العربية قادرة على مواجهة أعسر الظروف ، والتفوق عليها ، بنفس الاقتدار التى تمثلت به لغة القرآن الكريم وثورته اللغوية.

لذلك لانستغرب أن تبدأ المرحلة التالية فى حياة اللغة العربية خلال قرن واحد من نزول القرآن ، حين بدأ الاشتغال بالعلوم . << تذكر المصادر أن خـالد بن يزيد بن معاوية (٨٤ هـ – ٨٥ هـ) (٦٣٥م – ٧٠٤م) لما يئس من الفوز بالخلافة انقلب إلى العلم ، ودرس الصنعة (الكيمياء) على راهب اسكندرانى اسمه : مريانوس Marianus ،ثم أمر بنقل كتب الصنعة إلى اللغة العربية ، تحدث عنه ابن النديم فقال إنه : كان خالد بن يزيد حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ، ومحبة العلوم . خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كانوا ينزلون في مصر ، وقد تفصحوا في

---

(١) د . عبد الصبور شاهين : العربية لغة العلوم والتقنية . دار الاعتصام ١٩٨٦ – ص ٦٤

العربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى ، وهذا أول نقل في الاسلام من لغة إلى لغة ، وكـــان ما نقـــل يتضـــمن كتبـــاً في الطب وكتباً في النجوم .

وأول نقل فى الـدولة العباسـية قام به عبد الله بن المقفع (١٠٦ هـ - ١٤٢ هـ) (٧٢٤ - ٧٥٩ هـ) فقد نقل عددا من كتب السلوك إلى اللغة العربية ووضع كتاب كليلة ودمنه . بالإسناد إلى قصص فارسية وهندية [١] ومنـــذ أيـــام أبى جـعفر المنصـــور (ت ١٥٨هـ / ٧٧٤م) أصبح النقل فى رعاية الدولة ، وعلى ذلك سار هارون الرشيد ، وابنه المأمون ، وفى أيام المأمون اتسع النقل كثيرا ، حيث أنشأ بيت الحكمة . وأوقف عليه الأموال للذين يريدون أن ينقطعوا إلى نقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية . ولما انتصر المأمون على الروم سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م - علم بأن اليونان كانوا - لما انتشرت النصرانية فى بلادهم - قد جمعوا الكتب من المكتبات ، وألقوا بها فى السراديب ، فطلب المأمون من ملك الروم أن يعطيه هذه الكتب بدلاً من الجزية التى كان قد فرضها عليه ، فقبل (ثيوفيلوس) ملك الروم بذلك ، وعدّ ذلك كسبا كبيرا له ، أما المأمون فعد ذلك نعمة عظيمة عليه [٢] .

ومما يذكر أيضا للخليفة الأموى عبد الملك بن مـــروان أنـــه أنشـــأ فى دمشـق (عام ٨٨هـ / ٧٠٦ م) أول بيمارستان لعلاج المرضى ، ومعنى ذلك أن الدولة بدأت فى أواخر القرن الأول تبدى اهتماما علميا وعمليا بالعلوم الطبية وممارستها ، وهذا ما يشير إليه الدكتور عمر فروخ بقوله : ‹ ومما يدل على تفهم العرب لحركة الترجمة العظيمة التى كانوا يقومون بها أنهم بدأوا أول ما بدأوا ، بكتب العلوم العملية ، لابكتب الفلسفة النظرية ، فبدأوا بنقل الرياضيات والفلك والطب ، ولما كثرت لديهم كتب العلوم اتجهوا صوب كتب الفلسفة النظرية ليتمموا أداء رسالتهم الثقافية [٣] .

حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية :

لاريب أن حركة الترجمة هذه قد اتخذت طابعا طموحاً ، شارك فيها مئات من النقلة المترجمين من اللغات الأربع ، التى كانت تمثل الحضارة القديمة : اليونانية ، والفارسية ، والسريانية والهندية ، وقد كانت السريانية فى الغالب مجرد لغة وسيطة بين

---

(١) د. عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ١٠٩ . وأيضا د. أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون ٢٨٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨٧ .
(٣) د. عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ١١٣ وما بعدها .

العربية واللغات الثلاث الأخرى ، لتيسير نقل علومها ومعارفها الحضارية ، والمطلع على كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ليعجب من كثرة أسماء أطباء لم يسمع بها من قبل . لأن أعمال أصحابها فى الترجمة قد بادت ، ولأن كتابات المؤرخين قد تجاهلتها ، على حين ركزت اهتمامها على الشخصيات الرئيسية ، وها هى القائمة الكبرى لمترجمى الحضارة الإسلامية : [1]

(١) جور جيوس أول من ابتدأ فى نقل الكتب الطبية إلى اللسان العربى وذلك عندما استدعاه المنصور مع إبنه بختيشوع المتوفى ١٥٥هـ / ٧٧١ م .

(٢) حنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٤ هـ) (٨.٩ - ٨٧٧ م) - كان عالما باللغات الأربع ، غريبها ومستعملها : العربية والسريانية واليونانية والفارسية .

(٣) اسحاق بن حنين بن اسحاق ، مثل أبيه من أفاضل الأطباء والمترجمين ، وكان أعذب عبارة من أبيه . توفى ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م .

(٤) حبيش الأعسم ، ابن أخت حنين وتلميذه ،اشتهر بالطب والترجمة توفى ٣.١ هـ - ٩١٣.

(٥) عيسى بن يحيى بن إبراهيم كان أيضا تلميذا لحنين وقد أثنى عليه ورضى نقله .

(٦) قسطا بن لوقا البعلبكى أحد مشاهير الأطباء ونقلة العلوم في الاسلام . توفى عام ٣.٠ هـ / ٩١٢ م .

(٧) أيوب الأبرش ما نقله فى آخر عمره يضاهى نقل حنين .

(٨) ماسر جويه ، كان ناقلاً من السريانية إلى العربية ، مشهوراً فى الطب .

(٩) عيسى بن ماسر جويه ،ترجم كتاب الروائح والطعوم .

(١٠) شهدى الكرخى . كان ينقل من السريانية إلى العربية .

(١١) الحجاج بن مطر ، نقل للمأمون كتاب إقليدس .

(١٢) زرويا بن مانحوه الناعمى الحمصى .

(١٣) هلال بن أبى هلال الحمصى . كان صحيح النقل دون بلاغة في اللفظ .

(١٥) فثيون الترجمان ولم يكن يعرف العربية .

(١٦) أبو نصر بن نارى بن أيوب .

(١٧) بسيل المطران نقل كتبا كثيرة ، وقد امتاز بتجويد النقل .

(١٨) اصطفن بن بسيل (كان يقارب حنين بن اسحاق) أحد رواد الترجمة في عهد جعفر المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) .

---

(١) د. أحمد فريد رفاعى عصر المأمون . الفصل العاشر ص ٤١٧ وما بعدها .
وأيضا ابن أبى أصيبعة عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . الباب التاسع .

(١٩) موسى بن خالد الترجمان ، نقل كتباً كثيرة لجالينوس .
(٢٠) اسطاث كان متوسط النقل .
(٢١) حيرون بن رابطة لم يشتهر بجودة النقل .
(٢٢) تادرس السنقل نقل كتباً في الفلسفة والحكمة .
(٢٣) سرجيس الرأسى نقل كتباً كثيرة وكان حنين يصلح نقله .
(٢٤) أيوب الرهاوى كان يجيد السريانية أكثر من العربية .
(٢٥) يوسف الناقل كان طبيباً وناقلاً .
(٢٦) إبراهيم بن الصلت كان متوسطاً في النقل .
(٢٧) ثابت النقل نقل كتاب الكيموسين لجالينوس .
(٢٨) أبو يوسف الكاتب نقل كتاب لأبقراط .
(٢٩) يوحنا بن بختشيوع (كان ينقل إلى السريانية) كان طبيباً متميزاً خبيراً باللغة اليونانية والسريانية ، خدم في عهد الموفق بالله بن جعفر المتوكل .
(٣٠) البطريق (كان فى أيام المنصود نقل كتباً كثيرة لأبقراط وجالينوس .
(٣١) يحى البطريق (كان طبيبا يعرف لغة الروم) .
(٣٢) قيضا الرهاوى (من معاونى حنين) .
(٣٣) منصور بن باناس (من طبقة قيضا) الرهاوى .
(٣٤) عبد يشوع بن بهريز (مطران الموصل) .
(٣٥) أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى أحد النقلة المجيدين .
(٣٦) أبو اسحاق إبراهيم بن بكس (ترجم كتبا كثيرة إلى لغة العرب) .
(٣٧) أبو الحسن على بن إبراهيم بن بكس – كان مثل أبيه فى النقل .

هذه مجموعة النقلة من قائمة ابن أبى أصيبعة ، وردت فى الباب التاسع من طبقاته بعنوان : طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى) وقد رأينا أن القائمة تبدأ من أيام أبى جعفر المنصور ، الذى تولى الخلافة عام ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م .

غير أن تاريخ الترجمة إلى العربية يرجع – إلى ما هو أقدم قليلاً من هذا التاريخ ، فقد ذكر ابن أبى أصيبعة أن « ماسر جويه ، كان يهوديا متطببا بالبصرة ، تولى أيام الدولة المروانية تفسير كتاب أهرن بن أعين إلى العربية ، وقد وجد عمر بن عبد العزيز هذا الكتاب فى خزائن الكتب فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به »[١] .

(١) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء ص ٢٧٩ .

وقد توفى عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ / ٧١٩ م ، وكانت الدولة المروانية قد بدأت حوالى عام ٦٥ هـ / ٧٨٤ م ، فإذا وضعنا ماسر جويه وسط أيام المروانية لكان ذلك فى العقد التاسع مثلا ، أى خلال الثمانينات ، من التاريخ الهجرى ، أى فى عهد عبد الملك بن مروان .

ومع ذلك فاننا نلاحظ وصف عمل ماسر جويه آنئاك بأنه (تفسير) لكتاب أهرن بن أعين ، وهى طريقة اتبعت فيما بعد لتقديم المعارف الهندية واليونانية والسريانية بلسان عربى ، على يد المجيدين من الأطباء والعلماء ، وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن (التفسير) فى مصطلح ذلك العصر كان ترجمة وزيادة ، وأن المفسر كان بمثابة الشارح لمتون القدماء . ومما يذكر أن هذا العمل المبكر ظل معروفا لدى الأطباء بعد ذلك .

ولذا فنحن مضطرون إلى اعتبار عهد أبى جعفر المنصور ، ثانى خلفاء بنى العباس بداية النقل المنهجى لعلوم اليونان والسريان والفرس والهنود . ويذكر فى عهده - إلى جانب جورجيوس - أبو يحى البطريق (المتوفى ت ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م) ، وكان المنصور قد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م .

وقد لوحظ أن ابن أبى أصيبعة خص الباب التاسع من طبقاته بالأطباء النقلة ، ولعله كان يقصد الذين اشتهروا بالنقل (الترجمة) أكثر من اشتهارهم بالطب والمعالجة ، ولكنه يتعرض فى الأبواب الأخرى لمن اشتهر بالطب أكثر من الترجمة . أو من نبغ فيهما كحنين بن اسحاق ، فيتكرر ذكره فى بابين .

ففى قائمة المترجمين يوحنا بن بختشيوع ، وفى الأبواب الأخرى ذكر ستة من آل بختشيوع هم : جورجيوس بن جبرائيل ، وبختشيوع بن جورجيوس ، وجبرائيل بن بختشيوع بن جورجيوس ، وبختشيوع بن جبرائيل ، وجبرائيل بن عبد الله ، وعبيد الله بن جبرائيل ، وبعض هؤلاء كان يترجم من اليونانية إلى السريانية ، تيسيرا للنقل إلى العربية

وقد دخل هؤلاء فى خدمة الدولة أواخر العقد الخامس - فى عهد المنصور - حين ندب جورجيوس - حتى عبيد الله بن جبرائيل (المتوفى عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) . أى : أنهم ظلوا يمارسون مهنتهم ثلاثة قرون كاملة ، وقد كانوا جميعا مترجمين على تفاوت .

ومن الأعلام التى تناثرت فى طبقات الأطباء . واشتهروا بالترجمة أيضا : عيسى بن على (تلميذ حنين) ، وعيسى بن يحى بن ابراهيم (تلميذ حنين أيضاً) وثابت بن قرة ، ومتى بن يونان ، وأبو بكر محمد زكريا الرازى ، وابن الطبرى ، وأبو الخير ابن سوار ، وأبو على ابن سينا ، ونيكة الهندى (مترجم من الهندية) .

وقد احتوى كتاب الدكتور عمر فروخ (تاريخ العلوم عند العرب) على قائمة للمترجمين زادت على ما جاء فى طبقات الأطباء من أسماء منها : عبد المسيح بن الناعمة الحمصى . وعبد الله بن المقفع (ت ١٤٢ هـ) . وابراهيم الفزازى (ت ١٨٤ هـ) وأبى عبد الله محمد بن يوسف الخوارزمى المتوفى فى ٢٣٨ هـ .

ويضيف الأستاذ عمر رضا كحالة أسماء كثير من المترجمين الذين نبغوا فى تلك الفترة ، وهم ثيوفيل بن توما الرهاوى (ت ١٦٩ هـ) ، ويعقوب بن طارق (ت ١٨٠ هـ) وابراهيم الفزارى المتوفى عام ١٨٤ هـ ، وعلى الطبرى المتوفى عام ٢٣٦ هـ ، ولم يعترف به بن أبى أصيبعة مترجما ، وأبو زكريا يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣ هـ) ، وابن ماسويه هذا كان أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة كتب الطب القديمة التى عثر عليها فى أنقرة وعمورية ، وغيرهما من بلاد الروم [١].

لقد حاولنا ذكر أكبر عدد من الأسماء التي أسهمت فى تحقيق وازدهار ترجمة العلوم الحضارية من لغات اليونان والفرس والهنود والسريان ، انطلاقا من إيماننا بأن الاكتفاء بالأشارة إلى بضعة أعلام فى تاريخ الحضارة الإسلامية هو انتقاص من قدر هذه الحضارة ، وبخس لأقدار المسهمين فى بنائها ، فليس بمعقول أن تنهض بتشييد هذا البناء مجموعة قليلة من الرجال ، الذى حالفهم الحظ فبقيت أسماؤهم مذكورة على مر التاريخ ، على حين غابت أسماء ليست بأقل إسهاما فى هذا المجال .

وقد لوحظ أن أكثر هؤلاء الأعلام عاشوا خلال القرن الثانى والثالث ، إذ كان هذان القرنان قد شهدا أعظم نشاط فى مجال الترجمة من العلوم المختلفة لذا نعتبر الترجمة بداية لتأريخ العلوم عند العرب ، ثم نشأت بعد ذلك طبقة من المؤلفين الذين انتفعوا بما ترجم من الكتب اليونانية والهندية والفارسية والسريانية وغيرها من كتب النصرانية واليهودية، فاجتهدوا فى دراسة هذه الكتب . واستخرجوا منها علوم الحضارة العربية ، بناء على اختياراتهم وتجاربهم .

الترجمة من أهم الأنشطة العلمية عند العرب :

الترجمة هى همزة الوصل بين الثقافات ، والجسر الواصل بين الحضارات ، والنافذة المفتوحة على تاريخ الشعوب ، بها تعرف عبقرياتها وتكتشف خصائصها ومميزاتها ، وتزول حواجز الخطأ والوهم التى تمنعها من تبادل الفهم الصحيح والعطاء النافع .

---

(١) الزركلى : الأعلام جـ ٨

وقد سجل العرب سابقة بوأتهم مكانة مرموقة فى تاريخ الحضارة الانسانية ، فلم يغتروا بنشوة النصر ، وانكبوا على ثقافات الأمم الأخرى ينهلون منها بشغف كبير أيام كانت لهم السطوة والجاه ، فكان حكامهم أشد الناس حرصا على نقل العلوم ، وأكثرهم تواضعا للعلماء والكتاب الذين ترجموا الكتب ، فقربوهم وأغدقوا عليهم الأموال حتى نقل العرب فى قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه فى عدة قرون .

بدأت الترجمة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية بجهود فردية يعود أولها فيما أتفقت عليه أغلب الروايات إلى العهد الأموى كما ذكرنا ، مع خالد بن يزيد الذى كانت له محبة للعلوم » وشغف بالصنعة » واستمرت حركة الترجمة على أيدى بعض الأفراد وعربت الدواوين فى عهد عبد الملك ، حتى جاء العهد العباسى فأصبحت الترجمة نشاطا علميا طاغيا على بقية النشاطات وأهتم بها الخلفاء ، فبعث المنصور إلى امبراطور الروم يسأله عن أشهر الكتب واختار لها كبار المترجمين من بينهم جرجيوس بن بختشيوع جد آل بختشيوع الذين كان لهم دور كبير فى نقل العلوم الطبية إلى العربية [(١)] .

وتواصلت هذه العناية بالترجمة مع الرشيد وإليه يعود الفضل فى تأسيس بيت الحكمة أو خزانة الحكمة التى قيل عنها إنها كانت أول أكاديمية ظهرت فى الإسلام ، وقد بلغ شغف الرشيد بالعلوم أنه حين استولى على أنقرة وعمورية كان أول ما فكر فيه هو تكليف عدد من العلماء يحذقون اليونانية والآرامية والسريانية بفحص المكتبات واختيار أحسن ما فيها من الكتب ليضعها فى بيت الحكمة . ولم يكن بيت الحكمة الا تتويجا للجهود التى بدأت فى العهد الأموى واستمرت مع بداية العهد العباسى وقد وجدت هذه المؤسسة العلمية التى يتفق المؤرخون على دورها فى نشر المعرفة وإثراء المدينة الإسلامية ، عناية أكبر من الخليفة المأمون الذى أعطاها صبغتها النهائية حتى اقترنت باسمه ، إذ نظم هذا النشاط الثقافى وجعل من بيت الحكمة مجمعا علميا ، ومرصدا فلكيا ، ومكتبة عامة ، أقام فيها طائفة من المترجمين أجرى عليها الأرزاق من بيت المال [(٢)] .

وكانت بين المأمون وملك الروم مراسلات ، فكتب إليه المأمون يسأله أن يبعث إليه المأمون ما يختار من الكتب ، ويبدو أن ملك الروم امتنع أول الأمر ثم أجابه إلى طلبه مما. وكان المترجمون ينقلون عن أشهر اللغات المعروفة فى عصرهم : السريانية واليونانية

---

(١) د . الشحات السيد زغلول : السريان والحضارة السريانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ١٩٧ .

(٢) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ترجمة تمام حسنى - الأنجلو - ١٩٧٥ ص ٢٣٢ وما بعدها

والفارسية والهندية والقبطية والعبرية ويوزعون الاعمال فيما بينهم . فمنهم من يتولى الترجمة ومنهم من يكلف بالمراجعة ، وكانوا من أشهر العلماء أصحاب الاختصاص مثل يوحنا بن ماسوية وحنين بن اسحاق وثابت بن قره . وواصلت هذه المدرسة النشيطة عطاءها في عهد المتوكل وأصبح لها اشعاع يمتد إلى كل أرجاء العالم الإسلامى حتى أن أحد امراء بنى الأغلب حاول مجاراة بنى العباس وأسس بيت الحكمة برقادة [1].

وتمت النقلة من النقل والترجمة إلى الكشف والابداع بعد تمثل المعرفة باللغة الام واستطاع العرب أن يكونوا فيما بعد مصدر الغلم والمعرفة وأن يعطوا مثلما أخذوا . فنقلت علومهم إلى اللغة اللاتينية وتوفر لنقلها أفراد وجماعات شجعهم على ذلك رجال السياسة ورجال الدين . بدأت هذه الحركة مع نهاية القرن الحادى عشر للميلاد واستمرت طيلة القرن الثانى والثالث عشر . وكان الاندفاع كبيرا وقد ضمت قائمة المترجمين لعلوم العرب اسما لاحد رجالات الكنيسة هو جربرت دورىلاك GERBERT DAURILLAC الذى أصبح بابا باسم سلفستر الثانى (٩٩٩ -١٠٠٣) م .

وكان استرجاع الاسبان لمدينة طليطلة الاندلسية سنة ١٠٨٥م منعرجا هاما فى حركة الترجمة ، وقد اتبع الأوروبيون تقريبا نفس الطريقة التى اتبعها العرب فى عهد الرشيد والمأمون فأسسوا مجموعات منها ما يكلف بالترجمة ، ومنها ما يكلف بالمراجعة ، واشترك دومنجو جوند يسالفى DOMINGO GONDISALVI مع يهودى يعرف باسم ابن داود بطليطلة فى اختار أحسن الكتب العربية ، فكان اليهودى يقوم بالترجمة الأولى بينما كان جوند يسالفى يسهر على الاختيار وتحرير النص النهائى باللغة اللاتينية ، وكان من كبار مترجمى ما يعرف بمدرسة طليطلة للمترجمين جيراردى كريمون GERARD DE CREMONE الايطالى ، لان الأعلام المعروفين كانوا يواجهون أعمال مجموعات تعمل بإشرافهم ، فكثيرا ما تنسب إليهم هذه الأعمال التى أشرفوا عليها ، ومما يعرف عن دى كريمون أنه استعان بمترجم عربى اسمه غالب ، واشتهرت إلى جانب مدرسة طليطلة الأندلسية مدرسة سالرنو بصقلية التى ينسب تأسيسها إلى الملك النورماندى روجر الثانى وكان من أعلامها قسطنطين الإفريقى وميخائيل سكوت الذى كان همزة وصل بين مدرسة سالرنو ومدرسة طليطلة ، وهكذا يمكن القول بأن أوربا لم تعرف علوم العرب وفلسفتهم إلا عن طريق الترجمة ولم تعرف علوم اليونانية وفلسفتهم إلا عن طريق العرب.

---

(١) ابن النديم : الفهرست . مطبعة الاستقامة ص ٣٥٣.

إن هذه الحركة الكبيرة التى استهدفت نقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية كانت ركيزة هامة من ركائز النهضة الأوروبية بشهادة الأوروبيين أنفسهم : يقول مونجمرى وات أن الواجب يدعونا إلى اصلاح اخطائنا والاعتراف بديننا الكبير للعالم العربى [١] .

من رواد الترجمة

(١) حنين بن إسحاق

(١٩٤ - ٢٦٤ هـ) (٨٠٩ - ٨٧٧ م)

ولد أبو زيد حنين بن إسحاق العبادى سنة ١٩٤ هـ فى الحيرة (بالعراق) من أب مسيحى نسطورى كان يشتغل بالصيدلة . وقد تتلمذ حنين فى بادئ الأمر ليوحنا بن ماسويه فى مدرسة جنديسابور ، ثم تركه لكى يدرس لعدة سنوات اللغة اليونانية حتي حذقها تماماً . وعندما حقق أمنيته قصد إلي البصرة ، كعبة اللغة العربية حينذاك ، فأتقن فيها لغة الضاد . وبذلك أصبح حنين يجيد أربع لغات هى : السريانية وهى لغته الأصلية ثم الفارسية واليونانية والعربية [٢] .

عاد إلى بغداد ودخل فى خدمة جبرائيل بن بختيشوع المتوفى سنة (٢١٤هـ / ٨٢٩م) ، طبيب المأمون الخاص ، الذي قربه من الخليفة والأوساط العلمية . فتمكن بذلك من الحصول علي مخطوطات يونانية عديدة فى الطب والفلسفة فترجم قدراً كبيراً منها . ورحل إلى كثير من البلاد فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر (الإسكندرية) ، للحصول علي نوادر المخطوطات التى تيسر له أن يحسن ضبط الترجمات التى تولاها . ولقد وافانا حنين فى رسالته : « فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس » بنشاطه المدهش في هذا الميدان، ويؤخذ من قائمة وضعها حنين وأتمها أحد تلاميذه أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً ، وترجم إلى العربية منهاتسعة وثلاثين . هذا إلى أنه راجع ترجمة تلاميذه فأصلح ستة كتب مما نقل إلى السريانية ونحواً من سبعين كتاباً إلى العربية كما راجع وأصلح معظم الخمسين كتاباً التى كان قد ترجمها إلى السريانية سرجيوس وأيوب الرهاوى وغيرهما من الأطباء المتقدمين [٣] .

وكان حنين بن إسحاق حريصاً على تأدية المعنى بدقة ، فاهماً تماماً مقتضيات النشر العلمى ووجوب الرجوع إلى أحسن المخطوطات . اسمع ما يقوله عن إحدى ترجماته

---

(١) د . أحمد فؤاد سليم : تاريخ العصورالوسطى جـ ١ ص ٣٨ .

(٢) الأب جورج قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير . دار المعارف ١٩٥٨ ص (٢)

(٣) المرجع السابق : ص (٢)

وهو فى سن الشباب حيث يتكلم عن كتاب « فى الفرق » لجالينوس : « ترجمته وأنا شاب . . من نسخة خطية يونانية مشوهة ، ثم لما بلغت الأربعين من عمرى طلب إلى تلميذى حبيش أن أصلحها بعد إذ كنت قد جمعت قدراً من المخطوطات اليونانية . وعند ذلك رتبت هذه بحيث نسقت منها نسخة صحيحة قارنتها بالنص السريانى ثم صححتها . وتلك عادتى التى أتبعها فى كل ما ترجمته »[1] . ومع هذا المجهودالمضنى كانت تمتاز ترجمة حنين برصانة الأسلوب العربى . فقد قارنه المستشرق الشهير برجستراسر Bergstraesser بأسلوب تلميذه حبيش وأشار إلى أنهما . . . « تجشما عناء كبيراً فى التعبير عن معنى أصول الكتب اليونانية بقدر ما يستطاع من الوضوح . وكانا يترجمان ترجمة حرفية حتى ولو ضحيا فى ذلك بجمال اللغة وتنسيق ديباجتها . ولكن تراجم حنين أفضل ودقتها أعظم . ومع ذلك فإن الإنسان يخيل إليه أنها ليست نتيجة مجهود صادق ولكن نتيجة تمكن وثيق من اللغة وحسن تصرف فى مذاهبها . ويتجلى هذا فى سلاسة التوفيق بين اليونانية والعربية والدقة المتناهية فى التعبير مع الإيجاز ، تلك هى مميزات فصاحة حنين التى أشتهر بها »[2] .

وبجانب ترجمته لكتب جالينوس ، نقل حنين إلى العربية عدداً من كتب أبقراط . مثال ذلك : « كتاب الفصول » مع تفسير جاليتوس عليه المترجم إلى السريانية والعربية ، و « كتاب الكسر » و « كتاب الخلع » و « تقدمة المعرفة » و « تدبير الأمراض الحادة » وكتاب فى القروح ، وكتاب جراحات الرأس ، وكتاب الابيذيما وكتاب « الأمراض الوافدة » وكتاب « فى الأخلاط » وكتاب « قاطيطيرون » وكتاب « الأهوية والمياه والبلدان » وكتاب « الغذاء » وكتاب « طبيعة الإنسان » وكتاب « الكنانيش » لأورباسيوس بحذافيره وكتابه إلى أونابيوس و « كتاب السبع مقالات » لبولس الأجنيطى Paul d'Egine و « المادة الطبية » لديوسقوريدس وكلها كتب ضخمة جداً ، هذا بجانب الكتب الفلسفية لأرسطو وأفلاطون[3] .

ولم يكتف حنين بالترجمة بل كان كذلك طبيباً ماهراً امتاز بمعالجة أمراض العين كما كان مؤلفاً قديراً فى مواضيع شتى . وقد أورد ابن أبى أصيبعة أكمل قائمة لمؤلفاته العربية ، وهى تحتوى على أكثر من مائة كتاب فى مختلف فروع الطب . نذكر ثلاثة منها:

---

(١) ذكر هذا النص الدكتور مايرهوف فى مقدمة كتابه : كتاب العشر مقالات فى العين ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠ عن الأب جورج قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير .

(٣) الأب جورج قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير ص ١٢٣ .

أما الكتاب الأول فهو : **كتاب العشر مقالات فى العين** ، يذكر فى الستة الأولى منها طبيعة العين وتركيبها ، وطبيعة الدماغ ومنافعه ، والعصب الباصر والروح الباصر ، وجملة الأشياء التى لابد منها لحفظ الصحة واختلافها ، وأسباب الأمراض الكائنة فى العين . ويعرض فى الأربع المقالات الأخيرة قوى جميع الأدوية عامة (المقالة السابعة) ، ثم يذكر أجناس الأدوية للعين خاصة وأنواعها (الثامنة) ، ثم مدواة أمراض العين (التاسعة) وفى المقالة العاشرة ، الأدوية المركبة الموافقة لأمراض العين . ولننظر إلى هذه المقالات بشئ من التفصيل [1] .

ويحتوى مخطوط « العشر مقالات فى العين » على خمسة رسوم تخطيطية للعين وكانت فى الأصل ثمانية أو عشرة ويقول مايرهوف عن هذه الرسوم : « ولما كان الكتاب مقتبساً من كتب اليونان فإن هذه الرسوم كانت لاشك موجودة فى النسخ اليونانية ونقلها الأطباء العرب الذين ترجموها . ثم هى أيضاً أول رسوم معروفة لتشريح العين وهى أرقى بكثير من تلك الرسوم التى زينت بها الكتب الأوروبية فى القرون الوسطى » وقد نشر هذا المخطوط الفريد الدكتور مايرهوف نشرة علمية وقدم له مطولا وترجمه إلى الإنجليزية بالقاهرة سنة ١٩٢٨ [1] .

ولحنين بن إسحاق كتاب آخر فى العين عنوانه : « **كتاب المسائل فى العين** » وهو ثلاث مقالات ومحرر على طريقة السؤال والجواب ألفه لولديه داود وإسحاق وهو مائتان وتسع مسائل وقد نشره الأب سباط والدكتور مايرهوف بالقاهرة سنة ١٩٣٨ وقدما له وترجماه إلى الفرنسية [2] . وهناك بعض كتبه التي ذاعت بها شهرته فى القرون الوسطى بأوربا مثل : تفسير كتاب الصناعة لجالينوس « المدخل » والذى ترجم إلى اللاتينية تحت عنوان Isagoge Johannitii [3] :

أما الكتاب الثالث « **المسائل فى الطب** » فهو عبارة عن مقدمة للطب العام على شكل أسئلة وأجوبة . وقد كان هذا الكتاب مرجعاً فسره كثير من أطباء العرب وعلقوا عليه . ويوجد فى أوربا عدد وافر من هذه المخطوطات لم تنشر بعد . وقد أحصى المستشرق جبرييلى ٤٧ كتاباً من مؤلفات حنين الخاصة بالطب فُقد أكثرها لسوء الحظ . هذا بخلاف ما كتب فى مواضع شتى مثل المنطق، والنحو ، وتاريخ جامع وصل به إلى

---

(١) ماكس مايرهوف : مقدمة العشر مقالات في العين .

(٢) المرجع السابق

(٣) اوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية . ص ٢٤٩ .

حكم العباسيين، ومسائل دينية . ولذا لم يبالغ الدكتور لوكلير Leclerc فى شئ حينما قال مستهلا بحثه المسهب عن حنين بن إسحق في كتاب تاريخ الطب العربى [١] :

« يعد حنين أقوى شخصية أنجبها القرن التاسع بل من أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقاً . فنطاق أبحاثه الشاسع الأطراف واختلاف أنواعها وامتيازها وأهميتها ، والمحن التى تحملها بشجاعة ونبل فى بدء حياته العلمية وفى أثنائها . مما يبعث الاهتمام ويجذب القلوب إليه . وهو وإنْ لم يكن من رواد النهضة فى الشرق إلا أن أحداً لم يشارك فى تلك النهضة مشاركة فعالة وراسخة كما فعل حنين » . [٢]

(٢) إسحاق بن حنين العبادى

(ت ٢٩٨ هـ - وقيل ٢٩٩ هـ / ٩١٠م)

حياته : هو إسحاق بن حنين بن العبادى أصغر أولاد حنين ، مثل أبيه من أفاضل الأطباء والمترجمين ، وعرف إسحاق بصحة النقل من اليونانية والسريانية ، وانقطع في آخر أيامه للوزير القاسم ابن عبيد الله الذى عرف برعايته للأدباء والشعراء والعلماء . وإسحاق هو الذى كتب إليه ابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر رسالة تعتبر من أبلغ رسائل الاعتذار ، إذا قال :

(تَرفّع عن ظلمى إن كنت برئياً ، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً) فوالله إنى لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه لتزداد تطولاً وأزداد تذللاً . وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك) وقد ظل إسحاق منقطعاً للقاسم حتى توفى .

وقد نقل إسحاق من الكتب اليونانية إلى اللغة العربية كتباً كثيرة ، إلا أن جل عنايته كانت مصروفه إلى نقل الكتب الحكمية ، يشير ابن خلكان إلى ذلك أيضاً بقوله "إن الذى يوجد من تعريبه فى كتب الحكمة من كلام أرسطو طاليس وغيره أكثر مما يوجد من تعريبه لكتب الطب " ويعلل ابن العبرى ذلك بقوله " إن نفس إسحاق كانت أميل إلى الفلسفة [٣] .

---

(١) الآب چورچ قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير ص ١٢٨ .

(٢) LECLERC (L.), Histoire de la médecine arabe. irst ed. - 139 جـ ١ ، ص ١٣٩ .

(٣) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ص ٢٥٢ وما بعدها .

ومن المؤلفات التى نقلها إلى اللغة العربية أصول الهندسة لإقليدس ، وأصلحه فيما بعد ثابت بن قرة ، وكتاب المعطيات لإقليدس أيضا وهو عبارة عن خمسة وتسعون شكلاً ، ثم كتاب المجسطى لبطلميوس ، وقد أصلحه كذلك ثابت بن قره .

يقول القفطى " أصلح ثابت النسخه التى نقلها بن حنين من المجسطى إلى العربية إصلاحاً قضى فيه حق من سأله ذلك أو حق إسحاق "[1] .

ويذهب ماكس ما يرهوف إلى أن السبب فى أن ما ترجمه إسحاق قد أصلحه غيره إلى أن معلوماته فى اللغة العربية كانت قليلة جداً ، بحيث أنه لم يتمكن من حسن الترجمة ، غير أن ابن النديم يقول " وكان فصيحاً بالعربية يزيد على أبيه فى ذلك ، والقفطى فى كتابه أخبار الحكماء يردد ما قاله ابن النديم بنفس ألفاظه ، ويبدو لى أن تفوق إسحاق على أبيه فى اللغة العربية لا يعنى أنه كان يتقنها ، إذ أن معرفة حنين بالعربية كانت قاصرة فى مستهل حياته ولاشك أن معرفة المترجم للغة تزداد مع الممارسة "[2] .

وقد نقل إسحاق بن حنين من كتب أرسطو المقولات ، والجدل والعبارة كما نقل كتاب البرهان إلى السريانية ونقله متى بن يونس إلى العربية ، والخطابة فقد نقله إسحاق بمساعدة إبراهيم بن عبد الله ، ولانستطيع أن نتبين يقيناً أى هذه الكتب نقلت عن السريانية، وأيها نقل مباشرة عن اليونانية ، كذلك لا نعرف على وجه التحقيق إذا كان بعض هذه الترجمات قام به إسحاق أو أبوه حنين ، ومرد ذلك إلى أنهما كان يشتغلان معاً كما ترجم إسحاق مع أبيه أيضاً كتاب جالينوس " أفلاطون فى طيماوس " من اليونانية إلى العربية ، وترجم أيضاً كتاب الكرة والأسطوانة لأرشميدس وكتاب الأشكال الكروية لمنالاوس وقد ذكر حاجى خليفة ذلك في كتابه كشف الظنون .

ويبدو أن إسحاق كان قد أسلم إذ يقول البيهقى عنه : وإسحاق بن حنين كان من جلة المسلمين وقد حسن إسلامه ، وأشركه المكتفى فى بيعة ابنه مع وزيره العباس بن الحسن

لاسحاق بن حنين كتب كثيرة نذكر منها :

١ - كتاب الأدوية المفردة . ٢ - كناش لطيف (كناش الخف) .

٣ - كتاب جماعة من الحكماء والأطباء ذكر فيه ابتداء صناعة الطب .

٤ - كتاب الأدوية الموجودة بكل مكان . ٥ - كتاب إصلاح الأدوية المسهلة .

---

(١) القفطى : أخبار الحكماء مطبعة السعادة . ص ٨٣ .

(٢) ماكس ما يرهوف : مقدمة العشر مقالات في العين .

٦ - إختصار كتاب اقليدس . ٧ - كتاب المقالات .

٨ - كتاب ايساغوجى ، مدخل إلى صناعة المنطق .

٩ - إصلاح جوامع الاسكندرانيين لشرح جالينوس لكتاب الفصول لأبقراط .

١٠ - كتاب فى النبض على جهة التقسيم .

١١ - مقالة فى الأشياء التى تفيد الصحة والحفظ .

١٢ - كتاب صنعة العلاج بالحديد . ١٣ - كتاب آداب الفلاسفة ونوادرهم .

١٤ - مقالة فى التوحيد .

ومن كلام اسحاق قال : قليل الراح صديق الروح - وكثيرها عدو الجسم . ومن شعره[١]

أنا ابن الذين استودع الطب فيهم ... وسُمُّوا به طفل وكهل ويافع

يبصرنى ارسطاليس بارعاً ... يقَّوم منى منطق لا يُدافع

وأبقراط فى تفصيل ما أثبت الآلى ... لنا الضر والأسقام طب مضارع

وما زال جالينوس يشفى صدورنا ... لما اختلفت فيه علينا الطبائع

ويحيى بن ما سويه وأهرن قبله رأى ... لهم كتب للناس فيها منافع

رأى فى الطب نيلت فلم يكن ... لنا راحة من حفظها وأصابع

(٣) يوحنا بن ماسويه

ت ٢٤٣ هـ / ٨٥٧م

حياته : من أطباء مدرسة جند يسابور ، هاجر إلى بغداد فى أول القرن الثالث الهجرى ، وهناك أقام ببيمارستانا ، وجعله الخليفة المأمون فى سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م رئيساً لبيت الحكمة ، وكان حنين ابن اسحاق من تلاميذه ، وقد اشتهر بجانب علمه بالطب بترجمة الكتب الطبية القديمة إلى العربية ، والتى وجدت بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم التى فتحها المعتصم عام ٢٢٣هـ وكان فتحا من أعظم الفتوح الإسلامية، وبذلك خدم يوحنا فى زمن المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وكان يوحنا يعقد مجالس للنظر ويجرى فيها الحوار من كل نوع فى العلوم القديمة بأحسن العبارات ، كما اهتم بالتدريس ولذا فقد اجتمع له تلاميذ كثيرون منهم حنين . ويصف يوسف بن إبراهيم مجلس يوحنا بن ماسويه بأنه

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء مكتبة الحياة ص ٢٧٥.

أعمر مجلس كان يراه بمدينة السلام لمتطبب أو متكلم أو متفلسف ، لأنه كان يجتمع فيه كل أهل الأدب ، وكان يوحنا يتصف بالمداعبة الشديدة ، ويحضر بعض من يحضر من أجلها[1] .

قيل شكى إليه رجل من جَرَب أضرَّ به ، فأمره بفصد يده اليمنى ، فأعلمه أنه قد فعل ، فأمره بفصد يده اليسرى ، فذكر أنه فعل ، فأمره بشرب دواء مطبوخ ، فقال قد فعلت ، فأمره بشرب دواء الأصمخسيقون ، فأعلمه أنه قد فعل ، فأمره بشرب ماء الجبن أسبوعاً ، ومخيض البقر أسبوعين ، فأعلمه أنه قد فعل ، فقال له : لم يبق شئ مما أمر به الأطباء إلا وقد ذكرت أنك فعلته ، وبقى شئ لم يذكره أبقراط ولا جالينوس ، وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً ، فاستعمله فإنى أرجو أن ينجع علاجك إن شاء الله : فسأله المريض ما هو ؟ فقال عليك بشراء ورق ، وقَطِّعه رقاعاً صغيرة ، واكتب فى كل رقعة " رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية ، وألقِ نصف الورق فى المسجد الشرقى بمدينة السلام ، والنصف الآخر فى المسجد الغربى ، وفى مجالس يوم الجمعة ، فإنى أرجو أن ينفعك الله بالدعاء ، إذ لم ينفعك العلاج[2] .

وقيل حضر إليه قسيس الكنيسة التى يتقرب فيها يوحنا وقال له : قد فسدت معدتى فقال يوحنا استعمل سفوف الخوزبى ، فقال قد فعلت ، فقال له يوحنا فاستعمل سفوف السقمونيا ، قال قد أكلت منه أرطالا ، فأمره باستعمال شراب المقداذ . فقال قد شربت منه جرة ، قال له فاستعمل المروسيا ، قال قد فعلت وأكثرت ، فغضب يوحنا وقال له : إن أردت أن تبرأ فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة [3] .

وقيل : كان بختيشوع بين جبرائيل يداعب يوحنا كثيراً فقال له يوما فى مجلس الأمير بالمدائن عام ٢٢٠ هـ : أنت يا أبا زكريا أخى لأبى ، فقال يوحنا إشهد أيها الأمير على اقراره ، فوالله لأقاسمنه ميراثه من أبيه ، فقال له بختيشوع : إن أولاد الزنا لايرثون ولا يورثون ، وقد حكم الدين الإسلامى للعاهر بالحجر فانقطع يوحنا ولم ينطق جواباً .[4] . .

وقيل . . كان ليوحنا بن ماسوية ابن يقال له ماسويه ، أمه بنت الطيفورى ، وكان ماسويه الابن أشبه خلق الله بأبيه فى سحنته ولفظه وحركاته ، إلا أنه كان بليداً لايكاد يفهم شيئا إلا بعد مدة طويلة ، ثم ينسى ذلك أسرع من اللحظ ، يقول عنه أبيه ، بليت بطول الوجه وارتفاع قحف الرأس وعرض الجبين ، وزرقة العين أورزقت ذكاء وحفظاً ، لكل

---

(١) اوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ص ٢٦٤ .

(٢)،(٣) ابن أبى اصيبعة : عيون الأبناء في طبقات الأطباء ص ٢٤٧ / ٢٤٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٨ .

ما يدور فى مسامعى ، وكانت بنت الطيفورى أحسن أنثى رأيتها أو سمعت بها إلا أنها كانت بلهاء حمقاء ، لاتعقل ماتقول، ولاتفهم ما يقال لها ، فتقبل ابنها مسامجنا جميعاً، ولم يرزق من محاسننا شيئاً ، ولولا كثرة فضول السلطان ودخوله فيما لايعنيه لشرحّت ابنى هذا حياً ، مثل ما كان جالينوس يشرّح القرود والناس ، حتى أعرف بتشريحه الأسباب التى كانت لها بلادته ، وأريح الناس من خلقته ، واكسب الناس علماً بما أضعه فى كتابى عن صفة تركيب بدنه . ومجارى عروقه وأورداه وعصبه . ولكن السلطان يمنع ذلك . . واعتل ماسويه الابن بعدم كلام الأب بليال قلائل ، ففصده يوحنا على غير رأى الطيفورى وابناه زكريا ودانيال . وسافر بعد ذلك بليلة واحده إلى الشام . . . ومات ماسويه فى اليوم الثالث ، فكان الطيفورى وولديه يحلفون فى جنازته أن يوحنا تعمد قتله يقول المؤرخ ادوارد براون أن يوحنا هو أول عربى قام بتشريح جثث الحيوانات اعتقاداً منه بأن الشريعة الإسلامية تحرم تشريح جثث الآدميين ، ومن كلام يوحنا بن ماسويه أنه سئل عن الخير الذى لاشر معه فقال ، شرب القليل من الشراب الصافى ، ثم سئل عن الشر الذى لاخير معه فقال : نكاح العجوز ، وقال أكل التفاح يرد النفس ، وقال : عليك من الطعام بما حدث ، ومن الشراب بما عتق[1] .

وليوحنا بن ماسويه العديد من الكتب نذكر منها [2]:

١ - كتاب البرهان ثلاثون بابا .
٢ - كتاب البصيرة .
٣ - كتاب الكمال والتمام .
٤ - كتاب الحميات .
٥ - كتاب فى الأغذية .
٦ - كتاب فى الأشربة .
٧ - كتاب المنجح فى الصفات والعلاجات .
٨ - كتاب فى الفصد والحجامة .
٩ - كتاب فى الجذام . . لم يسبقه أحد إلى مثله .
١٠ - كتاب الجواهر .
١١ - كتاب الرجحان .
١٢ - كتاب فى تركيب الأدوية المسهلة واصلاحها وخاصة كل دواء منها ومنفعته .
١٣ - كتاب دفع مضار الأغذية .
١٤ - كتاب السر الكامل .
١٥ - كتاب فى دخول الحمام .
١٦ - كتاب السموم وعلاجها .
١٧ - كتاب فى الصداع وعلله وأوجاعه وجميع أدويته والعلل المولدة لكل نوع منه .
١٨ - كتاب الصدر والدواء .
١٩ - كتاب محنة الطبيب .
٢٠ - كتاب معرفة مهنة الكحالين .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

٢١ - كتاب دغل العين .(ترجمت أوروبا هذا الكتاب وكان مرجعها فى دراسة العين .)

٢٢ - كتاب مجسة العروق . ٢٣ - كتاب الصوت والبحة .

٢٤ - كتاب ماء الشعير . ٢٥ - كتاب المرة السوداء .

٢٦ - كتاب علاج النساء اللواتى لايحبلن حتى يحبلن . ٢٧ - كتاب الجنين .

٢٨ - كتاب تدبير الأصحاء . ٢٩ - كتاب فى السواك والسنونات .

٣٠ - كتاب المعدة . ٣١ - كتاب القولنج .

٣٢ - كتاب النوادر الطبية . ٣٣ - كتاب التشريح .

٣٤ - كتاب فى ترتيب سقى الأدوية المسهلة .

٣٥ - كتاب تركيب خلق الإنسان وأجزائه وعدد أعضائه ومفاصله وعظامه وعروقه ومعرفة أسباب الأوجاع - ألفه للمأمون .

٣٦ - كتاب جامع الطب مما اجتمع أطباء فارس والروم .

٣٧ - كتاب الماليخوليا وأسبابها وعلاماتها وعلاجها .

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه ببلدة سُرمَنْ رَأى سنة ٢٤٣ هـ فى خلافة المتوكل .

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكى

(توفى حوالى ٣٠٠ هـ - ٩١٢م)

حياته : أصله يونانى إلا أنه يعد من فلاسفة اليونانيين المتأخرين فى عهدى المعتمد بالله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) والمقتدر بالله (٢٩٥ - ٢٩٦هـ) وهو أحد مشاهير الأطباء ونقلة العلوم فى الإسلام . كان معاصراً للكندى المتوفى سنة ٢٥٥هـ وثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، وهو مسيحى الديانة ترجع شهرته لكونه طبيبا حاذقا تبحر فى الفلسفة والتنجيم والهندسة والحساب والموسيقى ، كان يجيد اللغة اليونانية ، وجيد العبارة بالعربية ، ولذا فقد نقل كتبا كثيرة من اليونانية إلى اللغة العربية ، وكان حسن النقل فصيحا باللسان اليونانى والسريانى والعربى ، وأصلح نقولاً كثيرة ، وله رسائل وكتب كثيرة فى صناعة الطب [(١)] .

وقد ذكر ابن العبرى ، إن قسطا دخل إلى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثيرة وعاد إلى الشام . كما ذكر القفطى أنه استدعى إلى العراق ليترجم كتبا ويستخرجها من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى ، كما أسند إليه الإشراف على ترجمة المراجع اليونانية فى بغداد [(٢)] .

---

(١) صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٣٠

(٢) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ص ٢٥٩

ويشير ماكس مايرهوف إلى ما نقله قسطا : إنه ترجم كثيراً من المؤلفات الطبية والرياضية والفلكية ، كما ترجم إلى جانبها مؤلفات فلسفية صحيحة أو منحولة .

ولقسطا بن لوقا الكثير من الكتب فى مختلف مناحى المعرفة نذكر منها [1] :

١ - كتاب فى أوجاع النقرس . ٢ - كتاب فى الروائح وعللها .
٣ - رسالة فى أحوال الباه وأسبابه ، قدمها إلى أبى محمد الحسن بن مخلد .
٤ - كتاب فى الأعداء ، قدمه للبطريق مولى أمير المؤمنين بأرمينية .
٥ - كتاب جامع فى الدخول إلى علم الطب قدمه إلى ابن المدبّر .
٦ - كتاب فى النبيذ وشربه فى الولائم . ٧ - كتاب فى الاسطقسات .
٨ - كتاب فى السهر ، ألفه لأبى الغطريف البطريق مولى أمير المؤمنين بأرمينية .
٩ - كتاب فى العطش ألفه لأبى الغطريف البطريق مولى أمير المؤمنين بأرمينية .
١٠ - كتاب فى القوة والضعف . ١١ - كتاب فى الأغذية عن طريق القوانين الكلية .
١٢ - كتاب فى النبض ومعرفة الحميات وضروب البحرانات .
١٣ - كتاب فى علة الموت فجأة .
١٤ - كتاب فى معرفة الخدر وأنواعه وعلله وأسبابه وعلاجه ، ألفه لقاضى القضاه أبى محمد الحسن .
١٥ - كتاب فى أيام البحران فى الأمراض الحدة .
١٦ - كتاب فى الأخلاط الأربعة وما تشترك فيه .
١٧ - كتاب فى الكبد وخلقتها وما يعرض فيها من الأمراض .
١٨ - رسالة فى المروحة وأسباب الريح . ١٩ - كتاب فى مراتب قراءة الكتب الطبية .
٢٠ - كتاب فى تدبير الأبدان فى سفر الحج . ٢١ - كتاب فى دفع ضرر السموم .
٢٢ - كتاب فى المدخل إلى علم الهندسة . ٢٣ - كتاب آداب الفلاسفة .
٢٣ - كتاب فى الفرق بين الحيوان الناطق وغير الناطق . ٢٥ - كتاب فى تولد الشعر .
٢٦ - كتاب فى الفرق بين النفس والروح . ٢٧ - كتاب فى الحيوان الناطق .
٢٨ - كتاب فى الجزء الذى لايتجزأ . ٢٩ - كتاب فى حركة الشريان .
٣٠ - كتاب فى النوم والرؤيا . ٣١ - كتاب فى العضو الرئيس من البدن .
٣٢ - كتاب فى البلغم . ٣٣ - كتاب فى الدم .
٣٤ - كتاب فى المرة الصفراء والمرة السوداء .

---

(١) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٣٣٠ .

٣٥ - كتاب في شكل الكرة الأسطوانية . ٣٦ - كتاب في الهيئة وتركيب الأفلاك .
٣٧ - كتاب في حساب التلاقي على جهة الجبر والمقابلة .
٣٨ - كتاب في ترجمة ديوفنطس في الجبر والمقابلة .
٣٩ - كتاب في العمل بالكرة الكبيرة النجومية .
٤٠ - كتاب في الآلة التي ترسم عليها الجوامع وتعمل منها النتائج .
٤١ - كتاب في المتعة . ٤٢ - كتاب في المرايا المحرقة .
٤٣ - كتاب في الأوزان والمكاييل . ٤٤ - كتاب في السياسة .
٤٥ - كتاب العلة في اسوداد الخيش وتغيره من الرش .
٤٦ - كتاب في الاستدلال بالنظر إلى أصناف البول . ٤٧ - كتاب المدخل إلى المنطق .
٤٨ - كتاب مذهب اليونانيين . ٤٩ - كتاب في شكوك كتاب إقليدس .
٥٠ - كتاب الفصد ، ألفه لابن المدبّر . ٥١ - كتاب المدخل إلى علم النجوم .
٥٢ - كتاب الحمام . ٥٣ - كتاب الفردوس في التاريخ .
٥٤ - كتاب في عبارة كتب المنطقة ، وهو المدخل إلى كتاب أيساغوجي .
٥٥ - كتاب أيساغوجي . ٥٦ - كتاب في النجار .
٥٧ - رسالة من علل إختلاف الناس في أخلاقهم وسيرهم وشهواتهم واختياراتهم .
٥٨ - مسائل في الحدود على رأي الفلاسفة .

(٥) حبيش بن الحسن الدمشقي

(ت ٣٠١هـ / ٩١٣م)

حياته : هو حبيش الأعسم بن أخت حنين بن اسحق وتلميذه،وقد اشتهر بالطب والترجمة . ومن بين هؤلاء الذين عملوا مع حنين في الترجمة في عصر المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١م) وقد نقل إلى العربية النصوص اليونانية لأبوقراط (٤٦٠ - ٣٩٨) ق.م Hippocrates [1] كما ترجم كتاب ديوسقوريدس في علم النبات الذي صار فيما بعد

(١) أبو قراط : من أعظم أطباء العالم في التاريخ . سماه العرب « أبو الطب » اتسم الطب في عهده بنزعة علمية لأنه رفض الأوهام وشك في الخوارق . . . وأبعد الطب عن الدين والفلسفة ، وتوخى الصبر في ملاحظة الحقائق والدقة في تسجيلها . ارتفع بمهنة الطب حين أكد جانبها الأخلاقي . لذا ظلَّ قَسَمُهُ المشهور رمزاً للأخلاق الطبية الراقية وراية التزام الأطباء لآداب المهنة . وقد مات أبو قراط قبل ميلاد أرسطو بأربع عشر عاماً . (مولد أرسطو عام ٣٨٤ ق.م) .

أساس علم العقاقير عند العرب . ومما يستحق الذكر أن أكثر أسماء النباتات فى اللغة العربية تدل على أنها قد انتقلت عن طريق آرامى (سريانى) [(١)] .

وبالرغم مما يقال أن حبيشا هو مترجم كتاب ديوسقوريدس ، فإن الترجمة العربية الشائعة تعزى إلى أحد تلاميذ حنين وهو اصطفن ابن بسيل الذى ترجم الكتاب إلى السريانية . وهذه الترجمة السريانية هى التى نقلها حنين نفسه أو أو حبيش إلى العربية لمحمد من أولاد موسي (الأسرة الحاكمة) ، وقد وضعت فيما بعد ترجمة أخرى مستقلة لكتاب ديوسقوريدس فى الأندلس [(٢)] .

وقد تعلم حبيش صناعة الطب من حنين ، يقول البيهقى : وحبيش كان من الأطباء المتقدمين والمهندسين ، وله تصانيف كثيرة فى الطب وكان مصيباً في المعالجات [(٣)] .

وقد استطاع حبيش بفضل خدب حنين عليه أن يصبح أحد مشاهير المترجمين [(٤)] فاشتغل بالنقل من اليونانى والسريانى إلى العربى،وكان يسلك مسلك حنين فى نقله إلا أنه كان يقصر عنه [(٥)] وبالرغم من ذلك فقد كان حنين يقدمه ويعظمه ويرضى نقله [(٦)] ، وقد نسب أكثر ما نقله حبيش إلى حنين ، يقول القفطى : كثيراً ما يرى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظن الغر منهم أن الناسخ أخطأ فى الاسم . ويغلب على ظنه أن حنين وقد صحف فيكشطه ويجعله لحنين [(١)] .ويرى ما يرهوف أن هذا الخلط

---

(١) أنظر Loew أسماء النباتات الآرامية Aramische Pflanz Ennamen سنة ١٨٨١ .

(٢) في عام ٩٤٩م أرسل الأمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بعثة إلى قرطبة وكان من الهدايا التى أرسلها إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث نسخة من كتاب ديوسقوريدس باليونانية مع صور ملونة لكثير من النباتات الموصوفة فى المتن ، واسترعى هذا الكتاب انتباه الخليفة ولم يكن فى قرطبة من يقرأ اليونانية ، ولذلك عندما كتب الخليفة للأمبراطور شاكراً له هديته طلب إليه أن يرسل له من يستطيع أن يترجم الكتاب ويفسره . وفى سنة ٩٥١م أرسل الأمبراطور راهباً مسيحياً هو نيقولا Nicolas وكان يتكلم العربية . ولم يقم نيقولا بوضع ترجمة لكتاب ديوسقوريدس فحسب ، بل بدأ أيضا يُعَلّم اليونانية وقد أثارت دورسه حماساً بالغاً . وكان يحضرها كثيرون من رجال البلاط ومنهم حسداى بن شايروت الوزير اليهودى .

(٣) **البيهقى** : تاريخ حكماء الإسلام . مطبعة الترقى بدمشق . ١٩٤ ص ١٩ .

(٤) **ماكس مايرهوف** : مقدمة العشر مقالات فى العين لحنين بن اسحاق – المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٢٨ . ص ١٧ .

(٥) **ابن أبى أصيبعة** : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٦) **ابن النديم** : الفهرست . مطبعة الاستقامة ص ٤٢٨ .

(٧) **القفطى** : أخبار العلماء بأخبار الحكماء – مطبعة السعادة ١٣٢١ هـ ، ص ١٢٢ وأيضا **ابن العبرى**: مختصر تاريخ الدول ص ٢٥٢ .

مرده إلى تشابه اسم حنين وحبيش فى الكتابة الخطية أيام أن كانت الحروف لا تنقط ، فكان يرسمان هكذا حبيش ، وحنين [1] ويقول دى بور « نظراً لأنهم كانوا يشتغلون معاً فإن كتباً كثيرة تنسب للواحد منهم تارة وللآخر تارة أخرى ، ولابد أن كثيراً من الكتب كان يترجمه تلاميذهم ومساعدوهم بإرشاد منهم [2] .

ويقول عنه بن أبى أصيبعة : « كان حبيش يقارب بن اسحاق فى النقل ، إلا أن عبارة حنين أفصح وأحلى .

الكتب التى ترجمها حبيش :

المعروف أن الكتب اليونانية فى الفلسفة والطب قد ترجمت فى العصر العباسى إلى العربية . وأهم الكتب الطبية لجالينوس التى ذكرتها المراجع [3] وقام بترجمتها حبيش هى:

* كتاب تشريح الرحم .
* كتاب التشريح الكبير .
* كتاب الحاجة إلى النبض .
* كتاب اختلاف التشريح .
* كتاب الحركة المجهولة .
* كتاب تشريح الحيوان الحى .
* كتاب تركيب الأدوية .
* كتاب تشريح الحيوان الميت .
* كتاب الرياضة بالكرة الصغيرة .
* كتاب علم أبقراط بالتشريح .
* كتاب منافع الأعضاء .
* آراء أبقراط وأفلاطون .
* كتاب علم ارسطوطاليس بالتشريح .
* العادات .
* كتاب فى أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن .
* خصب البدن .
* كتاب الكيموس (ترجمة ثابت بن قرة وحبيش) .
* المنّى .

(٦)اصطفن بن بسيل

(ق ٣ هـ - ق ٩ م)

حياته : أحد رواد مدرسة الترجمة بمدينة بغداد فى الدولة العباسية فى عهد جعفر المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١م) . نسبت إليه ترجمة كتب لأورباسيوس الذى لمع فى الطب ، وقد ترجم أيضا كتاب الحشائش والنباتات لديوسقوريدس [4] وقد لقى فى ترجمته صعوبات جمة ، نجد صداها فيما ذكره ابن أبى أصيبعة عن لسان ابن جلجل إذ يقول :

(١) ماكس مايرهوف : كتاب العشر مقالات فى العين المقدمة ص ٢٢ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٠ .

(٣) راجع : أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ ص ٣٧٧ .

(٤) ديوسقوريدس Dioscorides طبيب يونانى ولد فى عين زربة Anazarbe فى آسيا الصغرى =

إن كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام (أى بغداد) فى الدولة العباسية في أيام جعفر المتوكل وكان المترجم له اصطفن بن بسيل الترجمان من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى،ولم يستوف الأسماء العربية كلها لعدم معرفته بما يقابل اليونانية منها وآمل أن يأتى من بعده من يتم الفراغ الذى تركه ، وتصفح ذلك حنين بن اسحاق المترجم فصحح الترجمة وأجازها ، ولعل كثيراً من المترجمين كانوا يفعلون ذلك فكان إقرار حنين لترجمة كتاب ما خير دليل على صواب الترجمة . فما عَلِمَ اصطفن من تلك الأسماء اليونانية فى وقته له أسماء فى اللسان العربى فسَّره بالعربية ، وما لم يعلم له فى اللسان العربى اسماً تركه فى الكتاب على اسمه اليونانى اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربى إذ التسمية لا تكون بالتطواطؤ من أهل كل بلد على أعيان الأدوية بما رأوا ، وأن يسموا ذلك إما باشتقاق وإما بغير ذلك من تواطئهم على التسمية . ولانجد في الترجمة العربية عدداً كبيراً من المواد حافظة لصيغتها اليونانية ، ولطالما اكتفى اصطفن المترجم بكتابتها بحروف عربية مثل : ايرس Iris – الناردين Nardus اجالوجن Agallochum – قنقمو Cancamum – مغليون Megallim – الاصطرك Styrax – زوبصا Zopissa – اسفلطس Asphaltos – النفط Naphta .

يحدثنا بن أبى أصيبعة فى طبقاته : أحضر المأمون حنين بن اسحاق وكان فتًى السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العَرَبىِّ وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره . ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربى مثلاً بمثل . وقال أبو سليمان المنطقى : إن بنى شاكر وهم محمد وأحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحاق ، ، وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة ، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل واللازمة .

أهم أعمال اصطفن :

كتاب الحشائش والنباتات [١] الذى ترجمه اصطفن يتكون من خمس مقالات – **المقالة الأولى** تشتمل على ذكر أدوية عطرة الرائحة Aromatics وزيوت وأدهان Oils-ointments وصموغ Resins وأشجار Trees ودموع Gums of trees .

---

(١) توجد نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٩ . ١ طب منقولة بالتصوير عن مخطوطة أيا صوفيا بالآستانة ومكتوب عليها بالصفحة الأولى « ديوسقوريدس العين زربى فى هيولى علاج الطب . نقل اصطفن بن بسيل وإصلاح حنين بن اسحاق » وهى خمس مقالات مصورة برسوم النبات وليست مؤرخة وهى بخط قديم جداً وتقع فى ٣٧٢ لوحة .

أما المقالة الثانية فهى تشتمل على ذكر الحيوان ورطوبات الحيوان : العسل Honey والمدرات الحيوانية Milk and dairies products والشحوم Adeps of Fats والحبوب Ceveals والعطانى Farinaceous herbs والبقول المأكولة pot herbs والبقول الحريفة sharp herbs . وأما المقالة الثالثة فهى تشتمل على ذكر جذور النبات Roots وعصاراته Juices والأعشاب Herbs والبذور Seeds . فى حين أن المقالة الرابعة تشتمل على ذكر أدوية أكثرها حشائش باردة وعلى حشائش حارة وعلى حشائش نافعة من السموم. والمقالة الخامسة والأخيرة تشتمل على ذكر الكرم Vitus وعلى أنواع الأشربة Wines وعلى الأدوية المعدنية Metallic stones .

ويذكر الدكتور ابراهيم العدوى أن خالد بن يزيد استدعى بعض العلماء من الاسكندرية وكلفهم بترجمة الكتب اليونانية التى تناولت موضوع الكيمياء ومن هؤلاء المترجمين اصطفن بن بسيل وهو أول المترجمين فى هذه الدولة . وقد عرب لخالد الكثير من المصنفات الطبية والكيمائية عن اليونانية [(١)] .

ورأى الخلفاء العباسيون أن هناك علوماً عظيمة لم يكن العرب يعلمون عنها شيئا ووجد العلماء فى شغف الخلفاء بالعلم وتشجيعهم العلماء ما حفزهم إلى العمل ، ولم يكن إذ ذاك ما يحفز الناس إلى العمل مثل ما تحفزهم رغبة الأمراء وتسابق كبار رجال الدولة إلى تعضيد العلم وتكريم العلماء ، فاجتمعت بذلك فى بغداد كل العناصر التى تمهد السبيل إلى النهضة العلمية ، فأنشأ المأمون فيها دار الحكمة ، ودعا العلماء إلى ترجمة كل ما يقع لهم من مؤلفات اليونان وكان وراء هذا العمل الضخم حنين بن اسحاق ، وكان لا يمل العمل ، فترجم كل كتب جالينوس علي ضخامتها ، وانضم إليه كثيرون من المترجمين منهم اصطفن بن بسيل وحبيش بن الحسن واسحاق بن حنين وغيرهم .

أهم الكتب التى نسبت ترجمتها إلى اصطفن بن بسيل :

(١) كتاب الأدوية المستعملة لاورباسيوس [(٢)] (٢) كتاب حركات الصدر والرئة .

(٣) كتاب حركة الفصل . (٤) كتاب الامتلاء .

(٥) كتاب عدد المقاييس (ترجمة اصطفن واسحاق بن حنين) (٦) كتاب المرة السوداء .

---

(١) د. إبراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وأمبراطورية الروم .
وأيضا ابن النديم : الفهرست - مطبعة الاستقامة ص ١٦٤ وص ٣٥٤ .

(٢) وصل إلينا تراث أورباسيوس فى ثلاث لغات : هى اللاتينية واليونانية والعربية وترجع بعض الترجمات الاتينية التى نشرها مولينية (١٨٧٣ - ١٨٧٦م) إلى القرن السادس وقد نقل أقدم هذه الترجمات فى رافنا ابان العهد القوطى الشرقى (٤٨٩ - ٥٥٤م) ونقل بعض أجزاء منها فى القرنين السابع والثامن . وقد انتقل إلينا من هذه الترجمات اللاتينية أجزاء مفقودة من النص اليونانى ، وترجع هذه الترجمات إلى وقت كان فيه أورباسيوس حديث العهد نسبيا وكانت فيه العلاقات بين العالمين اللاتينى واليونانى لاتزال متعددة . ولم ينقل أورباسيوس إلى العربية أحد قبل عيسى بن يحيى ق ٩م والاحتمال الآخر أن من نقله هو اصطفن بن بسيل .
راجع : جورج سارتون : العلم القديم والمدنية الحديثة ترجمة د عبد الحميد صبره ١٩٦٩ ص ١٧٨ .

الفصل الثانى

معابر التواصل الحضارى
بين العرب وأوروبا فى الأدب والفلسفة

من الثابت أن العرب الذين اندفعوا من شبه جزيرتهم فى القرن السابع الميلادى، ليشيدوا دولة واسعة امتدت من المحيط الهندى وحدود الصين شرقا إلي المحيط الأطلسى وحدود فرنسا غربا . لم يكونوا كالمغول والتتار الشعوب الهمجية التى انسابت من جوف القارة الأسيوية فى العصور الوسطى . والتى لا ترتبط أسماؤها فى التاريخ إلا بالغزو والنهب والوحشية ، وإقامة إمبراطوريات على أسس من العنف وسفك الدماء . ولو كان العرب كالمغول الذين امتدت إمبراطوريتهم من أواسط آسيا حتى أواسط أوروبا ، أو كالأتراك العثمانيين الذين شملت دولتهم معظم الشرق الأدنى وشرق أوروبا ووسطها حتى فينا لحرمت أوروبا من ذلك المنبع العذب للثقافة الإسلامية الذى غذاها بنور العلم والمعرفة فى وقت كانت أحوج ما تكون إلى العلم المعرفة . ولكن العرب لم يفعلوا مثل المغول فيتخلصون من الكتب بحرقها ورميها فى الأنهار ، ولم يفعلوا مثل الأتراك العثمانيين الذين عملوا على اطفاء شعلة العلم فى البلاد التى توسعوا فيها ، ووجهوا كل جهودهم نحو امتصاص أموالها وإهمال مرافقها الحضارية ، وإنما سارت الحضارة فى ركاب العرب أينما اتجهوا ، وصاحبتهم حيثما حلوا ، ورب بلاد فى الشرق والغرب وصلت فى العصور الوسطى إلى حال يرثى له من الجهل ، والتأخر، فاستحالت بعد فتح العرب لها واستقرارهم فيها إلى مراكز حضارية يشع منها نور العلم وبريق المعرفة لينير جوانبها ، وجوانب البلاد الأخرى المجاورة .

ولم يقتصر أثر العرب الحضارى على الشرق، وإنما كان تأثيرهم فى الغرب لايقل خطورة وأهمية . وهنا نلاحظ أن أثر العرب فى الشرق ظهر واضحا فى الدين واللغة والعلوم والفنون ، فى حين كان أثرهم فى الغرب الأوروبى كاد أن يكون معدوما ناحية الدين ، وضعيفا فى ناحيتى اللغة والفن ، وقويا فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية [1] . ومهما كان الأمر فقد نجح العرب - كما يقول سديو - «نجاحا باهرا فى القيام بدور الوسيط بين مختلف الشعوب من الفرات حتى جبل طارق . وساعدهم على ذلك ما امتازوا به من نشاط ليس له مثيل وتسامح عظيم، لاسيما

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر . مكتبة الفجالة ص ٥٨٦ .

تجاه اليهود . . . [1].

ويمكننا أن نتتبع جذور الاتصال الحضارى والفكرى بين العرب وغرب أوروبا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى . إذ تشهد بعض الكتابات الأوروبية التى ترجع إلى ذلك الوقت على أن البابا سلفستر الثانى[2]. (٩٩٩ - ١٠٠٣م) - درس بعض مؤلفات العرب فى علم الفلك . وفي القرن الحادى عشر عرف طلاب العلم فى غرب أوروبا بعض المصطلحات العربية مثل الاسطرلاب وأسماء النجوم ومجاميعها . هذا إلى ما نسمعه عن قسطنطين الإفريقى الذى درس بعض الكتب العربية فى الطب وعمل على ترجمتها إلى اللاتينية [3] . ومهما كان من أمر هذه الاتصالات الفكرية بين غرب أوروبا والعالم العربى فى تلك المرحلة المبكرة ، فإن العلاقات بين الطرفين لم تقو وتشتد وتصبح ذات بال فى التطور الحضارى لغرب أوروبا فى القرن الثانى عشر - أى منذ عصر الحروب الصليبية - وإن كانت هذه الحروب نفسها ضعيفة الأثر فى الاتصال الفكرى بين العالمين الشرقى العربى والغربى الأوروبى [4] .

معابر الحضارة العربية إلي أوروبا :

إن المعابر التى سلكتها الحضارة العربية فى وصولها إلى غرب أوروبا كانت ثلاثة:

(١) بلاد الشام وما أرتبط بمسرحها من حروب صليبية والتى استمرت قرنين من الزمان . وقد قامت الجاليات الايطالية التجارية بتصدير واستيراد البضائع بين الشرق والغرب وجنت من وراء ذلك أرباح طائلة .

(٢) صقلية وجنوب إيطاليا .

(٣) الأندلس والتى امتد حكم المسلمين لها من سنة ٩٠٢م إلى سنة ١٠٩١م وكانت علوم المسلمين موضع اهتمام ملوك النورمان وهى مرتبة ترتيبا تصاعديا حسب أهميتها .

---

(١) Sedillot : Hist. Generale des Arabes, Tomes 2. pp. 3 - 4.

وهناك ترجمة لهذا الكتاب للأستاذ عادل زعيتر . دار احياء الكتب العربية . الحلبى ١٩٤٨.

• كان بين اليهود عدد كبير من العلماء ، ولكنهم انهمكوا فى التلمود ، وكان منهم النحويون مثل بروفيات دوران ، وأبرهام دى بالم ، والمترجمون مثل إسحاق بن بولكار الذى نقل مؤلفات الغزالى إلى العبرية ، ويعقوب مارتن الذى ترجم كتب ابن سينا وابن رشد وابن ميمون إلى اللاتينية . راجع : ول ديورانت : قصة الحضارة . جـ ٢٦ ص ١٦٨ .

(٢) سلفستر الثانى فرنسى حصل على ثقافته العليا فى أسبانيا على أيدى العلماء المسلمين أمر بانشاء ثلاث مدارس لتعليم العربية فى روما وريمس Rheims وشارتر Chartres .

(٣) Eyre : European Civilisation; vol. 3, p. 259.

(٤) Haskins : The Renaissance, p. 282.

(ا) ويبدو أن كتاب القرن التاسع عشر لم يحسنوا التقدير عندما بالغوا فى أهمية الحروب الصليبية وبلاد الشام كطريق نفذت منه الثقافة العربية إلى الغرب . فالصليبيون قصدوا بلاد الشام للحرب ، وامتازت حياتهم فى تلك البلاد بما تتصف به حياة الجنود من خشونة ، فلا هم لهم إلا تحصين موقعهم والدفاع عن كيانهم والابقاء على معاقلهم التى أقاموها فى الشام وسط محيط إسلامى واسع . ولم تخف وطأة الحرب بينهم وبين المسلمين إلا بطردهم نهائيا من الشام سنة ١٢٩١م. وإذ حدث قبل هذا التاريخ أن توقفت الحرب بين الفريقين من الزمن ، فإنها كانت تتوقف لتستأنف بعد قليل . وهكذا لم تتح للصليبيين فى الشرق حياة الاستقرار الضرورية لمباشرة النشاط الفكرى والحضارى ، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمى بالعرب بالقدر الذى أتيحت به لإخوانهم الأوروبيين فى صقلية والأندلس . حقيقة أن الصليبيين استطاعوا تأسيس عدة إمارات قوية بالشام ، كما أسسوا مملكة بيت المقدس الشهيرة ، لكن جميع هذه الوحدات الصليبية لم تكن سوى معاقل أو ثكنات حربية متناثرة وسط محيط من العرب ، فخيم عليها جو من الرعب والفزع لاتستقيم معه بأى حال حياة علمية مثمرة . ويتساءل باركر أنه حتى لو توافرت مقومات الحياة العلمية للصليبيين الذين أقاموا بالشام فأين لهم بالعلوم التى يأخذون عنها [١] ؟ ذلك أن عصر الحروب الصليبية بالذات امتاز بنوع من النضوب الفكرى فى بلاد المشرق الاسلامى ، فقلّ الإقبال على الفلسفة بوفاة ابن سينا سنة ١٠٣٦م ، والغزالى سنة ١١١١م ، بل أن الخليفة العباسى فى بغداد أمر سنة ١١٥٠م (٥٤٥ هـ) بإحراق الكتب الفلسفية ومن بينها مؤلفات ابن سينا نفسه . فهل كان ينتظر فى مثل هذه الظروف أن يستطيع رسل الحملات الصليبية [٢] الاستفادة من المسلمين وعلومهم ؟

على أنه ينبغى – إنصافا للحقيقة – أن نشير إلى أن الحروب الصليبية صحبها بعض النشاط الحضارى والفكرى . ذلك أنه وجد من الغربيين الذين استقروا فى الأراضى المقدسة من كَتَب في التاريخ مثل وليم الصورى ، أو فى القانون مثل حنا الابلينى Joha of Ibelin وفيليب نافارى ، وإن كانت هذه الكتابات لا تعبر عن أية تأثيرات عربية . ومن الناحية اللغوية انسابت بعض الكلمات والمصطلحات العربية

---

(١) باركر/تراث الإسلام ص ١٠٦ .

(٢) هى ٩ حملات مسيحية أوروبية بين القرنين ١١ ، ١٤ ظاهرها استعادة الأراضى المقدسة وبخاصة القدس من المسلمين وباطنها تأسيس الإمارات والرغبة فى التجارة والمقامرة واهى حروب عقيمة اختلط فيها الدين بالسياسة ، أفاد منها الأوروبيون نتيجة للتبادل الفكرى والاقتصادى .
راجع : د. جوزيف نسيم لبيب : العدوان الصليبى على الشام ط ٥ اسكندرية ١٩٨٤ .

فى اللغات الغربية ، وإن كانت هناك صعوبة لغوية فى تحقيق نسبة استعارة هذه الألفاظ . لأن الأرض المقدسة لم تكن وحدها المكان الذى اتصل فيه الغرب الأوروبى بالشرق العربى . كذلك أثرت الحروب الصليبية فى تطور فن الحرب عند الغربيين ، خاصة فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة ، هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه الحروب الصليبية من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهامة ، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، وارسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل . ومن المحتمل أن يكون الشرق الإسلامى إبان الحروب الصليبية هو المصدر الذى أخذ عنه الغرب الأوروبى ألعاب المبارزة ، التى تشبه كثيرا ألعاب التحطيب عند الشرقيين. كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات والرنوك فى الغرب الأوروبى نتيجة للاتصال بالعرب فى الشام [(١)] وليس هذا مجال الكلام عما أثارته الحروب الصليبية من نشاط تجارى بين الشرق والغرب ، وأثر هذا فى أحوال أوروبا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وإنما نكتفى هنا بالإشارة إلى المؤثرات العربية فى الحياة الأوروبية العامة نتيجة لنمو التبادل التجارى ، فنلاحظ انتقال نباتات وحاصلات وأشجار جديدة من شرق البحر المتوسط إلى غربه - مثل السمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم - وانتشار كثير من العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية فى الغرب ، هذا زيادة على استعمال الأقمشة والملابس التى نسبت إلى البلاد العربية واحتفظت بأسمائها العربية فى اللغات الأوروبية [(٢)] .

(٢) أما الطريق الثانى الذى انتقلت عنه علوم العرب إلى الغرب فكان جزيرة صقلية ، حيث صار للحضارة العربية شأن كبير فى العصور الوسطى . ذلك أن العرب عندما ثبتوا أقدامهم فى صقلية فى القرن التاسع الميلادى اهتموا بالزراعة ، فحفروا الترع والقنوات ، وأنشأوا المجارى المعقوفة التى كانت مجهولة قبلهم كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر . وفى الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية ، فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت . وأدخلوا فيها صناعة الحرير . أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها على أيام العرب ، بعد أن بلغت الحضيض فى العصر السابق مباشرة. ولم يبق الآن فى صقلية من مبانى العرب سوى القليل النادر ، ولكنها تشهد جميعا بالروعة والجمال الأخاذ وحسبنا ما ذكره الإدريسى فى وصف بالرمو Palermo

---

(١) باركر/تراث الإسلام ص ١١٥ .

(٢) د. جوزيف نسيم لبيب : الاسلام والمسيحية . دار الفكر الجامعى ١٩٨٦ ص ١٢٦ وما بعدها.
وأيضا : Cam. Med Hist. vol. 5, p. 204.

عاصمة ملوك النورمان على عهد روجر الثانى - أى بعد زوال حكم العرب بقليل - إذ أشاد بقصورها ودورها ومتنزهاتها . وهكذا يبدو لنا الفارق عظيما إذا قارنا بين أحوال صقلية من النواحى الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية احتلال العرب لها ، وبين أحوالها عند نهاية سيطرتهم عليها . على أن الحضارة العربية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة ، وإنما وجدت هذه الحضارة فى ملوك النورمان خير مشجع لها . ومن الواضح أن سبب حماية ملوك النورمان لعرب صقلية هو أنهم لمسوا تقدمهم فى الفنون والعلوم والصناعات ، وأدركوا أن تشجيع الجالية العربية فى الجزيرة سيعود عليهم بفوائد عظيمة ، لذلك شمل روجر الأول (١٠٦١ - ١١٠١م) العرب برعايته ، وأحسن المحافظة عليهم وحمايتهم ، بل كتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية . وامتازت النقود التى سكها هذا الملك بأن نصفها جاء مكتوبا عليه بالعربية والنصف الآخر باللاتينية واليونانية ، كما أن بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر على شعار المسيحية . وقد سار خلفاء روجر على سنته فاستعان روجر الثانى (١١٢٩ - ١١٥٤م) بعلماء من العرب : كما درس وليم الثانى (١١٦٦ - ١١٨٤) اللغة العربية ورجع إلى مستشاريه من العرب فى أهم شئونه . ويوجد فى نوورمبرج رداء من الحرير اعتاد أن يلبسه ملوك صقلية ، وهو مطرز بكتابات عربية كوفية الخط ، يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٣م ، كذلك اتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حراسا من العرب ارتدوا زيا اختلف عن زى حراسهم من النورمان [(١)] . وليس هناك من شك فى أن الشعر العربى كان يمارس فى بلاط ملوك صقلية النورمان ، ولكننا لم نسمع عن المدرسة الصقلية فى الشعر إلا على عصر الإمبراطور فردريك الثانى فى القرن الثانى عشر (توفى ١٢٥٠م) ، وهو الإمبراطور الذى أسماه بعض الكتاب « نصف شرقى » Semi Oriental [(٢)] نظرا لما أحاط به نفسه من مظاهر شرقية عربية حتى أنه أجاد العربية وأحاط نفسه بالعلماء وشجع ترجمة الكتب العربية كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب وكان واسع الاطلاع فى العلوم المختلفة ولا سيما الفلسفة والهندسة والحساب ، وقد انكب علي التراث العربى ، واشتهر بحسن المعاملة للمسلمين وكثرة الاعتماد عليهم ، حتى أنه عندما جاء إلي الشرق على رأس الحملة الصليبية السادسة عام ١٢٢٧ كان يسمح في معسكره بالآذان والصلاة مما أثار لويس التاسع ملك فرنسا

(١) Idem : pp. 206 - 207.

(٢) Ernsi Kantorrowicz : Frederick the second (trans. by Lorimer).

(توفى ١٢٧٠م)[1] ، ويقول المستشرق الكبير أماري Amari أنه لو زادت معرفتنا بالشعر الشعبى العربى فى صقلية، لظهرت صلات وثيقة بينه وبين الشعر الإيطالى الذى نشأ فى العصور الوسطى . كذلك يقول أن الباعث على ممارسة الشعر باللغة العامية فى صقلية هو علم أهلها بأخبار العرب وشعرائهم . وما كانوا يلقونه من تشجيع الأمراء المسلمين . يؤيد هذا الرأى أن الشعر الشعبى المبكر فى إيطاليا يتفق فى أوزانه مع الشعر الشعبى فى أسبانيا . مما يدل على أن المؤثر واحد فى الحالتين [2] .

(٣) ومهما كان من أهمية الدور الذى أسهمت به كل من بلاد الشام وصقلية فى تغذية غرب أوروبا بأصول الحضارة العربية . فإن الفضل الأكبر يرجع بلاشك إلي عرب أسبانيا فى تقديم خلاصة الفكر العربى فى العلوم والآداب والفلسفة ، فضلا عن تعريف الأوروبيين بكثير من تراث اليونان القديم الذى زال من الوجود ولم يبق إلا فى التراجم العربية .

وكانت أسبانيا عندما فتحها العرب فى أوائل القرن الثامن لا تختلف عن بقية بلاد غرب أوروبا المعاصرة ، من حيث انتشار الجهل والتأخر والفوضى بسبب النزاع الاجتماعى والفتن الداخلية ، ولعل أكبر مظاهر هذ الانحلال والانقسام أن أحد كبار الأمراء اشترك مع رئيس أساقفه أشبيليه فى مساعدة العرب على فتح أسبانيا . ولكن العرب بعد أن فتحوا البلاد نقلوها إلى مرحلة استقرار وتنمية ، فاتجهوا نحو إحياء الأرض الميتة وتعمير المدن الخربة ، وتنشيط التجارة الراكدة ، وإنعاش الصناعة المتأخرة، حتى أصبحت الأندلس فى ظل الخلافة الأموية أغنى البلاد الأوروبية وأكثرها ازدحاما بالسكان [3] . ثم اختار العرب أن يوطدوا سلطانهم فى أسبانيا عن طريق العلم ، فانصرفوا نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون ، وعندئذ لم يقنعوا بما وصل إليه إخوانهم فى المشرق من تقدم بل زادوا على ذلك وابتكروا وجددوا مما أتاح لاوروبا موردا عذبا استساغت شرابه فظلت تنهل منه منذ أواخر القرن الحادى عشر حتى النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر [4] . ولم يدخر الأندلسيون وسعاً فى الحصول على علوم الشرق الإسلامى عن ثلاثة طرق هى :

---

(١) Cantor, N.F; The Medieval world. 300 - 1300. New York 1963. p 206.

(٢) جب : تراث الإسلام ١٧٤ .

(٣) Cam. Med. Hist. vol. 3, p. 432.

(٤) Idem : p. 435.

١ - استدعاء علماء المشرق إلى الأندلس .

٢ - سفر بعثات من عرب الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة ثم العودة إلى الأندلس لنشر ما جمعوه من المعارف ومن أمثلة هؤلاء يحيى الليثى .

٣ - عن طريق جمع الكتب التى هى أهم وسائل النشاط العلمى . حتى قيل أن الخليفة الحكم الثانى « استجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق والمغرب عيون التأليف والمصنفات العربية فى العلوم القديمة والحديثة . . . فكثر تحرك الناس فى زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم حتى بلغت مكتبته الآلاف من الكتب [١] .

ولم يلبث ان اشتد اعجاب الأسبان بثقافة العرب وحضارتهم ، كما يتضح مما ذكره الفارو الكاتب المسيحى المتعصب فى القرن التاسع الميلادى ، إذ كتب يقول « إن إخوانى المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ، لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربى بليغ . وا اسفاه إننى لا أجد اليوم علمانيا يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل ، بل إن الشباب المسيحى الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدبا ولا لغة إلا العربية ! ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب فى نهم وشغف . ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة فى الوقت الذى يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها[٢] . . . .

وقد بلغت الحضارة العربية ذروتها بالأندلس فى النصف الثانى من القرن العاشر، عندما أصبحت قرطبة - عاصمة الخلفاء الأمويين - من أعظم مدن ذلك العصر حيث أهلها كانوا يستطيعون المشى فى شوارعها بعد غروب الشمس فى ضوء المصابيح العامة ، فى حين ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك لايوجد فى طرقاتها مصباح عام واحد يضئ ليلا[٣] . وهكذا استمر شعاع الحضارة العربية مضيئا فى الأندلس - وبخاصة فى الميادين الثقافية والاقتصادية والفنية - حتى امتد ليضئ غرب أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وما بعدها [٤] .

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام مكتبة النهضة ١٩٦١ جـ ٣ ص ٢٣ - ٢٣ .

(٢) جوستاف جروينباوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جويد . القاهرة ١٩٥٦ ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) Drapper : A History of Intellectual Development of Europe : vol 2, p. 29.

(٤) Barker : The European Inheritance; vol. 1, p. 377.

وساعد على قيام هذه النهضة العظيمة بالأندلس سياسة التسامح التى اتبعها العرب تجاه أهل الذمة من مسيحيين ويهود ، فأقبل المستعربون الأسبان على استعمال اللغة العربية بل فضلوها علي اللاتينية ، كما تتلمذ كثير من اليهود على أساتذتهم العرب ، مما أوجد مدرسة كبيرة من غير المسلمين استطاع أن يقوم أفرادها بدور السفراء بين حضارة الغرب وأهالى غرب أوروبا المتلهفين على الاستفادة من هذه الحضارة [1] . وشارك اليهود بصفة خاصة - فى الحياة الثقافية بالأندلس مشاركة فعالة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، مما ترجموه من كتب عربية كثيرة ، مع ملاحظة أن نشاط يهود أسبانيا فى ذلك العصر كان جزءا لايتجزأ من نشاط العرب الحضارى [2] . وعندما سقطت طليطلة Toledo فى أيدى المسيحيين سنة ١٠٨٥ ازداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلا غرب أوروبا على أسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية ، فنشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطا منقطع النظير ، واستمرت حتى القرن الخامس عشر ، فترجمت كثير من مؤلفات العرب فى مختلف العلوم والفنون ، كما ترجمت عن العربية بعض مؤلفات اليونانيين مثل كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وغيرهم . وقد وجد من حكام أسبانيا المسيحيين من قدروا الثقافة العربية الإسلامية ، ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٣٨٤م الملقب بالحكيم .

واذا ظن بعض المسيحيين المتعصبين - مثل رئيس الأساقفه أكريمنيس الذى أحرق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب بعد طردهم من أسبانيا - أنهم يستطيعون محو آثار الحضارة العربية بالأندلس . فإن هؤلاء فاتهم أن ما تركه العرب من طرق معبّدة وقصور مرفوعة ، ومشافى وفنادق . كل ذلك كان كفيلا بتخليد اسم العرب ، حتى قال لوبون أنه لايوجد فى أسبانيا المعاصرة من أعمال الرى سوى ما أتمه العرب [3] .

وبعد . فإننا نختتم كلامنا عن الطرق والمسالك التى انتقلت عنها حضارة العرب إلى الغرب فى العصور الوسطى ، بالإشارة إلى أن الطرق الثلاثة السابقة كانت أهم طرق الانتقال لا كلها . ذلك أنه لم تكن هناك خطة منظمة لترجمة معارف العرب ونقلها إلى اللاتينية فى العصور الوسطى ، وإنما استيقظ الأوروبيون من سباتهم

---

(١) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 435.

(٢) اسرائيل ولفنسن : موسى بن ميمون . حياته ومصنفاته . كذلك انظر مقدمة الكتاب للمرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق .

(٣) لوبون : الحضارة العربية ص ٢٩٤ .

الطويل فى تلك العصور ليجدوا أنفسهم أمام معين لا ينضب من المؤلفات العربية فى شتى العلوم والفنون - فأقبلوا يرتشفون من ذلك المعين بأية طريقة ومن أى مكان يعثرون فيه على ضالتهم . وهكذا نسمع أن أديلارد الباثى الانجليزى Adelard of Bath قام برحلة طويلة طلبا للعلم ، فطاف بمصر والشام وأسبانيا ، ودرس على العرب علمى الفلك والهندسة . ومثله ليو ناردو فيبوناتشى Leonardo Fibonacci . الذى عاصر فردريك الثانى (١٣١٢ - ١٣٥٠م) وطاف بمصر والشام حيث تعلم أصول علم الجبر من العرب ، وكان أول عالم مسيحى اشتغل به .

والواقع أنه جاء وقت على غرب أوربا فى العصور الوسطى . ضاق فيه الناس بتزمت الكنيسة التي حصرت تفكيرهم داخل دائرة ضيقة وكان القساوسة هم الذين يشتغلون بالتأليف أو قراءة الكتب دون سواهم ، وكانوا هم المحتكرون للتعليم ، ولم تكن هناك أى طرق تربوية نظامية . ولذا أصبح الناس يتطلعون إلى حياة علمية وفكرية أخصب وأكثر تنوعاً . وفي الوقت الذى قيدت الكنيسة تفكير الأهالى فى غرب أوروبا والزمتهم بحصر نشاطهم الفكرى داخل حدود معينة ، كان مفكرو العرب وعلى رأسهم ابن رشد [(١)] يضربون مثلا فريدا فى حرية الفكر[(٢)] . وكان أن ولىّ الأوروبيون وجوههم شطر حضارة العرب . وانصرفوا إلى دراسة علومهم فى شراهة بالغة وحماسة كبيرة . مما ترك آثارا واضحة فى الفكر الأوروبى ، ولا أدل على أثر العرب فى الحضارة الأوربية من القاء نظرة سريعة على أهم مظاهر هذه الحضارة فى الآداب والعلوم والفنون ، ومدى تأثرها بحضارة العرب .

---

(١) ابن رشد هو الإمام الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ١١٩٨م . وهو سليل أسرة من العلماء والقضاء . ولد بقرطبة عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م ودرس بها . وبرع بالأخص فى الفقه وعلم الكلام والفلسفة والطب . وقد تولى قضاء مدينة أشبيلية فى دولة الموحدين ، ثم ولي بعد ذلك قضاء قرطبة بعض الوقت . وخلال إقامته بأشبيلية خطى بالتلمذة والاتصال بطبيبها أبي مروان عبد الله بن زهر ، وقد وصفه ابن رشد بأنه أعظم طبيب بعد جالينوس وألف كتابه الكليات فى الطب ليكون مكملاً لكتاب التيسير لأستاذه ابن زهر . ذاعت شهرته فى الطب والفلسفة وكتب كثيراً فى الفلسفة ومعظمها فى تلخيص كتب أرسطو وشروحها . وشرح أرجوزة ابن سينا فى الطب . وقد بلغت تصانيفه فى مختلف العلوم أكثر من سبعين كتاباً ورسالة . اشتهرت فى المشرق والمغرب ، وترجم الكثير منها إلى اللاتينية فى القرن ١٣ الميلادى وهى التى جعلت له أهمية فى أوربا .

(٢) Singer : From Magis to Science; p. 89.

العرب فى دول أوربا

كانت أوروبا قبل الفتح العربى تسبح فى دياجير الظلام ، وتعانى من التأخر والفوضى فنشر العرب فيها حضارتهم . وأبدلوا ظلام أوروبا بنور من العلم والعرفان والمدنية ، وأرسوا قواعد عادلة تحرص علي تحقيق الحرية والمساواة . وأصبحت علوم العرب أسس الحضارة الأوروبية،وقد مكث العرب فى صقلية وجنوب ايطاليا ٣٠٠ سنة تقريبا . واستولي العرب أيضا علي نصف فرنسا وتركوا أثراً عميقا في اللغة والدم . أما تاريخ العرب فى اسبانيا فهو معروف ، فقد كتبت الأندلس أروع صفحات التاريخ الحضارى والعقلى لأوروبا في العصور الوسطى .

ثم دخل الأتراك أوروبا من الشرق فى القرن الخامس عشر . وكان العرب والأتراك يحملون فى هذه االفتوح الدين الإسلامى ، والثقافة الإسلامية اللذين كان لهما أثر كبيرفى نفوس الأوروبيين ، فاعتنق بعضهم الإسلام ، وأحب بعضهم الثقافة العربية حبا جما ، وعكف على دراستها والتزود منها ، وأنشئت معاهد تهتم بالثقافة الإسلامية والحضارة العربية ، ونقل بعض آثار العرب إلي اللغات الأجنبية . وكان تأثير الفلاسفة العرب والعلماء العرب فى الحضارة الأوروبية قويا ملحوظا .

(١) العرب فى جزر البحر الأبيض

وقد فتح المسلمون جزيرة صقلية ، وظلت فى حوزتهم مائة وتسعة وثمانين عاما ، وعمروا مدينة " بالرمو " وانشأوا فيها المساجد ، حتي أن الرحالة الجغرافى " ابن حوقل " ذكر فى وصفها أنه وجد فيها أكثر من مائة وخمسين حانوتا للقصابين لبيع اللحوم ، وأنها تضم أكثر من ثلاثمائة مسجد ، وأن مسجدهم الجامع قام فيه أكثر من ستة وثلاثين صفا للصلاة ، كل صف يحتوى علي ما يقارب مائتى رجل مما جعل عدد المصلين يبلغ سبعة آلاف .

وقد قامت صقلية بدور كبير فى نشر الثقافة العربية والدين الإسلامى فى أوروبا . ولم تكن جزيرة صقلية الجزيرة الوحيدة التى احتلها العرب فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، إنما استولوا على بعض الجزر الأخرى ، ومنها جزيرة أقريطش "كريت" التى افتتحها عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) بحار عربى باسل هو أبو عمر حفص بن عيسى الأندلسى .. وفتح المسلمون جزيرة كورسيكا ، موطن نابليون بونابرت ومسقط رأسه ، علي يد موسى بن نصير فاتح الأندلس عام ٧١٣ م ، ثم فتحوها بعد

ذلك أكثر من مرة ،واستطاعو البقاء فيها أكثر من قرن ، كما فتحوا جزيرة " سردنيا " منذ بداية القرن الثامن للميلاد . وفتح العرب جزيرة مالطة عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م واستولوا على جزيرة قبرص ، وكانت بينها وبين المسلمين علاقات طيبة ، كما كانت تنقسم إلي قسمين : قسم للمسلمين ، وقسم للمسيحيين ، وكان للمسلمين بها أمير حاكم . ويقول ابن حوقل ان جزيرتى قبرص واقريطش " كريت " كانتا جزيرتين كثيرتى الخير والتجارة [1] .

(٢) العرب فى بلاد اليونان وجنوب أوروبا

ويبلغ عدد العرب المسلمين في اليونان حوالى مائة ألف عربى ، وأكثرهم فلاحون يسكنون فى مقاطعة تراقيا الغربية ، وعاصمتهم " كوموتينى " وحكومة اليونان تسمح بنشر الدعوة الإسلاميه ، وتشجع الحركات الثقافية ، وتبنى على حسابها المدارس الإسلامية وقد نشرت ترجمة يونانية للقرآن الكريم . والمسلمون فى اليونان يبنون المساجد ، وتشجعهم الحكومة على ذلك ، وتمدهم بالمعونة والأموال .

وقد ساعدت القوافل التجارية على نشر الإسلام فى أوروبا ، الى جانب هذه الفتوحات الكبيرة التى أقدم عليها العرب : لا رغبة فى سفك الدماء ، إنما من أجل تأمين جانبهم . وصيانة دولتهم ، وعملا علي نشر العقيدة الإسلامية ، والمجاهدة فى سبيل الله .... ولذلك نشأت واحات إسلامية فى أوروبا بجهود أفراد من المثقفين والتجار المسلمين .

وقد عرف المسلمون الشعوب السلافية ، وكانوا يسمونهم باسم الصقالبة منذ عهد بعيد . وقد اعتنق كثيرون منهم الإسلام ، ولا سيما بعد أن استولى العرب على الساحل الشرقى للبحر الإدرياتيكى ، أى مقاطعة دالمسيا فى يوغوسلافيا الحالية . وقد كان بعض هؤلاء الصقالبة يفدون إلي البلاد العربية منذ العصور الإسلامية الأولى للتزود بالثقافة العربية الدين الإسلامى .

يقول ياقوت الحموي فى كتابه " معجم البلدان " فى تفسيره باشقارد " وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشقاردية ، شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية فى مملكة أمة من الإفرنج

---

(١) فازيليف : العرب والروم ص ٦٣ .

يقال هم " الهنكر " ونحن مسلمون ، ولساننا لسان الإفرنج ، وزينا زيهم ، ونخدم معهم فى الجندية ، فسألته عن سبب إسلامهم ، مع كونهم فى وسط بلاد الفرنجة ... فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار ، وسكنوا بيننا وتلطفوا فى تعريفنا بما نحن عليه من الضلال ، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام . .. فهدانا الله والحمد لله ، فأسلمنا جميعا ، وشرح الله صدرونا للإيمان . ونحن نجئ إلى هذه البلاد ونتفقه ، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم فقلت : فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا إلى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية إلى بلادنا نحو ذلك " .

وهكذا انتشر الإسلام فى أوروبا الجنوبية الشرقية . غير أن بعض الملوك ظلوا يحاربون الإسلام مثل الملك شارل الأول روبرت (١٣١٠ - ١٣٤٢ م) الذى أصدر قانونا يمنع فيه الصيام أو تناول الطعام على غير الطريقة المسيحية ، ويعاقب من يمتنع عن أكل لحم الخنزير ، أو يتوضأ قبل الصلاة وأغرى من يبلغ عن أحد من المسلمين بتمليكه جزءا من أموال المسلم . وإذا قام أحد بزيارة مسلم ، أو دعا مسلما ليضايفه ، فعلى كليهما أن يأكلا لحم الخنزير . وهكذا اضطهد المسلمون فى هنغاريا، ولكن المسلمين لم يلبثو أن تحرروا من هذا النير بموته ، وظلوا بين مد وجزر سنوات طويلة حتى العصر الحديث .

(٣) العرب فى يوغوسلافيا

أما فى يوغوسلافيا فالمسلمون كثيرون منذ العصور الأولى ، ولا سيما بين قبائل البنجاك والبشناق . وقد وصف أحد الرحالة حالة المسلمين فى " البوسنة " فقال: انه لعجيب حقا أن يتغلب الاسلام فى هذه البلاد الأوروبية على التقاليد القومية اليوغسلافية ، حتي لينظر إليها المسلمون الآن كأنها عادات أجنبية عنهم . ولعل هذا هو ما يميزهم عن بقية مسلمى العالم ... فهم فى قلب أوروبا أشد تمسكا بالتقاليد والعادات الإسلامية من إخوانهم فى الشرق .

وقد دخل أهل البوسنة فى دين الله أفواجا بعد فتحها عام ١٤٦٣م ، وأسلموا طواعية ، ومن الأدلة الساطعة على عدم إكراه أهالى البوسنة على اعتناق الإسلام ماورد فى الوثيقة الموجودة فى دوجى - إحدى البيع الأرثوذكسية فى هرسك - والمؤرخة ٩١١هـ عام ١٥٠٥م ، وجاء فيها أن كثيراً من الناس اعتنقوا الدين

الإسلامى بدون أي إكراه . وظل الإسلام يعيش بين عدد كبير من مسلمى أوروبا الجنوبية الشرقية فترة طويلة .

ولذا فى يوغسلافيا جالية إسلامية كبيرة العدد تتمتع بحريتها الدينية الكاملة، ويكفلها لها الدستور . وينظم المسلمون شئونهم الدينية لأنفسهم . ويقوم على المسائل الدينية مجلس الأوقاف الأعلى . ومقره مدينة سيراييفو ، وينتخب ثلث أعضائه على الأقل من رجال الدين ، وفى يوغوسلافيا عدد كبير من المساجد ، علاوة على مئات من المكتبات الإسلامية . ومدرسة ثانوية دينية فى " سراييفو " التى تعد عاصمة الإسلام هناك .

وللمسلمين فى يوغوسلافيا دورهم فى الحياة العامة . وحتى المرأة المسلمة خرجت إلى الحياة العامة ، وتولت منصب القضاء ، ونابت عن الناس فى البرلمان ويوجد مجلس للعلماء فى سراييفو . وتوجد المشيخة الإسلامية فى بلجراد العاصمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام الذى يسمى رئيس العلماء ، ويعين بالإنتخاب بواسطة لجنة مكونة من أعضاء مجلس العلماء وأهل الفتوى ومدير القضاء الشرعى ومندوبى لجنة الأوقاف بمجلس النواب .

وللمسلمين فى مجلس النواب ثلاثون نائبا منتخبا ومن بينهم أعضاء مجلس العلماء ومحكمة التمييز ، وهم يبحثون فى هيئة خاصة مصالح المسلمين ، وخصوصا ميزانية الأوقاف والمعارف ومجالس المديريات . ولكل مديرية بها خمسة آلاف من المسلمين فأكثر محكمة شرعية ، وقاضى شرعى للفصل في شئون الطلاق والزواج والميراث والأوقـاف ، إلى غير ذلك ، كما توجد محكمة عليا تسمى محكمة التمييز فى سراييفو ، وفى سراييفو أيضا مدرسة للقضاء الشرعى ، ومدرسة للعلوم الشرعية، ومدرسة المعلمات والمعلمين يستطيع طلبتها اتمام دراساتهم العالية فيما بعد فى جامعات إسلامية أو أوروبية وفقا لاختصاص المدارس .

(٤) الإسلام فى البانيا

أما ألبانيا فقد انتشر فيها الإسلام على يد الأتراك . ولما فتح الأتراك البلقان قاومهم الألبانيون أشد المقاومة بقيادة جورج كستريوت بن حنا . ولكن جـورج لم يلبث أن اعتنق الإسلام ، وظل فى خدمة الجيش العثمانى وصار من قواده وسمى اسكندر بك . ويقدر سكان ألبانيا بنحو مليونين ونصف : نصفهم من المسلمين ، والنصف الثانى من الأرثوذكس والكاثوليك . ويتعلم المسلمون فى مدارسهم القرآن

الكريم . ومن أشهر المعاهد الدينية الاسلامية فى ألبانيا : مدرسة تيرانا الدينية . وكلمة مدرسة باللغة الألبانية هى نفسها باللغة العربية . ويتخرج من مدرسة تيرانا أئمة ومؤذنين ووعاظا ومدرسين للدين الإسلامى .

(٥) الإسلام فى ألمانيا

أما فى ألمانيا فيبلغ عدد المسلمين فيها عشرات الآلاف ، منهم من الألمان ، والباقون من العرب والهند والباكستان وسائر الدول الإسلامية . والحرية الدينية مكفولة بألمانيا . وهناك جمعيات إسلامية فى بعض المدن مثل جمعية الأخوة الإسلامية . وفى مدينية " فرانكفورت " جمعية المسلمين ، وفى مدينة " هامبورج " جمعية اتحاد المسلمين . وكان إمام مسجد برلين عالم كبير ألف عدة كتب ، منها كتب مصورة للصلاة باللغة الألمانية حتى يقرب فرائض الدين الإسلامى للمسلمين الألمان [(١)] .

(٦) الإسلام فى فرنسا

كانت فتوح العرب فى فرنسا تهدف إلى استقرار العرب فيها وادخال فرنسا فى رحاب الدولة الإسلامية . وكانت جهود العرب وتضحياتهم فى سبيلها من أغلى ما ضحوا به فى فتوحاتهم . لولا أن تكاتفت ظروف خارجية وداخلية على حرمانهم من الاستفادة من هذه الجهود . وقد تحدث جوستاف لوبون فى كتاب حضارة العرب عن فتوح العرب فى فرنسا فقال : ولم يلبث العرب المسلمون بعد أن أفاقوا من تلك الضربة التى أصابهم بها شارل مارتل أن أخذوا يستردون مراكزهم السابقة ، وقد سلم حاكم مرسيليا مقاطعة بروڤانس إليهم في سنة ٧٣٧هـ . وأستولوا على الآرل ودخلوا مقاطعة سان ترويز فى عام ٨٨٩م ، ودامت اقامتهم بمقاطعة البروڤانس حتى نهاية القرن العاشر الميلادى . وأوغلوا فى مقاطعة الفالة وسويسرا سنة ٩٣٥م . ثم يقول لوبون : وتثبت اقامة العرب في فرنسا مدة تزيد على قرنين وأن النصر الذى أحرزه شارل مارتل لم يكن مهما كما زعم المؤرخون ولم يستطع أن يطرد العرب من أية مدينة احتلوها عسكريا .

(٧) الإسلام فى إنجلترا

ويرجع تاريخ الاسلام فيها إلي عام ١٨٨٠ م حين اعتنق الاسلام اللورد استانلى أوف ألدرلى ، أحد أشراف الإنجليز وسفير إنجلترا فى تركيا ، وقد سمى

---

(١) العدوى : المسلمون والجرمان ص ١٩٥ .

نفسه عبد الرحمن . وفى عام ١٨٦٦م اعتنق الاسلام المستر كويليام أحد أعيان ليفربول ، وسمى نفسه عبد الله ، وكان بليغاً قوى الحجة . وقد أثار اسلامه السلطان عبد الحميد ، فاستدعاه إلى تركيا ومنحه لقب بك ، وعينه شيخا للإسلام فى بريطانيا: فعاد الشيخ عبد الله كويليام إلى مدينة ليفربول ، وحول جزءاً من داره إلى مسجد ، وأصبحت داره ملتقى لمحبى الثقافة الإسلامية . وقد أصدر جريدتين إسلاميتين ، وأخذ ينشر فيهما آراءه ، فكان لهما أثر كبير فى نشر الاسلام فى شمال إنجلترا[(١)] .

وظهرت فى إنجلترا عام ١٨٨٦ م جمعية اسلامية استمرت سبعة عشر عاما . وقد حضر من الهند الى إنجلترا شودارى فاتح محمد سيال وخوجه كمال الدين ، وشرعا يدعوان للإسلام حتى أسلم على يديهما اللورد هيدلى . وتأسست فى إنجلترا جمعيات إسلامية منها الجمعية الغربية الإسلامية ، وتهدف إلى حماية حقوق العمال المسلمين من العرب والهند والملايو والصومال ، وأكثرهم يشتغل فى الموانى الإنجليزية، وإيواء الغرباء المعوزين من المسلمين ، وإنشاء المدارس والمساجد لتعليم أبناء المسلمين. كما تألفت فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين جمعية لإيواء المسلمين الغرباء فى إنجلترا ، وتولى إدارتها بعض محبى الثقافة الاسلامية من الإنجليز وبعض الهنود والعرب من المسلمين .

ويوجد فى مانشستر مركز للثقافة الإسلامية لإقامة الشعائر الدينية . وقد منح الإمام حق عقد الزواج . وفى هذا المركز قاعة لإقامة الصلوات ، وقاعة للمحاضرات ، وقاعة للاجتماعات والحفلات ، والطابقان العلويان مخصصان لإقامة الطلبة المسلمين المتزوجين . وتلقى فى المركز محاضرات أسبوعية لتعليم الدين الاسلامى الحنيف . ويجتمع المسلمون مرة فى الأسبوع أيضا للبحث فى القضايا الخاصة بالمركز وبأحوالهم عامة فى جامعة مانشستر . وفى الكلية الصناعية الكبيرة التابعة لها عدد لا يستهان به من الطلبة العرب والمسلمين يتلقون فيها الدراسات العالية[(٢)] .

أما فى مدينة كاريف فتوجد جالية عربية من أبناء اليمن وعدن وبقية الإمارات الأخرى ، ويبلغ عددها نحو ٢٥٠٠ شخص . وهناك أيضا نحو ٦٠٠ عربى من الصومال لهم جمعية اسمها جمعية شباب الصومال . ويمتلك العرب المسلمون فى كارديف بعض المطاعم والمقاهى والفنادق وحوانيت البقالة والخضر والفواكه واللحوم .

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٩ .

وقد بنى المسلمون فى كارديف مسجداً يسمى " مسجد نور الإسلام " ، وأنشأته جمعية نور الإسلام العلوية الإسلامية ، وألحقت به مدرسة . كما بدأ أهل كارديف فى بناء مسجد كبير لإقامة شعائرهم الدينية . وفى ضاحية " ووكنج " - وهى تبعد عن لندن ٢٨ ميلا - مسجد بنى منذ ثلاثة أرباع قرن بأموال جمعت من الهند . وكانت تنفق عليه أسرة بيجوم بهوبال بالهند ، ولذلك يسمى الشاه جهان ، وفى لندن نفسها مركز ثقافى يعمل على نشر الثقافة الإسلامية وشرح مبادئ الإسلام .

(٨) العرب فى أسبانيا والبرتغال

لما فتح العرب أسبانيا والبرتغال ، أطلقوا عليهما اسم " الأندلس " . وتاريخ الإسلام فى الأندلس حافل بالأمجاد والبطولات . فقد ظل طيلة ما يقرب من ثمانية قرون يحمل مشعل الحضارة لأوروبا كلها . ويقيم العمران ، وينشر المدنية والعدل فى ربوع البلاد . وقد دافع عن كيانه حتى آخر أيامه هناك دفاعا باسلا ... ولكن شاءت الأقدار أن تحل المأساة الدامية ، ويغادر البلاد أبو عبد الله - آخر سلاطين بنى الأحمر فى غرناطة - مغلوبا على أمره ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م ويسدل الستار على مجد سامق ، كان من الممكن أن يمتد فيشمل أوروبا كلها [١] .

وقد عمل العرب فى الأندلس على نشر الإسلام ، وانشاء المساجد ، وتشجيع العلم حتى قال العالم دوزى : " لم يكن يوجد في بلاد الأندلس رجل أمى واحد فى الوقت الذى لم يكن فى أوروبا من يلم بالقراءة والكتابة إلا طبقة القسس " . وقد أنشأ الحكم الثانى وحده ٢٧ مدرسة مجانية بلوازمها كى لا يبقى أحد من رعيته محروما من نعمة العلم . وكانت جامعة قرطبة أشهر من الجامعة النظامية فى بغداد[٢] .

ولا تزال آثار المسلمين باقية حتى اليوم فى الأندلس . ومن أشهر هذه الآثار قصر غرناطة الشهير بالحمراء . وهو قصر فخم من أبداع ما صنعته يد الانسان ، وله باب من المرمر منقوش فيه بالخط الكوفى نقشا بارزا : " هذا الباب المسمى بباب الشريعة أمر ببنائه أبو عبد الله ابن يوسف بن الحجاج الخزرجى " . وإذا دخلت من هذا الباب استقبلك دهليز ساحته مرصوفة ، بالمرمر ، وحيطانه بدروب من الطوب الجيد . وفى جانبيه أماكن السيوف والرماح المعدة للحرس الملكى الخاص . ثم تنتهى من هذا الدهليز إلى طرقة ذات ظل وأشجار وأثمار ورياحين ، وبها قصر الحمراء .

---

(١) د. على الخربوطلى : العرب فى أوروبا - الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ ص ١٨ وما بعدها

(٢) د. مؤنس : فجر الأندلس ص ٩١ .

وقد أبدع المؤرخون ، فى وصف قصر الحمراء إبداعا لا مزيد عليه ، وهو يضم عدة قصور تحوى مئات القاعات التي زينت أبدع زينة ، وزخرفت أروع زخرفة ، وفيها من بدْع الصنعة فى مجال التشييد والبناء والزخرفة ما يشهد بما بلغته حضارة المسلمين فى الأندلس من تقدم وازدهار [١] .

ومن الآثار الإسلامية الباقية حتى الآن فى أسبانيا " قصر أشبيلية " ، وهو قصر فخم بابه من خشب الصنوبر ، ومنظره بهيج جدا ، ويقع فى وسط بستان عظيم يشتمل على أنواع الأشجار ذات الظلال والثمار ،وفيه برك وغدران متعددة ، وعليها مقاعد ومجالس والجدران والأبواب والنوافذ مزينة بالنقوش المحكمة البديعة، المطلية بالذهب .

ولا تزال توجد حتى الآن قنطرة الوادى الكبير عند قرطبة ، وطولها أكثر من ٥٠٠ خطوة وعرضها نحو ٢٠ خطوة . وعليها حواجز حجرية . وأما قصر الزهراء الذي سارت بذكره الركبان ، والقصر الذى بناه الخليفة عبد الرحمن الداخل ، فلم يبق منهما إلا أطلال بالية [٢] .

أما جامع قرطبة فيقع على طرف قنطرة الوادى الكبير ، وهو مسجد عظيم يحيط به سور ضخم ، ارتفاعه نحو ٨ أمتار ، ومبنى بالأحجار الصلدة والصخور الضخمة . وارتفاع الجامع نفسه لا يتعدى ثمانية أمتار ، وطوله مائة وثمانية وستون مترا ، وعرضه مائة وخمسة وعشرون مترا . وسقفه مرفوع على أقواس مزخرفة بالقيشانى ، معقودة على عمد من المرمر الملون الباهر ، وطول كل عمود منها أربعة أمتار ، ويبلغ عدد الأعمدة فى الجامع تسعمائة عمود من الرخام المكسو بالذهب واللازورد . وفى الساحة الخارجية أعمدة عددها مائتان . وأرض المسجد مرصوفة بأنواع الطوب الملون المحكم ، والمحراب والمنبر من المرمر الصافى تزينهما نقوش بديعة. وعلى المحراب كتبت هذه الآية الكريمة بالخط الكوفى البارز المحلى بالذهب "بسم الله الرحمن الرحيم : " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين " وكتبت تحت هذه الآية بالصفة المذكورة عبارة : " الإمام الحكم أمير المؤمنين " [٣] .

---

(١) د. محمد عبد العزيز مرزوق : قصر الحمراء - الدار المصرية ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) د. جوده هلال : قرطبة فى التاريخ الإسلامى ١٩٦٢ ص ١١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٣ وما بعدها .

تلك هى أهم الآثار الإسلامية الباقية فى الأندلس (أسبانيا والبرتغال) ، حتى اليوم ، وهى تشهد بما كان عليه الإسلام فى تلك الآونة من قوة النفوذ وامتداد السلطان ، وعلو الذكر ، وارتفاع المكانة . ولولا ما ألم بالأندلس من اضطرابات وفتن، وما فشا فيها من شحناء ومنازعات ، لامتد الإسلام إلى أوروبا ، واستطاع أن يتوغل فيها .

وفى أسبانيا ، حتى اليوم ، عدد من المسلمين لا يزالون يؤدن فرائضهم الدينية فى البقاع التى شهدت مجد أجدادهم ، وعظمة آبائهم الأولين . وفيها معهد للدراسات العربية يقوم بخدمة طلاب العلم الذين يرغبون فى استكمال ثقافتهم العربية ، كما يبين معالم الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى لمن شاء من الباحثين والدارسين .

(١) أثر الأدب العربى فى أوروبا

(أ) الشعر العربى وأثره فى الشعر الأوروبى :

تأثر الأدب الأوروبى فى العصور الوسطى وبداية الحديثة تأثراً واضحاً بموضوعات الأدب العربى . ذلك أن الأوروبيين فى تلك العصور لم يجدوا ما يشفى غليلهم فى الآداب المعاصرة التى أعوزها الخيال الخصب ، فاتجهوا شطر الأدب العربى المعروف بالخصوبة والإبداع . ويقول جب " أن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربى فى شعر العصور الوسطى ونثرها " (١) . وقد ظهرت نزعة جديدة فى الأدب الأوروبى فى شعر التروبادور(٢) . مما جعل الكثيرين يظنون أن هذه الظاهرة جاءت عن طريق الاقتباس من الأدب العربى الذى امتاز بالرومانتيكية البالغة فى الغزل الرقيق والرثاء الباكى ونحو ذلك (٣) والمعروف أن الأندلس امتاز بنوع خاص من الشعر الرقيق بدا واضحا فى الموشحات والأزجال ، ويمتاز هذا اللون من فنون الشعر العربى بصدق تمثيلة لنفسية الانسان وخواطره . ولم يظهر إلا بعد أن مهد له شعراء العرب فى الجاهلية والإسلام بشعرهم الرومانسى الرقيق الذى أشادوا فيه بالمرأة وتفننوا فى وصف جمالها ومحاسنها . ومهما اختلفت الروايات حول هذا النوع من الشعر ، فالذى يهمنا هو أن جميع هذه الروايات اجتمعت

---

(١) جب : تراث الاسلام ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) هو شعر الأزجال والموشحات وقصائد بروفانس ولنجدوك المنسوبة للمداحين المعروفين بالتروبادور ، أمثال ماركابرو ، وجيوم التاسع . راجع د. عبد العزيز سالم/الحياة العلمية والأدبية بالأندلس١٩٥٩

(٣) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٣٠٨ .

على أن هذا الفن أينع فى الأندلس دون سائر الأقطار العربية [١] . وهنا نجد لونا مشابها لهذا الشعر الأندلسى يظهر فى شمال أسبانيا وإقليم بروڤانس بجنوب فرنسا ، وذلك منذ أواخر القرن الحادى عشر ، ثم شق طريقه إلى مختلف الدول الأوروبية وبخاصة ايطاليا .

بل إن بعض العلماء أثبتو أن غزل الفروسية الذى انتشر بعد ذلك بقية العصور الوسطى فى ألمانيا متأثرا إلى حد كبير بأشعار التروبادور التي تغنى بها فرسان فرنسا [٢] . وقد انتشرت فى فرنسا ظاهرة الغناء الجماعى فى الطرقات والأماكن العامة بشعر موزون هو التروبادور . وُجِدَ من الباحثين عند منتصف القرن التاسع عشر من قال بأن أشعار التروبادور التى ظهرت فى بروڤانس فى أواخر القرن الحادى عشر ليست مأخوذة من الشعر العربى الأندلسى ، وأنها جاءت نتيجة لتطور طبيعى فى الشعر الفرنسى القديم ، ولكن هذا الرأى الذى أملته روح التعصب والوطنية وجد من يرد عليه من باحثى العرب . فالجدة فى أشعار التروبادور ليست فى موضوعات هذه الأشعار . وإنما فى طريقة صياغتها . ذلك أن العشق الذى يعبر عنه ذلك الشعر يمتاز بالصقل وقوة الخيال . فضلا عن عفته حتى أنه وجد مثله الأعلى فى الزوجة الوفية المثالية . وهذه كلها أمور لم تعرفها أوروبا فى العصور الوسطى . والتى أحاطت فيها الكنيسة المرأة بنطاق من العذرية حال دون التغزل فيها والإشادة بها [٣] . من هذا يبدو أن الخصائص التى امتاز بها شعر التروبادور جعلته يقوم على تقاليد أدبية ثابتة لا يوجد لها نظير فى الشعر الأوروبى السابق . ولا يمكن أن تتحقق أواخر القرن الحادى عشر - على الأقل - إلا فى أشعار أسبانيا العربية . وإذا كانت هناك صعوبة فى تفسير الطريقة والأداة التى انتقل بها الشعر العربى الأندلسى إلى اقليم بروڤانس ، فإن هذه الصعوبة يمكن تفسيرها على أساس جهود المسيحيين الأسبان الذين استعربوا وخضعوا للعرب ، وبالتالى قاموا بدور هام فى نقل بذور الثقافة العربية إلى البلاد المسيحية المجاورة من جهة الشمال [٤] . وأن موازنة سريعة بين الأزجال التى كتبها الشاعر الأندلسى **ابن قزمان** [٥] فى أوائل القرن الثانى عشر . وبين أشعار

---

(١) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب ترجمة فؤاد حسنين ١٩٤٦ ص ٨٦ .

(٢) Draper : Al History of Intellectual Development of Europe:Vol. 2.PP.33-43.

(٣) جب : تراث الاسلام ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٤) Cam. Med, Hist. Vol. 3, P. 438 .

(٥) هو أبو بكر بن قزمان القرطبى فى عهد المرابطين ، يعد إمام الزجالين على الاطلاق اشتهرت ازجاله وانتقلت إلى بغداد والشام ومصر . عمد إلى طريقة لا يزاحمه فيها أحد . فصار إمام =

التروبادور فى إقليم بروفانس . لتوضح لنا أن الأخيرة صيغ معظمها فى الأوزان نفسها التى صيغت فيها أشعار ابن قزمان . هذا فضلا عن وجود وجه آخر يغلب الرأى القائل بأن أشعار التروبادور مأخوذة من الشعر الأندلسى . فإذا كان الزجل الأندلسى قد استند إلى موسيقى يوقع عليها . فإن شعراء التروبادور فى بروفانس أخذوا يوقعون أشعارهم على آلات موسيقية ويتجولون بها قاصدين بيوت الحكام والأمراء . وهذه الأدلة التي تشير إلى أن شعر التروبادور إنما جاء وليدا لمؤثرات عربية أندلسية ، جعلت بعض الباحثين يؤيدون الرأى القائل بأ لفظ تروبادور نفسه ليس إلا تحريفا للفظ العربى " دور طرب " لا سيما وأن لغة بروفانس - شأنها شأن كثير من اللغات الأوروبية ، تقدم الصفة على الموصوف والمضاف إليه على المضاف . فقالو " طرب دور " التى حرفت إلى تروبادور [١].

وثمة ظاهرة جديرة بالملاحظة فى الشعر العاطفى الأوروبى الذى ظهر خلال الشطر الأخير من العصور الوسطى . هي العناية بالقافية . والمعروف أن الشعر الأوروبى الكلاسيكى لم يهتم بالقافية . ولم يعطها عناية تذكر فى مختلف أدواره ، بخلاف الوضع في الشعر العربى الذى يرتكز على القافية ويعتبرها منذ نشأته ركنا من أهم أركانه . وهذه الظاهرة جعلت كثيرا من الباحثين والمستشرقين يعتقدون أن القافية جاءت أوروبا عن طريق الشعر العربى [٢] . ولعل هذا الرأى هو الذى دفع ببعض المتعصبين من رجال الغرب إلى محاربة القافية فى الشعر ، بحجة أنها لم ترد فى الشعر الكلاسيكى . ولكن ذلك لم يمنع المنصفين من المستشرقين - مثل جورج يعقوب - إلى القول بأن القافية هى التي خلقت ذلك الأثر القوى فى شعر جوته [٣] الوجدانى ، وإليها يرجع الفضل فى هذه الموسيقى الجميلة التى يحسها القارئ لشعر بلاتن ونثر سقن جورج وغيرهما من أعلام الأدب فى أوروبا [٤].

(ب) القصة العربية فى الأدب الأوروبى :

أما الأثر العربى فى النثر الأوروبى فليس فيه مجال للشك. فاهتمام الأوروبيين بالدراسات والكتب العربية العلمية صحبه اهتمام آخر بالمؤلفات الأدبية عند العرب ،

= الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس . وهو بمنزلة المتنبى في الشعراء .

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام - الجزء الثالث .

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٤٧٣ .

(٣) جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) شاعر ألمانى وعالم طبيعى ومفكر وفيلسوف وأديب صوفى . تعانق فيه الغرب مع الشرق . قرأ القرآن مترجما وسبق ذلك بقراءة التوراة والانجيل .

(٤) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب ص ٨٤ .

وبصفة خاصة القصص الخرافية ذات المغزى الأخلاقى أو التي تتخذ الحيوان موضوعا لها . وهذا اللون من الأدب شرقى ، عرفه الشعر العربى قبل أن يظهر الأدب الأوروبى بقرون طويلة . وكان الأدب الاسبانى هو أول ما تأثر بالأدب العربى ، فنقل بطرس الفونس اليهودى من العربية إلى الأسبانية مجموعة قصص هندية ، وفى سنة ١٢٥١م ترجمت من العربية إلى الأسبانية أيضا مجموعة القصص الهندية المعروفة باسم « كليلة ودمنة »[١]. وأعقب ذلك بقليل ترجمة قصص الحكماء السبعة أو السندباد سنة ١٢٥٣م. ثم كثرت بعد ذلك تراجم الحكم والقصص الخلقية . وانتشرت فى أوروبا بوجه عام . وقد استمرت روح الأدب العربى فى الأندلس بعد جلاء العرب عنه ، ويقول جب أنه قل من يستطيع أن ينكر أن ما تمتاز به آداب الجنوب الأوروبى من انبساط وخيال خصب يرجع إلى تأثر تلك الآداب بالمؤثرات العربية ، كما يرجع إلى ما خلفته الثقافة العربية من آثار فى أهل الأندلس[٢] .

وقد لاحظ الباحثون أوجه شبه واضحة بين القصص العربى الخيالى وبين بعض القصص التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى . مثل قصة ايزولد ذات اليد البيضاء (Isolde Blanchemain) وقصة فلورا والزهرة البيضاء (Floire et Blanche Fleure) . وتتضح الروح العربية فى القصة الأخيرة بوجه خاص . وهى شديدة الشبه بالقصة الشائعة « القاسم ونيقولت Aucassin et Nicoletts التى لا يرقى الشك إلى أصلها العربى ، كما هو واضح من اسم بطلها « القاسم » . ولا عجب ، فالعرب – كما يقول لوبون – هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية فى الأدب [٣] . ولذا استطاع الأدب العربى أن يؤثر تأثيرا واضحا فى القصص الأوروبى ، ليس فقط فى العصور الوسطى ، بل الحديثة . فالروح الأندلسية تبدو واضحة فى قصة أمادس دى جولا Amadis de Gaula التى كتبها قصاص فى القرن الخامس عشر كما تبدو فى غيرها من القصص الأوروبى الذى وضع فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والمهم فى أمر هذه القصص أنها تعبر فى مجموعها عن صدى الثقافة العربية الاسلامية فى الفكر الأوروبى . وهو الصدى الذى كان نذيرا بانقلاب هام فى تاريخ الأدب الغربى الحديث ، لأنه أدى إلى مولد القصة الحديثة .

---

(١) كتاب وضعه الفيلسوف الهندى بيدبا ، ولكن الفرس زادو فيه وهو نواة الأدب القصصى على لسان الحيوان والطير وسيأتى ذكره تفصيلا فى ترجمة ابن المقفع .

(٢) جب : تراث الإسلام ص ١٩٢ .

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٤٧٤ .

وحسبنا أن سرفانتيس Cervantes (١٥٤٧ - ١٦١٦م) الكاتب الاسبانى المعاصر لشكسبير [١] - وهو يعتبر من أعظم كتاب القصة العالميين - تأثر بالثقافة العربية الأندلسية، كما يبدو ذلك بوضوح فى قصته دون كويكشوت (Don Quixoto) التى تعتبر من خير ما أنتجته العقلية الأوروبية فى ميدان الأدب . هذا عدا الإقبال العظيم الذى لقبته قصص ألف ليلة وليلة من الجمهور الأوروبى منذ أن ترجمت سنة ١٧٠٤م . حتى ظهر لها فى القرن الثامن عشر وحده أكثر من ثلاثين طبعة ، ونشرت منذ ذلك الوقت أكثر من ثلثمائة مرة بمختلف اللغات الغربية . وإلى هذه القصص يرجع الفضل فى إثارة روح المغامرة فى الأوروبيين . تلك الروح التى لابد منها لكل أدب شعبى . حتى اعترف الأستاذ جب بأنه لولا قصص ألف ليلة وليلة لما عرف الأوروبيون قصة روبنسن كروزو لدانيال ديفو ، والتى تحكى قصة حياة رجل خاض كثيراً من المغامرات، أهمها اقامته بمفرده فى جزيرة نائية مده ٢٨ عاماً وشهرين. أو قصة رحلات جلفر[٢] Gullivers Travels.. ويضيف جورج يعقوب أن قصة روبنسن كروزو مأخوذة من قصة حى بن يقظان التى كتبها فيلسوف الاندلس ابن طفيل . والتى ترجمت إلى اللاتينية عام ١٦٧١م ، وإلى الإنجليزية عام ١٧٠٨م[٣] .

لذا تعد أسبانيا الإسلامية الجسر الذى عبرت منه كثير من المظاهر الأدبية الأندلسية إلى أوروبا فى العصور الوسطى . ويتفق مؤرخو الأدب الأوروبى عامة على التأثير الحاسم الذى أحدثه الأدب الأندلسى فى تطور القصة الأوروبية فى العصر الوسيط .

ولقد تلقى الأدب العربى كثيرا من القصص الشرقية من الهند وفارس ، ونقلها بدوره إلى الأدب الأوروبى . وكان «بدرو ألفونسو» - فى طليعة القرن الثانى عشر - أول من نشر في العالم المسيحى عددا كبيرا من المجموعات القصصية التى تقوم موضوعاتها حول الأمثال والحكم والمواعظ ، وجعل عنوانها (Desciplina Clericales) ، أى « أدب العلماء » .

ويدل على ما أثارته هذه القصص من اهتمام فى العصور الوسطى وجود أكثر من ٦٣ مخطوطا من هذا الكتاب محفوظة اليوم ، وكلها مكتوبة بلغات أوروبية

---

(١) شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) شاعر انجليزى شهير ، ومؤلف مسرحى من اشهر مسرحياته روميو وجولييت ، تاجر البندقية ، جهد الحب الضائع ، العاصفة ، وقد ألف ٣٥ مسرحية تاريخية ودرامية . كما كان ممثلاً تميز أسلوبه بالقوة والرصانة والتفرد .

(٢) جب : تراث الإسلام ص ١٩٤ .

(٣) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب ترجمة فؤاد حسنين . مطبعة مصر - ١٩٤٦ .ص ٨١.

مختلفة ، كالألمانية والفرنسية والعبرية والإيطالية والقشتالية . كما أن موضوع هذه القصص عولج فى أكثر من ٦٠ كتابا فى العصر الوسيط ، وعصر النهضة ، لمؤلفين مشهورين : أمثال « بوڤيه » و « دون خوان مانويل » و « بوكاشيو » و « بوزون» و «شوسر» و « جيرالدى » و « ثرڤنطس » . ويتمثل فى تأليف هؤلاء الأدباء كثير من الموضوعات القصصية التى أوردها « بدرو ألفونسو » .

وانتشرت بعد ذلك بعهد قصير المجموعة القصصية التى يتضمنها كتاب « كليلة ودمنة » ، الذى ترجمه ابن المقفع عام ٧٥٧م من البهلوية إلى العربية . ولقد ترجم هذا الكتاب إلى القشتالية عام ١٢٦١م ، بأمر الملك ألفونسو الحكيم ، ثم ترجم إلى العربية فى القرن الثالث عشر ، ونقله « خوان دى كابوا » بعد ذلك إلى اللاتينية . وعرف هذا الكتاب ، من هذه الترجمة اللاتينية ، فى لغات مختلفة كالألمانية والدانمركية والإيطالية والأسبانية .

أما الترجمة القشتالية ، فهى أدق من ترجمة « خوان دى كابوا » باللاتينية ، إذ أنها نقلت مباشرة من العربية بدلا من اللاتينية . وأصبح هذا الكتاب أساسا لما كتب بعد ذلك من قصص فى الشرق والغرب ، فى أكثر من أربعين لغة ، اشتملت على حكم وأمثال تقال على ألسنة الطير والحيوان . ويكفى أن نذكر الكتب الآتية لبيان أثر كتاب كليلة ودمنة في الآداب الأوربية :

كتاب (Odo de Cheriton) والقصص الأخلاقية التى كتبها «نيكولاس بوزون» وكتاب (Speculum Sapientiae beati Cyrelli) وكتاب (Thetobnla sive animalium de regiis praeceptis con.) «للكاتب دبراڤيوس» وكتاب (Les fables nouvelles) للكاتب «ريشيه» وكتاب (Le Delices) للكاتب «ڤربوكيه»، وكتاب (Les fables) للكاتب «لافونتين[1] » وكتاب «الحيوان» للكاتب «رايموندو لوليو» وهناك كتاب آخر لقى من الشهرة والانتشار ما لقيه كتاب «كليلة ودمنة» ، وهو كتاب «السندباد» . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة القشتالية بأمر الأمير «دون فدريكى» شقيق الملك «ألفونسو» العاشر عام ١٢٥١م ، وجعل عنوانه «خدع النساء وكيدهن» . وقد وصل هذا الكتاب إلى أوروبا من طريقين : أحدهما الترجمة القشتالية التى ترجمت عنها عدة ترجمات ، والآخر طريق « التاريخ الفارسى» المعروف بكتاب الوزراء العشرة ، ومنه كانت الترجمة اللاتينية (Liber Septem Sa-

(١) الكتاب يتضمن قصصا منطوقه عبارة عن حكم ومواعظ أخلاقية على ألسنة الطير .

pientium) أو كتاب « العلماء السبعة » الذى ترجم بدوره إلى الفرنسية والإيطالية والقطلانية والإنجليزية والألمانية والهولندية والهنجارية [١].

وعرفت أسبانيا المسيحية كتاب «ألف ليلة وليلة» من طريق الأندلس . فقد وردت بعض قصصه فى «المدونة العامة لتاريخ أسبانيا» التى وضعها «ألفونسو الحكيم» ، منها قصة «تيودورة الحسناء» التى أخذ منها المسرحى الأسبانى «لوبى دى فيجا» فى إحدى مسرحياته الكوميدية . وتنعكس فى مسرحية «كلدرون دى لابركا» ، قصة «النائم اليقظ» . ويمكننا أن نشاهد قصة «الحصان المسحور» فى مسرحية (Clamoles y Clarimunda) وقصة «قمر الزمان» فى الراوية الشعبية (Pierres de Provenza y la Linda Magalona) ويذهب «منندث بيلايو» إلى أن هاتين القصتين الأخيرتين نقلتا إلى الأدب الأوروبى شفاهة أيام الحروب الصليبية ، وإن كان وجود مخطوطات أسبانية تشتمل على قصة «قمر الزمان» تدحض هذه النظرية [٣] .

ومما يدل على أن كتاب « ألف ليلة وليلة » كان شائعا فى الأندلس فى العصر الإسلامى ، أن الموريسكيين سجلوا بعض قصصه باللغة الخميادو بالحروف العربية التى كانوا يكتبون بها ، ومن هذه القصص قصة «قصر الذهب» و «مدينة اللاطون» ... كما يمكننا اليوم أن نتعقب بعض قصص من نوع قصص شهر زاد التى كتبها « ثر فنطس » نجد الموضوع نفسه الذى نسجت حوله قصة « القاضى وابنة التاجر » . وفي الأسطورة الشعبية التى أوحت إلى « ثوريليا » بذكرياته فى مدينة بلد الوليد ، شبه كبير بقصة تدور حول عدالة السماء .

وليس الأمر وقفا على القصص الأسبانية ، وإنما نرى لكتاب « ألف ليلة وليلة» صدى فى القصص الأوروبية تسبق الترجمة الفرنسية التى قام بها « جايان » فى بداية القرن الثامن عشر . ففى « رحلة براندان للبحث عن الجنة » نطالع قصة الجزيرة المتحركة التى ظهر أنها حوت ضخم ، وقصة الطيور الضخمة التى تشبه الرخ . وفى قصة شميد الألمانى ، المعروفة باسم (Das Schloss in der Hutt xa - xa) وقائع مماثلة لقصة «علاء الدين والمصباح السحرى»[٣]. وكان للقصص العربية أثر كبير فى ذيوع كثير من القصص فى الأدب الأوروبى، مثل: مجموعة «ألف قصة وقصة»، و« أساطير

---

(١) د. چوزيف نسيم لبيب : الإسلام والمسيحية . دار الفكر الجامعى ١٩٨٦ ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣١ .

(٣) جب : تراث الإسلام ص ١٩٤ .

عربية » التى نشرها «رينيه باسيه»، وتشتمل على خمسة وستين موضوعا قصصيا . وانتشر فى أوروبا ، فى العصر الوسيط ، نوع من القصص التاريخية تختلط فيه الحقيقة بالخيال على نحو ما جمعه « هيرودوت » عن مصر . وقد ترجم فى هذا الصدد كثير من القصص العربية عن « الاسكندر ذى القرنين » [(١)].

(جـ) أثر المقامات العربية :

ويرجع البعض أن المقامات العربية أثرت هي الأخرى فى الأدب الأوربى فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة . والمعروف أن هذه المقامات تتألف من قصص متفرقة بطلها شخص يستغل خفة روحه وسعة حيلته فى كسب قوته . وأشهر هذه المقامات مقامات الحريرى(٤٤٦ - ٥١٦هـ) ومقامات بديع الزمان الهمذانى[(٢)] . وقد وجد شبيها لها فى بعض الروايات الأسبانية التي تدور حول حياة المشردين والصعاليك والتى أحرزت إقبالا كبيرا فى القرن السابع عشر . وهذه قصة الفارس ثيفار El Cavallero Cifar تضم إلى جانب روحها الشرقية حادثة من الحوادث التى اقترن اسمها فى الرواية العربية باسم جحا [(٣)] .

د - أثر الألفاظ العربية فى اللغات الأوروبية :

نختم كلامنا عن أثر الأدب العربى في الآداب الأوروبية بالإشارة إلي أن اللغة العربية نفسها كان لها هي الأخري أثر عميق في اللغات الأوروبية ، فعدد الألفاظ العربية في اللغتين الأسبانية والبرتغالية أضخم من أن يتصوره العقل ، وقد عمل دوزي معجما للألفاظ ذات الأصل العربي الشائعة في هاتين اللغتين . ورغم ضخامة هذا المعجم فإنه يعترف بأن هناك ألفاظاً أخرى كثيرة يمكن أن تضاف إليه[(٤)] . كذلك تركت اللغة العربية أثراً واضحا في فرنسا - لاسيما الجهات الجنوبية - حتى أن اللهجات السائدة فى أوفرن Auvergne وليموزان Limousin محشوة بالكلمات

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٢) إن كان لبديع الهمذانى فضل الابتداع في المقامة ، فللحريرى حسن الاتباع ، ومع أن الحريرى جاء بعد الهمذانى بنصف قرن وكان له مقلداً إلا أن مقاماته وعددها خمسون نالت حظاً أوفر من عنايه الأدباء العرب والأوروبين . وقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز وهى لا تزال تدرس فى جامعات أوروبا بالشرح الذى وضعه لها رأس المستشرقين سلفستردى ساس قبل مائة وستين سنة .

(٣) جب . تراث الإسلام ص ١٨٨ .

(٤) **Dozy** : Glossaire des mots Espagnols et Portugais derves de Arabe.

العربية . كما أن أسماء الأعلام فيهما ذات مسحه عربية واضحة[١] . أما اللغة الإنجليزية ففيها وحدها ما يقرب من ألف كلمة مشتقة عن أصل عربى . منها حوالى مائتين وستين كلمة من الكلمات الشائعة الكثيرة الاستخدام فى الحياة اليومية[٢] .
وقد قسم تايلور هذه الكلمات تقسيما موضوعيا ، فمنها ما هو خاص بأسماء الحيوانات والطيور ، ومنها ما يرتبط بالفلك والكمياء والنبات أو بالأقمشة والملابس . أو بالمأكل والمشرب . هذا عدا الاصطلاحات المتعلقة بالطب والجراحة والموسيقى والحروب[٣] . ويبدو أن الجامعات الأوروبية الناشئة أحست بأهمية اللغة العربية كلغة للعلم والمعرفة . فحرص بعضها على إدخال دراسة اللغة فيها منذ القرن الثالث عشر[٤] :

ولاتقتصر هذه الألفاظ على العلوم - كالطب والفلسفة والرياضة والفلك والكيمياء والموسيقي - وإنما تتجاوز ذلك إلى الحياة الاجتماعية والسياسية ، والتقاليد العسكرية ، ونظم الزراعة والتجارة والصناعة والعمارة والعمران . وهى أبلغ سجل خلدت فيه الحضارة الأندلسية . والتى تشهد بما كان بين المسلمين والمسيحيين من صلات وثيقة .

أسماء الأنهار والمواضع :

الوادى الكبير	Guuadalquivir	طريف (جزيرة)	Tarifa
وادى الأبيار	Guadalaviar	يابسة (جزيرة)	Ibiza
وادى الحجارة	Guadalajara	بسطة (مدينة)	Baza
القلعة	Alcala	المدور (مدينة)	Almodovar
القليعة	Alcolea	البسيط (مدينة)	Albacete
قلعة وادى ايره	Alcala de Guadaira	الدويرة	Aldovera
قلعة أيوب	Calatayud	حصن القصر	Aznalcazar
قلعة رباح	Calatrava	حصن الفرج	Aznalfarache
الجزيرة الخضراء	Algeciras	مدينة الزهراء	Medina Azzahra
شقر (جزيرة)	Alcira	مدينة سالم	Medinaceli

(١) لوبون . حضارة العرب ص ٤٦٦ .

(٢) **Walt Taylor** : Arabic Words in English; p. 567.

(٣) Idem pp. 569-583.

(٤) **Rashdall** : op. cit.; vol. 2, pp. 90 - 91.

بلدة	Belda
بلد الوليد	Valladolid
المعدن (مدينة)	Almaden
قلعة الحرة	Calahorra
جبل طارق	Gibraltar
جبل فارو	Gibralfaro
جبل العيون	Gibraléon
الشرف (منطقة)	Aljarafe
الغرب (منطقة)	Algarve
المرية (مدينة)	Almeria
الحامة (مدينة)	Alhama
الحجار (مدينة)	Alejar
قصر أبي دانس (مدينة)	Alcacer do sal
الرصيف (بمدينة قرطبة)	Arrecife
بني بشير (حصن)	Benamexir
فحص رعين	Zafarraya
قرية	Alqueria
شارقة (مدينة)	Jerica
سوق	Zoco
سوق الدواب	Zocodover
الحمراء (اسم قصر)	Alhambra
الخندق (اسم موضع)	Alhandega
الشرقية (اسم حي من قرطبة)	Ajarquia
فحص	Vega
الحوز	Alfoz
ضيعة	Aldea (Daya)
ربض	Arrabla
درب	Adarve

زنيقة	Zonaica

ألفاظ الزهور والفواكه:

الياسمين	Jazmin
الريحان	Arrayan
البرقوق	Albaricoque
سوسنة	Azucena
الخزامى	Alhucema
النارنج	Naranjo

ألفاظ المأكولات والبقول:

الأرز	Arroz
الباذنجان	Berenjenas
الترمس	Altramuces
المجبنات	Almojabanas
الزيت	Aceite
اللوبيا	Alubia
الزعفران	Azafrán
الخروب	Algarroba
السكر	Azucar
الزيتون	Aceituna

ألفاظ المؤسسات الاقتصادية والدينية :

الطاحونة	Atahona
دار الصناعة	Atarazana
المخزن	Almacen
القيسارية	Alcaiceria
الفندق	Alhondiga
الديوان الجمركي	Aduana
مدرسة	Mederza
رباط	Rabita

مسجد	Mezquita

الألفاظ الشائعة فى العمارة والزخرفة :

البناء	Albanil
العريف	Alarife
القبة	Alcoba
الطوب	Adobe
المنارة	Alminarete
المنار	Alminar
سقف سماء	Zaqui Zami
بنيقة العقد	Albanega
تربيعة العقد	Atarabea
الربع المحيط بالعقد	Arraba
الأزار الزخرفى	Alizar
الافريز الزخرفى	Alfiz
البربخانة	Barbacana
البكرة (فى الأبراج)	Albacara
الستارة (الحائطية)	Citara
برج الطيلعة	Atalaya
برج البرانى	Albarrana
الغرفة	Algorfa
الغرفة العليا (المصرية)	Mazaria
التوريق	Ataurique
التوشية	Ataujia
الترصيع	Ataracea
السطح	Azotea
المقربص	Almocarabe
أسطوان الدار	Azaguan
جائزة السقف	Jacena
ضبة الباب	Aldaba
زرقون	Azarcon
نزلة (فى الزخرفة)	Nacela
تشبيكة	Tabique
أكليل زخرفى	Alecrim
سقاية	Azacaya
شماسة	Ajimez
قنطرة	Alcantara

المنسوجات والمفروشات :

البرنس	Albornos
الأزار	Alizar
المتزر	Almaizer
الستارة	Acitara
القطن	Algodon
المخدة	Almohada
الحمرة (سجادة)	Alfombra
الجبة	Chupa
السراويل	Zaragüelles
الخفاف	Alifafes

ألفاظ آلات الطرب :

العود	Alaùo
الطنبور	Tambore
الدف	Adufe
الطبل	Atabale
البوق	Alboque
القيثارة	Guitarra

ألفاظ أدوات المطبخ :

المهراس (الهاون)	Almirez
السطل (الدلو)	Acetre
الربع (كيل الزيت)	Arrope

اللغة العربية بين التأثير والتأثر مع لغات الأمم

ذكرنا فيما سبق أن الترجمة بدأت فى العصر الأموى إلي اللغة العربية . وعندما ازدهرت الحركة الأدبية في العصر العباسى ، في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون ، ترجمت إلى العربية – من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والهندية – كتب الفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات والتاريخ والكيمياء والتشريح وغيرها من العلوم ، مما أوجد نهضة علمية وأدبية منقطعة النظير فى تاريخ اللغة العربية ، امتدت إلى كثير من أقطار آسيا وأوروبا وأفريقية ، فطرأ بواسطتها تطور على العربية كان من نتائجه وجود لغة علمية تقاس بمعيار المنطق والبرهان العقلى ، كما وضعت كثير من مصطلحات العلوم والفنون ، فى ذلك العهد .

تواصل الحضارات أثر اختلاط العرب بشعوب البلاد المفتوحة :

تحت مظلة الفتوحات العربية التى امتدت إلى كثير من أنحاء العالم ، خالط العرب عددا من الشعوب وتعلموا لغاتها ، واقتبسوا منها بعض العلوم والفنون – وفى مقدمتهم الشعوب الآرامية [(١)] فى الجاهلية والقرون الأولى للإسلام – فنتج عن ذلك إندماج طائفة من كلمات هذه الشعوب فى لسان العرب . كما خالط العرب السريان [(٢)] ، فاقتبسوا منهم مئات الكلمات الخاصة بالزراعة والصناعة والتجارة والملاحة . ومما يلفت النظر أن أكثر الكلمات العربية المختصة بالزراعة آرامية الأصل . يرجع ذلك إلى اهتمامهم بالمحاصيل الزراعية التى تمثل أهم الموارد لحياتهم .

وقد غزا العرب فارس سنة ٦٥٢م ، واستمرت سيادتهم لهذه البلاد العريقة فى الثقافة والمدنية نحو ستة قرون ، فأخذوا عنها قسطا كبيرا من تلك المدنية ، واقترضوا من الكلمات الفارسية أكثر مما اقترضوه من سائر اللغات ، وقد احتلوا أسبانيا سنة ٧١١م ، واستمر حكمهم فيها نحو سبعة قرون . وقد أثرت العربية فى اللغة الاسبانية تأثيرا كبيرا كما سبق أن ذكرنا ، فقد ذكر بعض الباحثين أن المفردات العربية التى

---

(١) الآراميون شعب خرج من شبه جزيرة العرب في فترات من القحط بالغة الخطورة ، ثم أندفع نحو الشمال وهبط سوريا وفلسطين واستقر فيها حوالى سنة . . ١٥ ق.م .
راجع : بروكلمان : العرب والامبراطورية العربية . ص : ١٣ .

(٢) لما أعتنق الآراميون المسيحية واستخدموا لهجة جديدة فى كنائسهم وآدابهم وثقافتهم نبذوا اسمهم الأول لصلته بالوثنية . وسموا أنفسهم السوريين أو السريانُ .
راجع : د. **حسن محمود** : حضارة مصر والشرق القديم ص : ٣٨٥ .
وأيضا : **فيليب حتى** : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ ١ ص ١٨٤ .

دخلت إلى اللغة الاسبانية تقدر بربع محتويات المعجم الأسبانى . أما البرتغال فقد فتحها العرب فى عام ٧١٤م ، وظلت سيطرتهم عليها حتى عام ١١٣٩م ، وأسفر ذلك عن دخول أكثر من ثلاثة آلاف كلمة عربية إلى اللغة البرتغالية . وقد صنف الأب جان دى صوصه J. de Souza (١٧٧٤ - ١٨١٢م) المولود فى دمشق من أبوين عربيين - معجما فى ١٦٠ صفحة (الشبونة ١٧٨٩) جمع فيه الألفاظ التى أقتبسها البرتغال من العربية والتى تغلغلت فى اللغة البرتغالية إلى حد كبير .

وأتم المستشرق الهولندى ريخرت دوزى R. Dozy (١٨٢٠ - ١٨٨٣م) الذى لقى شهرة واسعة بين أعلام المستشرقين ، معجم الألفاظ الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية الذى كان قد بدأ بتأليفه المستشرق الهولندى انجلمان Engleman «ليدن ١٨٦٩» وفي هذا المعجم الذى يشتمل على ٤٢٤ صفحة يجد القارئ الأصل العربى لكل الكلمات الاسبانية والبرتغالية المدرجة فيه [١] .

دخول كلمات أعجمية إلى اللغة العربية :

وفى غمرة احتكاك العرب بالصليبيين من محاربين وتجار ، توترت علاقات فرنسا مع الشرق العربى وخاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٧م ونشر حمايتها على تونس سنة ١٨٨١م وعلى المغرب الأقصى سنة ١٩١٨م . ونشأت علاقات تجارية مدة طويلة بين دويلات إيطاليا المستقلة والأقطار العربية ، فدخلت إلى العربية من جراء ذلك كلمات لم تزل إلى الآن شائعة فى الأوساط التجارية والمالية ككلمة : دوبيا ، برتسنو ، كمبيو ، كمبيالة ، بنك ، سيركولار ، بورصة ، وغيرها .

ومع أن العرب لم يفتحوا اليونان ، إلا أنهم منذ أيام العباسيين أخذوا ينقلون علومهم ومؤلفاتهم من لغتها الأصلية أو من ترجمتها السريانية . وقد قرأ الفيلسوف العربى أبو نصر محمد الفارابى [٢] (٨٧٣ - ٩٥٠م) كتب أرسطو ونشرها مع كتب أفلاطون لمعاصريه ، وشرحها لهم . ولاشك أن شعوب سورية ومصر وغيرها من بلاد الشرق الأدنى التي فتحها العرب قد تأثروا باللغة اليونانية فاقتبسوا منها مئات الكلمات ولاسيما عن طريق اللغة السريانية ، كما أن اللغة اليونانية نفسها اقتبست الشيء الكثير من العربية ،

---

(١) R. Dosy: Glossaire des mots Espagnols et portugais derves de Arabe

(٢) الفارابى (٨٧٢ - ٩٥٠م) من رواد الفكر الفلسفى ومن مؤسسى الفلسفة العربية . اشتهر بشروحه لفلسفة أرسطو . من مؤلفاته احصاء العلوم وسيرد ذكره من رواد الفكر الفلسفى .

غير أن هذه المقتبسات اتخذت شكلا يصعب معه إرجاعها إلى الأصل العربى . وهكذا دخلت إلى العربية على مر الزمن كلمات كثيرة من أصل سريانى وفارسى ويونانى ولاتينى وفرنسى وإيطالى وأسبانى وتركى وغير ذلك . مما يؤكد ارتباط الحضارات وتواصلها .

كلمات من أصل سريانى :

تاجر ، رقعة (قطعة ورقة للكتابة) إجبار ، جاسوس ، مجلة ، ترعة ، بقعة (قطعة أرض) حسن ، حكيم ، أسبوع ، حرب ، رصيف ، روح ، أقنوم ، رحمن (نعت مختص بالله) ، جنة ، خياط ، درب ، دير ، أطلس (نسيج حرير رقيق) ، كوز (إبريق صغير) ، تنور ، اكليل (تاج) ، أنبوب ، تلميذ ، حمي ، ربح ، أس (بمعنى أساس) ، أمهات (جمع أم) . بيت ، حشرة ، دمية ، مروحة ، زمن ، زورق، زاوية، زيت ، سفينة ، مسجد ، ساس ، حانوت ، كنيس (معبد اليهود) ، صمصام (سيف) ، وكلمات كثيرة غيرها نحسبها عربية الأصل .

كلمات من أصل فارسى :

أستاذ ، أوج (علو) ، دستور ، جوق (جماعة من الناس) ، برهان ، بستان، ربان جهبذ (ناقد ماهر) ، زنديق ديباج ، ديباجة (مقدمة الكتاب أو نحوه إن كانت مذهبة أو ملونة عند العرب) ، أفيون ، ساذج ، سراب ، سرادق ، جزية (ضريبة) ، جناح (اثم) ، جوهر ، صك ، دفتر ، ديوان ، خنجر ، سفتجة (كمبيالة) ، إبريق ، اسطوانة ، بازار (سوق)، جام (كأس) ، دكان ، سمسار ، عربون ، برنامج ، طازج ، طبق (ما يؤكل عليه) ، طراز ، خليج ، درويش ، دولاب ، ناى (آلة موسيقية) ، خواجة (سيد) ، خز (حرير) ، جاموس ، بوتقة (وعاء تذاب فيه المعان) ، الياقوت ، المسك ، القصعة (صفحة) ، الفلفل ، هندام ، بادنجان أو باذنجان ، السرايا (الدوائر الحكومية ، بلاط الملك) ، مارستان (مستشفى) ، نرجس ، النارجيلة ، بريد، بند (فصل أو فقرة من كتاب) ، صهريج ، جادة (طريق) ، وكلمات غيرها نستعملها كأنها عربية أصيلة .

كلمات عربية مشتقة من أصل يونانى :

أسطول ، فردوس ، طقس (بالمعنى الكنسىَ) فلسفة ، موسيقى ، برج ، يرقان (اسم مرض) ، كيمياء ، ميناء ، درهم ، إقليم ، خليفة ، أسطورة (جمعها

أساطير) ، طقم ، قرطاس ، قيراط ، أبرشية ، ابليس ، أثير ، ارثوذكسى ، أزميل، إنجيل ، أسقف، ألماس ، جغرافية ، بلسم ، تلغراف ، خارطة ، دينامو ، فلس ، قندلفت (خادم الكنيسة) ، ارستقراطية ، مقلاد (جمعها مقاليد) ، آفة ، كيلو ، كيلو جرام ، الناولون (أجرة الراكب) ، مسجل وغيرها .

كلمات عربية من أصل لاتينى :

اسطبل (اصطبل) ، امبراطور ، بترول ، بركان ، ريف ، بلاط (بمعنى قصر)، قنصل ، فرن ، دينار ، قبان (ميزان لاشياء ثقيلة) ، قنطار ، بارجة ، سراط (صراط)، قنديل ، قناة ، قميص ، ترانزيت ، مانيفاتورا ، قلنسوة (نوع من لباس الرأس) ، قيصر، كردينال ، تفة (سلة) ، ميل ، كومسيون ، (عمالقة) ، فرن ، كوب (قدح) ، كوفية (غطاء للرأس) ، جنرال ، البروليتاريا (الطبقة العاملة) آفة ، كل هذه الكلمات مقتبسة من اللاتينية وأكثرها اندمج فى العربية بواسطة اليونانية أو الايطالية .

كلمات من أصل فرنسى :

سكرتير ، برلمان ، بروتستانى ، دكتور ، راديو ، طن (ألف كيلو جرام) ، مليون ، مليار ، مارشال ، باسبورت (جواز سفر) ، بلون (منظار) ، باتيستا (نسيج رقيق من الكتان) ، درينة ، نوفوتيه ، بورجوازية ، ماسونى ، بطارية ، وغير ذلك.

كلمات من أصل ايطالى :

برميل ، بنك ، بورصة ، كمبيالة ، رصيد ، كمبيو ، دوبيا ، كونتراتو ، فاتورة ، اكسترا ، شوكولاته ، سيكورتاه ، بروتستو ، باله صابورة (ما يوضع من الثقل فى قعر السفينة لئلا يميل أحد جانبيها) ، قرصان لصوص البحر ، بيرة (معربها جعة) ، بوليصة (البيان ، ومنه : بوليصة الشحن ، وبوليصة التأمين) وغيرها ، ويلاحظ أن أكثر هذه الكلمات نستعملها اليوم فى البنوك وفى معاملاتنا التجارية .

كلمات من أصل اسبانى :

بطاطا ، تبغ ، ريال ، الكنارى (طائر حسن الصوت) ، كينا (شجرة) ، اندمجت هذه الكلمات فى العربية بواسطة اللغة التركية .

كلمات من أصل تركى .

بارة (جمعها بارات ، وهى الجزء الاربعون من القرش) ، قرش ، بيرق (راية) ، ترسانة (مستودع للذخائر وأدوات الحرب) . دمغة ، قنبلة ، قفطان ، وجاق (مدفأة) ، بارود ، جمارك ، زنكين (غنى) ، فرمان (عهد السلطان للولاة) ، بقلاوى (نوع معروف من الحلوى) وغير ذلك .

اندمجت هذه الألفاظ ومئات غيرها فى العربية ، فزادت ثروتها ، وأصبح من المتعذر التمييز بينها وبين الألفاظ العربية الأصيلة ، وبهذه الطريقة أغنى العرب فى عصورهم المزدهرة العربية بآلاف الألفاظ التى عربوها وجعلوها على صيغ عربية تلائم الذوق العربى ، وقد أظهروا براعة فى التحول والتعريب حتى صارت الكلمات الأعجمية عربية لاغبار عليها . فهل يخطر ببال أحد - غير كبار اللغويين - أن كلمة ترعة مقتبسة من الفارسية ، وبرج من اليونانية ، ودينار من اللاتينية، وقنبلة من التركية، ومليون من الفرنسية ، وبرميل من الإيطالية ؟

اعتماد الغرب على الكتب العربية .

وقد أفسح الأعلام ومشاهير الفلاسفة من العرب - الذين ظهروا فى بغداد وقرطبة والقاهرة وتونس - مجالا لتقدم العلوم والفنون ، ورفعوا منار المدنية أكثر من خمسة قرون ، بينما كانت القارة الأوروبية بأسرها غارقة فى سبات عميق ، ولما أفاق الغربيون من سباتهم هذا ، أخذوا يترجمون من العربية إلى اللاتينية ، ولم يقتصروا على كتابات العرب الأصيلة ، بل ترجموا أيضا ما نقله العرب من العلوم عن قدماء اليونان والرومان . وتألفت فى طليطلة سنة ١١٣٠م جماعة من المترجمين برئاسة رئيس الأساقفه ريموند ، وكان فضل هذه الجماعة عظيما على البلاد الاوروبية .

وظلت جامعات أوروبا أكثر من خمسة قرون تعتمد فى موادها العلمية على الكتب العربية . وفى نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المقررة فى جامعة «توبنجين» Tubingen أضعاف الكتب اليونانية ، وكانت مؤلفات الرازى وابن سينا تدرس فى كلية الطب الكبرى فى «مونبلييه» Montpelier حتي القرن الثامن عشر.

و - اندماج الكلمات العربية فى اللغات الأوروبية

فى إبان سلطان العرب كان للعربية تأثير فى حياة الغربيين ، ظهر ذلك فى كثير من اللغات الأوروبية ، ولا مجال الآن في هذا الكتاب لتعداد الكلمات اليونانية

والاسبانية والبرتغالية والإنجليزية والفرنسية المقتبسة من العربية ، إذ كما اقترضنا من الأوروبيين ولغات الشعوب الأخرى اقترضوا هم أيضا منا وتلك سنة التواصل الحضارى، فقد استمد الأسبان كما ذكرنا معظم أسماء الرياحين والأزهار من العربية ، ومن جبال البرانس انتقلت كلمات عربية كثيرة إلى الفرنسية كالبرقوق والياسمين والقطن والزعفران ، وقد أخذت أسبانيا وبالتالى أمريكا اللاتينية من اللغة العربية الشئ الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، وقد زود العرب الذين كانوا قادة البحر الأبيض المتوسط كلا من فرنسا وإيطاليا بكثير من مصطلحات الجيش والإدارة والصيد وغيرها . **وجملة القول أن العربية كانت فى العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون ، بل أكثر من ذلك ، كانت لغة دولية لمصطلحات التجارة والإدارة وأنظمة الحكم .**

ومنذ أوائل القرن الماضى انعكست الآية ، فصار المترجمون من أبناء العربية يترجمون الكتب من الإنجليزية والألمانية والإيطالية والفرنسية فى العلوم المختلفة فأحدث ذلك إنقلابا عظيما فى العربية ، واكتسبت سعة فى الأغراض والمعانى والأساليب وطرق التفكير ، وكان لإنشاء مدرسة « قصر العينى » [(١)] فى القاهرة أثر كبير على اللغة العربية ، إذ قام فيها من جهابذة الأساتذة من نقلوا بعض ما كان ضروريا آنذاك للطلبة من العلوم العصرية إلي العربية ، ووضعوا مصطلحات علمية تقابل المصطلحات الغربية ، فكان لهذا المجهود العلمي الكبير أثر فعال ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى الشرق العربى أيضا . وصحب ذلك نهضة علمية أخرى فى سوريا ولبنان ، نقلت فيها الكتب العلمية إلي العربية ، واتسعت هذه الحركة على يد نخبة من الأساتذة وأرباب النشر والصحف توكيداً لسنة التواصل الحضارى .

ز - الكتابة بالحروف العربية لدى غير العرب :

من اللغات التى كتبت بالحروف العربية ، التركية العثمانية والتترية والقرمية والنوجائية والأذربيجانية والجركسية والتركمانية والأذركية والكشفرية . وأيضا اللغة الهندية الأوروبية الهندستانية ، واللغة الفارسية الأفغانية والبلوشية والكردية واللغة الافريقية البربرية والنوبية والحوسية والسواحلية والملجاشية والمسيشيه [(٢)] .

---

(١) مقر المدرسة الطبية والمستشفى العسكرى فى مصر ١٨٣٧ .

(٢) محمود عباس حمودة : دراسات فى علم الكتابة العربية. مكتبة غريب ١٩٨١ ص ص ٥٥ - ٥٩.

من الكتب التى صدرت فى السنتين الأخيرتين كتابين يتناولان موضوعا واحدا ومهما ، إلا وهو انتشار الحروف العربية لدى غير العرب .

صدر الكتاب الأول فى اللغة الصربوكراوتية عن معهد الاستشراق فى سراييفو فى نهاية ١٩٨٢ ، وهو بعنوان الخط العربى » للدكتور توفيق مفتيتش [١] .

معجم عربى - صربوكراوتى .

ولهذا المؤلف فضل كبير على المستشرقين فى يوغسلافيا بعمله الموسوعى الجليل «معجم عربى - صربوكراوتى » الذى نشر سنة ١٩٧٣م فى جزأين يصل عدد صفحاتهما أربعة آلاف صفحة .

والكتاب يتكون من مقدمة وفصول كثيرة وقصيرة تتناول أهم الأمور التى تتعلق بالأبجدية العربية جذورها وتطور كتابتها عبر التاريخ ، وأشكال كتابة الحروف بالتفصيل ، وأنواع الكتابة كالكوفى ، والثلث الخ) . وهذا القسم له أهميته بالطبع لليوغسلافيين ، وبشكل خاص للمهتمين بهذه اللغة وتراثها . وما يهمنا هنا ، أو ما قد يهم القارئ العربى ، وهو القسم من الكتاب الذى يتعرض لانتشار الحروف العربية لدى غير العرب .

وهذا الموضوع ينقسم إلى قسمين ، قسم يتعرض بشكل عام إلى انتشار الحروف العربية لدى غير العرب فى آسيا وأفريقيا ، والآخر يتناول بالتحديد انتشار هذه الحروف فى يوغسلافيا ، وفى الواقع ، أن القسم الثانى أكثر أهمية للقارىء العربى بما يطرحه من معطيات جديدة ، بينما يقدم القسم الأول معلومات عامة اعتمدت بشكل أساسى على ما كتبه بعض الباحثين العرب وغيرهم ، وبشكل خاص كتاب عبد الفتاح عبده : انتشار الخط العربى في العالم الشرقى والعالم الغربى ، القاهرة ١٩١٥) .

فى هذا القسم ، الذى يتعرض فيه المؤلف لتراث الخط العربى فى يوغسلافيا ، يتحدث عن موضوعين مختلفين ، عن انتشار الخط العربى بين العلماء والمثقفين المسلمين فى المناطق التي تتشكل منها يوغسلافيا ، الذين كانوا يؤلفون أو ينسخون المؤلفات باللغة العربية ، وعن اعتماد الحروف العربية لكتابة اللغة المحلية .

---

(١) Dr. Teufik Muftic, Arapsko pismo, Orijentalni Institut, Sarajevo 1982.

انتشار الخط العربي مع انتشار الإسلام :

والموضوع الأول يرتبط طبعا بانتشار الإسلام فى بعض المناطق ، التى تتكون منها يوغسلافيا ، كما فى مكدونيا وكوسوفا والبوسنة ، منذ بداية القرن الخامس عشر . ففى ذلك الوقت ، مع عدم توفر الطباعة بالحروف العربية ، كـان العلماء والمثقفون الذين اتقنوا اللغة العربية يعتمدون على خط يدهم فى كتابة مؤلفاتهم ، أو فى نسخ ما يحتاجون إليه من مؤلفات مخطوطة . وهكذا ، مع انتشار الإسلام ، برز فى هذه المناطق متخصصون بالنسخ والخط العربى . وقد ازداد عدد هؤلاء الخطاطين بصفة خاصة من جراء الاهتمام بالقرآن الكريم ، وتلبية حاجات الناس إلى نسخ منه . وفي الفصل الخاص المتعلق بهؤلاء النساخ والخطاطين يقول المؤلف أن هذه المهنة الجديدة تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر ، ويستعرض فى الصفحات اللاحقة أهم الخطاطين الذين أبدعوا في هذا الميدان ، منهم الخطاط ابراهيم شيخوفيتش Ibrahim sehovic، الذى يعتبر من أبرز المبدعين فى هذا المجال . وقد عاش هذا الخطاط فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وفي النصف الأول للقرن التاسع عشر فى سراييفو ، حيث كان يعمل إماما لأحد الجوامع فيها . وقد اهتم هذا الإمام - الخطاط بشكل خاص بنسخ القرآن الكريم ، وكانت النسخ التى يكتبها تتمتع بقيمة كبيرة . وكان من عادة هذا الإمام أن يكتب فى كل نسخة يكتبها من القرآن رقم تلك النسخة مع اسمه الكامل « ابراهيم بن الحاج محمد السرائى » . وقد بقيت نسخة من القرآن الكريم ، مما كتبه هذا الخطاط ، وهي تحمل الرقم (٦٦) وتعود إلى سنة ١٢٢٦ هجرية (١٨١١ ميلادية) ، وهذا يعنى أن الإمام ابراهيم قد أبدع بخط يده (٦٦) نسخة على الأقل من القرآن الكريم [١] .

اعتماد الحروف العربية للغات الأخرى :

والموضوع الثانى الأهم ، اعتماد الحروف العربية لكتابة اللغات غير العربية ، يتناوله المؤلف خلال عدة فصول قصيرة ، ولكن بصورة مركزة . ففى فصل « الكتابة العربية للغات الأجنبية » [٢] يتحدث بشكل عام عن هذه الظاهرة ، ويلاحظ أن عدة آلاف من المفردات العربية قد دخلت إلي بعض اللغات غير العربية (الفارسية ، التركية الخ) ، التى اعتمدت الحروف العربية ، وفي فصل آخر ، انتشار الكتابة

---

(١) Dr. Teufik; M; Arapsko pismo . . . p. 140.

(٢) Op Cit, p. 210

العربية فى آسيا ، يركز على اللغة الفارسية ، وعلى التطورات التى طرأت عليها مع استعمالها لهذه اللغة . وفى فصل « انتشار الكتابة العربية فى أفريقيا »[1] يتحدث عن استعمال الحروف العربية لعدة لغات محلية فى قارة أفريقيا ، بينما يخصص فصل «انتشار الكتابة العربية فى الشمال» للحديث عن تجربة اللغة العثمانية فى هذا المجال.
وبعد هذا يتوسع المؤلف فى فصل « الكتابة العربية فى يوغسلافيا » ، ثم يخصص فصلا آخر للحديث عن استعمال الحروف العربية للغة الصربوكراوتية وحول هذا يعترف المؤلف منذ البداية بأن فتح الأتراك للبلقان خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وما لحقه من انتشار للدين الإسلامى فى بعض المناطق لدى الشعوب السلافية ، وغير السلافية ، أدى إلى امتصاص المسلمين الجدد لبعض عناصر الثقافة العربية الإسلامية، ومنها الخط العربى . ويتحدث فى الفصل الأول عن العوامل التى ساهمت فى نشر الخط العربى كالإدارة والتعليم الخ . ثم ينتقل فى الفصل الثانى إلى الحديث فقط عن استعمال الحروف العربية لكتابة اللغة الصربوكراوتية . وقد يكون من المفيد أن نوضح هنا أن استعمال الحروف العربية قد اقتصر فقط على المسلمين فى البوسنة ، الذين أصروا على تمييز اللهجة السلافية الجنوبية ، التى يتكلمونها ويكتبونها بالحروف العربية ، وعلى تسميتها « اللغة البوسنوية » ، التى تتميز بوفرة المفردات العربية فيها [2] . وفى هذا الفصل يتعرض المؤلف إلى كيفية اعتماد المسلمين فى البوسنة على الحروف العربية لكتابة لغتهم ، وإلى محاولاتهم لتطويع هذه الحروف لكى تناسب لغتهم ، ومن ثم إلى بداية النشر فى هذه اللغة بالحروف العربية ، الذى استمر حتى سنة ١٩٤١ ، فقد نشر فى سراييفو خلال سنوات ١٩٠٧ - ١٩٤١ حوالى أربعين كتابا فى هذه اللغة بالحروف العربية ، وذلك فى أكثر من نصف مليون نسخة . وحول هذا الموضوع ، عن تجربة المسلمين فى البوسنة فى كتابة لغتهم بالحروف العربية ، لدينا معطيات أوفى فى الكتاب الثانى الذى سنتعرض له لاحقا .

انتشار الحروف العربية بين غير العرب :

دون شك ، أن كتاب الدكتور توفيق مفتيتش يتمتع بأهمية كبيرة ، وخاصة

(١) Op Cit, p. 221

(٢) بعد الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد بعد توقف النشر بالحروف العربية ، تلاشى تعبير «اللغة البوسنوية » وعلى الرغم من أن المسلمين فى البوسنة قد أصبحوا الآن حسب الدستور اليوغسلافى « شعبا » مستقلا ، إلا أن لغتهم تعتبر « اللغة الصربوكراوتية » مع أنهم لا يعتبرون أنفسهم من الصربيين أو من الكرواتيين الذين يحاربونهم ويحاولون القضاء عليهم منذ شهور تحت سمع وبصر العالم أجمع .

فى الإطار اليوغسلافى . ومع هذا ، ففى هذا الكتاب فقرة كبيرة قد يصعب تفسيره. فالمؤلف كما ذكرنا ، قد اهتم كثيرا بظاهرة انتشار الحروف العربية لدى غير العرب ، ولاحق هذه الظاهرة فى أرجاء آسيا وأفريقيا ، بينما أغفل البلقان تماما ! ففى هذا الكتاب لا يشير المؤلف أبدا إلى انتشار الحروف العربية فى اليونان وبلغاريا الخ . والأغرب من هذا أن المؤلف لا يتعرض إلى هذه الظاهرة حتى فى بقية أرجاء يوغسلافيا ، بل اكتفى فقط بمحيطه البوسنوى وهذا فى الواقع ، يعبر عن ظاهرة عدم الاحاطة بالقضية ككل ، وكأن بقية يوغسلافيا جرداء من الإسلام ومن معالم الحضارة العربية الإسلامية [(١)] ، مع أن عدد المسلمين فى الجنوب يفوق عددهم فى البوسنة ، بالإضافة إلى أن القاعدة الحضارية الإسلامية المتمثلة فى الجوامع والمدارس الخ بدأت فى جنوب يوغسلافيا باعتراف الدكتور مفتيش نفسه . فالمؤلف قد تناسى فى كتابه أهم تجربة لاستعمال الحروف العربية في البلقان ، إلا وهى التجربة الألبانية ، التى استمرت طيلة النصف الأول للقرن العشرين فى جنوب يوغسلافيا ، مما يثير فعلا دهشة قارئ هذا الكتاب فى يوغسلافيا .

كتاب مختارات من الأدب البوسنوى :

الكتاب الثانى الذى نتعرض له لباحث مسلم آخر من البوسنة هو الدكتور عبد الرحمن ناميتاك . وقد صدر كتابه « مختارات من الأدب البوسنوى العجمى » [(٢)] فى اللغة الصربوكراوتية أيضا فى سراييفو سنة ١٩٨١م ، أى قبل سنة من صدور الكتاب الأول . وربما يبدو هذا العنوان مثيرا للقارئ طالما أن الكتاب يعرض لأدب المسلمين فى البوسنة ، وبالتحديد الأدب الذى كتب بالحروف العربية . وفى الواقع أن تعبير alhamijado الخميادو الوارد فى عنوان هذا الكتاب برز أولا عند الأسبانيين aljamiado (العجمي) للدلالة على أدب الأسبانيين المسلمين الذين كانوا يكتبونه بالحروف العربية ، ومن ثم انتشر هذا التعبير فى الاستشراق الأوروبى للاشارة إلى الأدب غير العربى الذى كان يكتب بالحروف العربية .

كتاب الدكتور عبد الرحمن يحتوى على (٣٥٠) صفحة ، ويتألف من مقدمة طويلة ومن مختارات شعرية ونثرية من التراث الأدبى للمسلمين فى البوسنة

---

(١) حول هذا الموضوع لدينا فى اللغة العربية عينة نمطية من هذه الرؤية الأحادية : غانم سلطان أمان - يوسف محمد الغانم ، المسلمون فى يوغسلافيا ، الكويت ١٩٧٢ .

(٢) Dr. Abdurahman Nametak, Hrestomatia bosansko alhamijado knjizevnosti, Svjetlost, saraajevo 1981.

الذى كتب باللغة المحلية وبالحروف العربية . وفى مقدمة هذا الكتاب يتعرض المؤلف إلى أهم المسائل التى تثار فى تجربة البوسنويين فى كتابة لغتهم وأدبهم بالحروف العربية وفيما يلى سنتعرض لأهم هذه المسائل كما وردت في هذه المقدمة .

ينطلق المؤلف من بداية هذه التجربة فى أسبانيا ، ثم انتقالها وانتشارها فى أوروبا الجنوبية الشرقية ، وفى اليونان وألبانيا وبولونيا وروسيا البيضاء ، وفي البوسنة بطبيعة الحال ، حيث بدأت هذه التجربة منذ نهاية القرن السادس عشر على الأقل . فأقدم نص فى اللغة الصربوكراوتية بالحروف العربية يعود إلى سنة ١٥٨٨ - ١٥٨٩م ، وهو عبارة عن قصيدة لشاعر يسمى محمد الأرديلى . وبعد عدة قرون من تطور هذه التجربة حصلت مطبعة سراييفو فى بداية هذا القرن على الحروف العربية اللازمة ، ودخلت هذه التجربة فى طور آخر مهم . ويذكر المؤلف أنه قد صدر عن هذه المطبعة حوالى خمسين كتابا ، بينما كان الدكتور مفتيش فى الكتاب السابق قد خفض هذا الرقم إلى حوالى أربعين كتابا . وحول هذا يضيف المؤلف أن آخر كتاب قد صدر فى سراييفو بالحروف العربية كان « فقه العبادات » لمحمد سعيد سردار فيتش Muhamed Serdarevic بينما أعيد طباعة المولد البوسنوى للحافظ صالح غاشيفتش Salih Gasevic فى السنة اللاحقة (١٩٤٢م) . وخلال هذه القرون (من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن العشرين) . نشأ وتطور الأدب البوسنوى بالحروف العربية ، حيث كانت أبجدية غالبية البوسنويين المسلمين حتى مطلع هذا القرن، حتى أن ٩٠٪ من هؤلاء كانوا لايعرفون أية أبجدية أخرى باستثناء العربية.

هل هذا أدب هجين ؟

ومن أهم المسائل التى يتعرض لها المؤلف مسألة الموقف من هذا الأدب الذى يزدريه البعض على اعتبار أنه « أدب هجين » أى غير أصيل ، ولا يتضمن أعمالا إبداعية . والمؤلف يرفض محاكمة هذا الأدب على اعتبار أنه « أدب هجين » وذلك لكونه قد كتب بـ « أبجدية غريبة » لأن الأبجدية اللاتينية هي « غريبه » أيضا على السلاف الجنوبيين . وفى الواقع ، أن مسألة الأبجدية قد ارتبطت بشكل دقيق بالدين ، فالسلاف الجنوبيون ، وبالتحديد الصربيون والكرواتيون ، لم تكن لهم أبجدية خاصة بهم حين قدومهم إلى البلقان خلال القرنين السادس والسابع الميلادى وفيما بعد توزعت اللغة الصربوكراوتية إلى عدة أبجديات ، حسب الانقسام الدينى فالصربيون الأرذودكس أخذوا وحافظوا إلى الآن على أبجدية متطورة عن اليونانية ، بينما تعصب

الكرواتيون الكاثوليك للأبجدية اللاتينية ، وفى هذه الحالة لجأ المسلمون ، وهم خليط من الصربيين والكرواتيين ، إلى الأبجدية العربية لتمييز أنفسهم عن الآخرين .

ومن ناحية أخرى ، يدافع المؤلف عن هذا الأدب البوسنوى بالحروف العربية فى وجه من يتهمه بافتقاره إلى الابداع . وعلى العكس من هذا يرى المؤلف أن ما تم جمعه من نصوص أدبية بوسنوية فى الحروف العربية تدل بوضوح ، بل وتفاجئ المرء بغناها وتنوعها سواء من ناحية الموضوع أو من ناحية الشكل . فمن ناحية الموضوع تكشف هذه النصوص عن تنوع مثير فى موضوعاتها (التغنى بالحب ، والتعبير عن الهموم الذاتية والاجتماعية والسياسية الخ . بالإضافة إلى الموضوعات الدينية) . ومن ناحية الشكل تتميز هذه النصوص بتنوعها الفنى كاستعمال الحوار فى الشعر ، وتنويع البحور الشعرية فى القصائد بالإضافة إلى إبداع القصائد الطويلة ومن هذا يخلص المؤلف إلى أن هذا الأدب البوسنوى بالحروف العربية لا يمكن اعتباره أدبا فقيرا، كما يزعم الذين يزدرونه ، بل أنه أدب غنى يشتمل على كل الموضوعات التى تثير الوجدان .

فى الصفحات اللاحقة من المقدمة يتوسع المؤلف فى الحديث عن الموضوعات العاطفية والواقعية لهذا الأدب ، وخاصة فى الشعر ، ويبدو بوضوح أن المؤلف قد توسع فى الحديث حول هذا ليصل إلى نفى تهمة أخرى وأساسية ضد هذا الأدب المكتوب بالحروف العربية ، الذى يتهمه بأنه لايخرج عن إطار الإسلام . ويرى المؤلف أنه من الخطأ استثناء قصائد الحب من هذا الأدب واعتبار كل الشعر البوسنوى تحت تأثير الدين الإسلامى الذى لم يستطع أن يتخلص منه هذا الشعر . وفى الواقع أن المؤلف لاينفى تأثير الإسلام فى هذا الشعر ولم يتجاهل فى عرضه الأشعار الدينية ، بل يرفض ازدراء هذا الشعر بحجة تأثير الدين مما يجعله بالتالى يفتقد إلى الإبداعات الفنية .

الأدب البوسنوى والوجود العثمانى :

وفى نهاية المقدمة يتناول المؤلف مسألة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، ألا وهى العلاقة بين هذا الأدب على اعتباره « حصيلة الاستعمار العثمانى » في البوسنة . ويرى المؤلف هنا أن هذا الأدب لم يتلاشى مع تخلى العثمانيين عن البوسنة سنة ١٨٧٨م ، بل أنه قد تطور أكثر فى عهد الإدارة النمساوية للبوسنة ١٨٧٨ - ١٩١٨م . ويعود هذا التطور فى رأى المؤلف إلى تطور الحروف العربية لدى مسلمى

البوسنة ، بما أدخل عليها من تعديلات تناسب لغة المسلمين فيها ، وإلى دور المطابع التي أخذت تنشر الكتب والمجلات بالحروف العربية . وقد استمر هذا الوضع كما رأينا سابقا ، حتى بداية الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد حتى سنوات ١٩٤١ - ١٩٤٢ ، حين طبع آخر كتابين بالحروف العربية .

بعد هذه المقدمة تأتي النصوص الأدبية الشعرية والنثرية ، التى تحتل معظم صفحات هذا الكتاب . وهذه النصوص تؤكد فى الواقع ما ذهب إليه المؤلف فى المقدمة، إذ أنها تكشف فعلا عن أصالة هذا الأدب البوسنوى بالحروف العربية وعن تنوع موضوعاته وتنوع مستواه الفنى ، إذ أنه فى نهاية الأمر نتاج شعب عبر عدة قرون ، ويجب أن يعامل على هذا الأساس دون ازدراء أو دون تعصب له . وفي الحقيقة أن أهمية هذه النصوص تكمن فى أنها مادة غنية للباحثين فى الأدب المقارن بشكل عام ، أو في الأدب الإسلامي وذلك بمعناه الحضارى .

ج - أثر العرب فى إنجلترا فى العصور الوسطى :

مما لاشك فيه أن اللغات الحضارية متعددة وهى تتبع مراكز القوة فى العالم حيث تقوم الصناعات الكبرى وتعيش الكثافة السكانية وتتركز قوى التأثير فى سياسة العالم وفى اقتصاده وأنظمته ، وفى اتجاهاته الفكرية والإعلامية . وفى هذا الصدد نذكر اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية وغيرها ، لكن الإنجليزية تتقدم بلا منافس بين هذه اللغات حتى أصبحت اللغة العالمية الأولى ، وكل ما يجرى على هذا الكوكب يجد تسجيله فى هذه اللغة ، إلا أنه من الثابت الآن لدى العلماء أن أثر العرب فى أوروبا مع بدايات عصر النهضة كان أعمق وأوسع عن طريق صقلية والأندلس منه عن طريق إقامة الصليبيين فى الشرق نحو قرنين من الزمان . ولهذا نبدأ بالإشارة إلى صقلية وأثرها على انجلترا تحت حكمهم ومن أوضح الأمثلة علي ذلك أن رئيس ديوان الملك روجر كان إنجليزيا وهو « أدلارد » من أهل مدينة باث ، وهو الذى ترجم « الأسطرلاب » عن **الخوارزمى** . ومن زملائه فى بلاط الملك « روجر » الجغرافى العربى « الإدريسى »[1] . ولعل ما أورده الإدريسى فى كتابه عن الجزر البريطانية مستمد من أدلارد . وحديث الأسطرلاب مهم لأثره فى كتابة الشاعر

(١) الإدريسى (١١٠٠ - ١١٦٦م) جغرافى عربى ألف كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وأهداه إلى الملك روجر الثانى عام ١١٤٥م الذى استدعاه لرسم خريطة للعالم وقد وضعها على كرة من الفضة . سيأتى ذكره تفصيلا فى فصل اسهامات العرب الجغرافية .

تشوسر وخاصة فى قصة « السيد » .

ومن معاصرى « أدلارد » يهودى متنصر اسمه بطرس الفونسو تعلم فى الأندلس فى محيط إسلامى ثم أصبح طبيبا للملك هنرى الأول وعلّم هنرى الثانى . وقد ألف الفونسو كتاب نصائح وحكم استمده من أصول عربية . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية ، واستفاد منه تشوسر فى قصة « التاجر » .

وعاصر هؤلاء عالم ثالث هو « روبرت » من أهل « كتن » وهو الذى ترجم القرآن [1] وكتاب الجبر للخوارزمى إلى اللاتينية . والمهم أن هؤلاء العلماء وأمثالهم اعتبروا العرب أساتذتهم فى العلم والفلسفة . وهذا أحدهم يقرر بعد زيارة باريس فى طريقه إلى طليطلة بالأندلس حقيقة ذلك . قال أنه وجد فى الأولى (باريس) حيوانات تجلس على كراسى الأساتذة ، ووجد فى الثانية « أحكم فلاسفة العالم » .

والتاريخ يثبت صحة هذه المقولة إذ صادف العرب الفاتحون فى الشرق أمما لها حضارة فى العلوم والآداب ، فأسرع العرب فى ترجمتها وصوغها فى قالب جديد. أما العرب الذين فتحوا الأندلس فصادفوا أمما لاتقاس حضارتها بحضارة الأمم الشرقية . وهذا المستشرق « دوزى» Dosy فى القرن الماضى يثبت ذلك تفصيلا ، فيبين أن التسامح الإسلامى سهل امتزاج الفاتحين بأهل البلاد . ونشوء حضارة عربية إسلامية شارك فيها العرب والأسبان من نصارى ويهود مشاركة تامة جعلت مطران « قرطبة » ينعى طغيان الجديد على القديم وإقبال الأسبان على الكتب العربية فى الفلسفة والأدب والدين وتباريهم فى إتقان اللغة العربية والكتابة بها فقال : « أين نجد اليوم من يفهم الإنجيل باللاتينية من غير رجال الدين ؟ وأين نجد من يدرس الأناجيل ؟ كل النابهين من شبان النصارى لا يقبلون إلا على اللغة العربية وعلى ما كتبه العرب ، يقرأون كتبهم بكل جد وعناية وينفقون أموالا طائلة لشراء كتبهم وحفظها فى مكتباتهم ، ويفتخرون بأنهم لا يهتمون بالكتب النصرانية بل يقولون إنها لا تستحق عنايتهم . ويضيف قائلا : « والنتيجة أن النصارى

(١) اشترك اثنان فى ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية لأول مرة عام ١١٤٢م هما روبرت شستر الانجليزى Robert chester ، وهرميان الدلباشى . وكانت ترجمتهما للقرآن استجابة بطلب بطرس الوقور رئيس دير كلومن واستعانا فيها باثنين من العرب . ثم ترجمة المستشرق الألمانى مرجرلين Mergerlin وكان قد سبقه القس الجزوينى ماراتشى Maracci عام ١٦٩٨ في الترجمة والطبع راجع عبد الرحمن صدقى : الشرق والإسلام . ١٩٦٨ ص .

قد نسوا لغتهم حتى أننا لانجد بين الألوف من يستطيع كتابة رسالة لصديق باللغة اللاتينية ، مع أن الكثيرين منهم يحسنون الكتابة باللغة العربية ، وينظمون الشعر ، ويبارون العرب أنفسهم فى هذا الميدان . » [١].

ولابد من ذكر روجر بيكون [٢] R. Bacon الذى أدخل ترجمة كتب أرسطو المنقولة عن العربية مع شروح ابن سينا وابن رشد إلى معاهد العلم . فأصدرت السلطات الدينية فى فرنسا أمراً يمنع تداولها ولكن دون جدوى ، وروجر بيكون هذا كان تحت تأثير كتاب « سر الأسرار » المنسوب إلى أرسطو والذى ترجمه إلى العربية يحيى بن البطريق النسطورى ثم ترجم إلى اللاتينية وإلى اللغات المحلية فى أوروبا.

والغريب أن الإقبال على علوم العرب وآدابهم كان فى محيط مشبع بالعداء الدينى ومغذى بصور خاطئة عن الإسلام ومحمد ﷺ . ولم يتغير ذلك حتى بعد ترجمة القرآن وقصة المعراج . وهذه القصة كما أثبت أسين بلاسيوس أستاذ اللغة العربية في جامعة مدريد كان لها الأثر الفعال فى الشاعر الايطالى « دانتى » [٣] Dante Alighieri (١٢٦٥ - ١٣٢١م) . ومن مخطوطات قصة المعراج نسخة موجودة فى مكتبة البودليان فى أكسفورد ، اعتبرها الباحثون ذات أثر عظيم فى الأدب الإنجليزى . وشاركتها فى ذلك قصة «حى بن يقظان » لابن طفيل لكونها نموذجا لقصة « روبنسون كروزو » . فيما بعد وكما سبق أن ذكرنا . خلاصة القول أن أهم دوافع الاهتمام بالعلوم العربية فى أوروبا اللاتينية عامة وإنجلترا خاصة كان دينيا ، ليس لمجرد الفهم بل للرد والنقض ، ولكن التاريخ يثبت أنه لايمكن نقل المبادئ الدينية أو الفلسفية أو الأدبية من ثقافة إلى ثقافة أخرى دون أن يترك ذلك أثرا فى الناقل

---

(١) Dosy : Histoire des Musulmans d'Espagne 1861 p. 161

(٢) روجر بيكون : (١٢١٤ - ١٢٩٢) ولد فى إنجلترا . . وعاش فى اكسفورد وباريس . . فى الفترة التى تمثل فيها الغرب العلم والفلسفة العربيين واليونانيين . ومن مؤلفاته الكتاب الكبير والكتاب الصغير . والكتاب الثالث وجميعها فى مهمة إصلاح تدريس الحكمة المسيحية .
راجع : فؤاد كامل وآخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة دار القلم مكتبة النهضة بيروت ص ١٤٥.

(٣) أما دانتى فقد تأكد أنه تأثر بالثقافة الإسلامية عامة . وأنه مدين فيما كتبه فى قصته الكوميديا الإلهية Divina Commedia بأثرين من آثار الفكر الإسلامى العربى . وهما رسالة الغفران وكتب محيى الدين العربى فى كتابه الفتوحات المكية . وأن سورة الأعراف فى القرآن الكريم قد أمدته في تفاصيلها بفكرة جهنم والمطهر والصراط والمحشر .
راجع : الأب آسين بلاسيوس : الإسلام والرواية الالهية . بمجلة المقتطف يونيو ١٩٢٨ .

أراد ذلك أم لم يرده . فإذا كانت أوروبا قد استطاعت فى النهاية رد الجيوش الإسلامية عن قلبها الجغرافى ، فإنها عجزت عن رد أثر الثقافة العربية عن جامعاتها وعلمائها وأدبائها حيث طبيعة الانسان ترتبط دوما بالتواصل الحضارى .

المفردات العربية فى اللغة الإنجليزية :

ما من أحد ينكر تواصل الحضارات وامتزاج الآداب المختلفة واحتكاكها ببعض مما يغنى تلك الأداب ويوسع آفاق التفكير وينوع مصادر الإيحاء ، وكذلك قل عن اللغات وتفاعلها ، الأمر الذى وقع بين اللغتين الإنجليزية والعربية . فالعلاقات الطويلة بين العالم العربى وإنجلترا فى عالمى الثقافة والتجارة لم تجعل الأدبين الإنجليزى والعربى يتماسكان تماسكا مباشرا فى كثير من النقاط فحسب ، بل كان من شأنها إدخال مفردات عربية كثيرة إلى اللغة الإنجليزية سبق ذكرها .

ومن الجدير بالذكر أن اللغة العربية أغنت اللغة الإنجليزية بأكبر عدد من المفردات تستعيرها من اللغات الشرقية ، رغم أن نسبة كبيرة منها لم تدخل اللغة الإنجليزية بطريقة مباشرة ، فمن تلك المفردات التى ظهرت فى اللغة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر قسم تسرب إليها عن طريق الفرنسية وقسم عن طريق الأسبانية . وقد عملت التجارة الناشطة مع دول المشرق على تزايد احتكاك الإنجليز مع الشعوب الناطقة بالعربية فى شمال أفريقيا فى خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر

ويبدو أن أولى المفردات العربية التى دخلت الإنجليزية هى كلمة (منكوس mancus) القديمة ، وهى اسم قطعة نقود ذهبية ، ومعناها بالعربية ما سُكَّ من النقود ، وربما وردت من فرنسا أو أسبانيا . ففي هذا الزمن كانت للعرب اليد الطولى فى أسبانيا وجنوب فرنسا ، ومن دلائل تأثر إنجلترا بالنقود العربية وجود بعض النقود فى إنجلترا التى سكت فى القرن الثامن تحمل نقوشا عربية ، ورغم أن كلمة منكوس قد وردت فى الوثائق الإنجليزية خصوصا الوثائق القانونية منذ أواخر القرن الثامن إلا أن الكلمة قد اختفت بعد عهد الفتح النورماندى فى القرن الحادى عشر [١] .

وقد دخلت كلمات عربية اللغة الإنجليزية فى أعقاب القرن الثانى عشر ، فكلمة (سافرون saffron) نجدها فى سجلات كلية ترينتى باكسفورد حوالى عام ١٢٠٠م ، وهى كلمة مأخوذة عن الفرنسية القديمة (سافران) ومن العربية (زعفران).

---

(١) حسن الشافعى : العملة وتاريخها - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨. ص ١٣ .

أما كلمة (أدميرال admiral) فقد وجدت بمعنى أمير فى مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٤٢٣م ، وهى كلمة مركبة من (أمير البحر) وقد بدئ فى استعمالها بهذا المعنى منذ عام ١٤٦٠م .

وترتبط كثير من الكلمات المستعارة بالعلوم خصوصا الرياضيات التى أجاد العرب فيها ايما اجادة . فكلمة (الجورزم algorism) القديمة التى كانت تستعمل بدل «الحساب» تعود إلى الرياضى العربى المشهور الخوارزمى المتوفى عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م. أما الكلمات التى دخلت الإنجليزية فى القرن الرابع عشر فتشمل كلمة (دراجومان dragoman) التى حرفت عن كلمة ترجمان العربية ، وقد وردت عن طريق اللغة الفرنسية القديمة . أما كلمة (كامفور camphor) فقد جاءت عن طريق الفرنسية التى اقتبستها بدورها عن الكلمة العربية كافور . أما كلمة (henna) أى الحناء ، فقد استعيرت دون أداة التعريف العربية بعكس كلمة (alchemy الكيمياء) التى وإن كان أصلها يونانيا فقد استعارتها الإنجليزية بأداة التعريف عن طريق اللاتينية المتوسطة والفرنسية القديمة . أما كلمة (قطن cotton) فقد وجدت طريقها إلى الإنجليزية عن طريق الفرنسية التى أخذتها بدورها عن الأسبانية التى أخذتها عن العربية . وهناك كلمات عربية دخلت الإنجليزية واستبقت أداة التعريف مثل (القلويات alkali) أما غيرها فقد فقدتها وأجريت عليها تغييرات رئيسية .

ومما هو جدير بالملاحظة أن جميع هذه الكلمات التى ترجع إلي القرن الرابع عشر ، علمية أو تجارية . ويقال الشيء نفسه عن الكلمات العربية التى دخلت الإنجليزية فى القرن الخامس عشر . نبدأ بكلمات لها صبغة دينية ، فمن المفردات الواردة فى رحلات مانديفل وهو الكتاب الذى كتب حوالى عام ١٤٠٠م ، نري كلمات مثل (القرآن koran) . ومؤذن muezzin ، وبدوى beduin ، وليمون lemon وسُمَاك sumac) التي اقتبست من الفرنسية ثم الأسبانية عن العربية (سماق). وفي حوالي عام ١٤٣٠م نرى كلمة (مارافيدى maravedi) وهى اسم عملة تشير فى الأسبانية إلى المرابطين وهى السلالة التى حكمت أسبانيا ردحا من الزمن .

ونجد فى القرن السادس عشر أدلة كثيرة على العلاقات المباشرة بين إنجلترا وشمال إفريقيا والمشرق ، فهناك مفردات تدل على أشخاص شرقيين وأخرى تدل على الرتب ، كما أن هناك أسماء حيوانات ومنتجات من مصر وشمال أفريقيا . ولئن كانت بعض الكلمات فى هذا العصر لا تزال ترد إلى الإنجليزية عن طريق الفرنسية أو

الأسبانية وحتي الإيطالية، إلا أن كثيراً منها تعلمها المسافرون الإنجليز رأساً من العرب . ففي عام ١٥٠٩م دخلت اللغة الإنجليزية كلمة (rebec) وهى الالة الموسيقية المعروفة بالربابة. وقد قلت نسبة دخول المصطلحات العلمية الآن، ولكنا نجد من جملتها كلمة (algebra) وهى مقتبسة من الإيطالية ومن العربية « الجبر » والمعني الحرفى لها « التجبير » وكان الكاتب (كوبلاند) أول من استعملها عام ١٥٤١م . ودخلت فى هذه الحقبة كلمة (arsenal) من (دار الصناعة)، وأول ذكر لها كان عام ١٥٠٦م بمعني مرسى. أما كلمة (calibre) فقد اقتبسها الإنجليز عن الفرنسيين الذين استعاروها بدورهم عن الكلمة العربية (قالب).

ومن المصطلحات التجارية التي اقتبستها الإنجليز فى هذه الفترة عن العربية كلمة (carat) أى قيراط، وهو وزن للأحجار الكريمة أو عيار الذهب . وكلمة (jar) عن الفرنسية فالأسبانية فالعربية (جرة). أما كلمة (artechoke) فهي مأخوذة عن الكلمة العربية الخرشوف، وما كلمة (tamarind) سوي تمر هندى. ودخلت فى القرن السابع عشر استعارات كثيرة. تمثل طراز الحياة الشرقية وعاداتها وبيئاتها ، ومن جملتها كلمة (sirocco) التي دخلت الإنجليزية عام ١٦١٧م عن طريق اللغة الإيطالية التى أخذتها بدورها عن العربية من كلمة شرق . أما « ريح الخماسين » فقد دخلت الإنجليزية فى أواخر هذه الفترة . أما فى القرن الثامن عشر فقد دخلت كلمات أقل عددا ومعظمها متعلقة بالنبات والحيوان والأقمشة والناس . ومن جملتها كلمتا فلاح وغول . وقلت هذه الكلمات فى القرن التاسع عشر عما سبقه ومن جملتها كلمات عفريت ، ووادى ، وجهاد .

هذا قليل جدا من كثير المفردات العربية الموجود فى اللغة الإنجليزية بعضها بقى على ما هو عليه بقضه وقضيضه مما يسهل التعرف إليها ، وبعضها أدخلت يد الزمن عليها تغييرات جوهرية كادت أن تنسينا أن هذه الكلمات هى عربية الأصول .

من رواد الأدب والقصة عند العرب

(١) ابن المقفع

(ولد نحو ١٠٦هـ - توفى نحو ١٤٢هـ) (٧٢٤ - ٧٥٩)

حياته : هو عبد الله ابن المقفع كاتب عربي فارسى الأصل . وكان "المبارك" والده من مدينة " جور " في بلاد فارس ، تولى بعض أعمال الخراج " للحجاج الثقفى " أيام إمارته علي العراق وبلاد المشرق ، فمد يده - فيما قيل - إلى

أموال السلطان ، فضربه "الحجاج" ضربا مبرحا حتى تقفعت يده ، فسمى بـ "المقفع" . وهناك رواية أخرى تقول أنه " المقفع " لأنه كان يعمل " القِفَاع " ويبيعها ، والرواية الأولى هى المشهورة بين العلماء . وكل ما عرف عنه أن حياته مرحلتان :

١ - **مرحلة أموية** : دامت نحوا من خمس وعشرين سنة ،وهى مرحلة التحصيل والتأمل والمراقبة .

٢ - **مرحلة عباسية** : دامت نحوا من عشر سنوات ، وهى مرحلة الإنتاج الفكري .

والأرجح أنه كان فى فارس إلي جانب أبيه ، يسعى فى تحصيل الثقافة الفارسية ، ثم توطن والده " البصرة " ، وكانت مجمع رجال العلم والأدب ، وفيها منتدي الأدباء والشعراء بعد أن أصبح " عبد الله " يافعا .

كان " ابن المقفع " يتعصب للعرب ، ويعتقد أن أعجب الشعر هو ما صدر من غلام بدوي لم ير ريفا ، ولم يشبع من طعام ، بل يأوى إلى القفر ويتبع اليرابيع والظباء . وهكذا تعلم العربية وتدرب على أساليب الفصاحة والبلاغة ، واجتمع له عاملان هامان : عامل الثقافة الفارسية ، وفيها ثقافة اليونان والهنود . وعامل الفصاحة العربية . فقابل الدنيا بسلاحين قويين : سلاح الفكر ، وسلاح اللسان ، وما هو إلا زمن قصير حتي أصبح للشاب الفارسى صيت فى العلم والفصاحة . وكان الأمويون من أشد الناس التجاء إلى الموالى ، فلجأوا إلى " ابن المقفع " ، فكتب إلى " عمر بن هبيرة " فى دواوينه ، ثم كتب من بعده إلى ابنه الآخر " داود " . ولما قامت الدولة العباسية كتب إلى " عيسى بن على " ابن عم " المنصور " وعلى يديه أسلم ، وتسمى " عبد الله " واستمر يعمل عنده .

وهكذا شهد " ابن المقفع " عن كثب كيف انهارت الدولة الأموية ، وعرف كيف تتقلب الأيام وتدول الدول.وقد ساهم " ابن المقفع " فى النهضة الثقافية فى عصره حتى سعى الوشاة لدى الخليفة ضده ، فانقلب عليه وقتله فى نهاية الأمر .

عاش " ابن المقفع " عيشة موسرة مترفة ، فلم يكن يشكو الفقر ولم يذق لوعة الحرمان ، ولذلك انعكست هذه الصفات على حياته وأخلاقه . وقد قال فيه من ترجموا له : "إنه كان سريا سخيا ، يطعم الطعام . ويتسع علي كل من احتاج إليه". وقالوا : " انه لم يبق في الإسلام من أهل فارس شريف يذكر إلا أن يكون " عبد الله بن المقفع " و "الفضل بن سهل". وقد كان "ابن المقفع" يبذل ما له لمن يحتاج إليه،

ويحرص علي الصداقة ، ويتجافى عن الحسد والرياء ، ويتمتع بمباهج الحياة ، ويرسل النفس علي سجيتها بين إخوانه . ومما روى فى ذلك : أنه بلغ " ابن المقفع " أن جاراً له يبيع دارا له لدين ركبه ، وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ماقمت إذن بحرمة ظل داره إذا باعها معدما وبت واجداً " ، فحمل إليه ثمن الدار ، وقال : " لاتبع " .

وقيل أنه لما قتل " مروان بن محمد " ، آخر خلفاء بنى أمية ، استخفى " عبد الحميد ابن يحيى " و " عمارة بن حمزة " فعثر عليهما فى الجزيرة عند " ابن المقفع " وكان صديقا لهما ، وفاجأهما حرس السلطان وهما في بيته ، فقال الذين دخلوا : " أيكما عبد الحميد ؟ " فقال كل واحد منهما : " أنا " ، خوفا على صاحبه ، إلى أن عرف " عبد الحميد " . وهذه القصة تدل دلالة واضحة علي أن " ابن المقفع " كان رجلا يغيث الملهوف ، وينقذ المكروب ، ويضحى بروحه ، فى أحرج الأوقات وأعتم المواقف ، من أجل أصدقائه .

وكذلك كان " ابن المقفع " رقيق النفس ، والعواطف ، يلبس لكل حالة لبوسها ، ومما يدل على ذلك أنه دعى ذات يوم إلى مائدة " عيسى ابن على " للغداء " ، فقال: " أعز الله الأمير ، لست اليوم للكرام أكيلا " . فقال له : ولِمَ ؟ قال : " لأنى مزكوم، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة لعشرة الأحرار " . وهذا يدل على أنه لم يكن يحب أن يكون ثقيلا على مضيفيه ، منفرا لهم ، مسببا للسخط عليه ، وهذه سمة كل أديب مرهف الحس . كما كان يعشق الجمال ، يهوي الطرب ، وهكذا اجتمعت له صفات قلما تجتمع في إنسان واحد ، بل إنه يكفي بعض تلك الصفات لكي تجعل من الشخص رجلا مثاليا ، فما بالك بكل الصفات وقد اجتمعت في " ابن المقفع " ؟

جمع هذا العصر بين الإيمان والزندقة ، وبين الترف والفقر ، وبين الأبهة والجلال والمسكنة والذلة فكانت المتناقضات ، فبينما شعراء يتغنون بذكر الخمر ، نجد شعراء آخرين تبتلوا ، وتعبدوا وذكروا الله ، وتنسكوا ، واعتقدو أن كل نعيم في الحياة زائل ، وأنهم لابد وأن يصبروا ، ويصابروا ، ويترفعوا عن ملذات الحياة ونعيمها ، وينظموا الشعر فى الزهد والورع والنسك .

أسلوبه : يعتبر " ابن المقفع " من أئمة الناقلين من الآداب الأجنبية إلى الأدب العربى تأكيداً لقضية التواصل الحضارى . ورغم أن ثقافته الأجنبية كانت تسيطر على عقليته وشخصيته سيطرة ملحوظة . فإنه حاول أن يكتب بلسان عربى مبين . وكانت له فى البلاغة آراء قيمة ، وكان يقول لأحد أتباعه : " إياك والتتبع لحوشى الكلام

طمعا في نيل البلاغة فإن ذلك هو العمى الأكبر " .

وقال آخر : " عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة : . وقال : " البلاغة إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها " . وهذا التعبير الأخير يساير الرأي الحديث بأن البلاغة هى الكلام السهل الممتنع الذى يتصور الإنسان أنه يستطيع أن يأتي بمثله ، ولكنه لا يقدر على ذلك إذا أمسك القلم وحاول أن يسطر أفكاره . وكان يقول : " إن خير الآدب ما حصل لك ثمره ، وبان عليك أثره " . وسئل : ما البلاغة ؟ فقال : " اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة : فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون فى الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطبا ، ومنها ما يكون رسائل ... والإشارة إلى المعنى والإيجاز ، هو البلاغة " . وكان ينصح الكتاب بأن يلبسوا لكل حال لبوسها فلكل ، مقام مقال ، ولكل مقال مقام ، أو نحو ذلك ، ويقول : رضى الناس شئ لا ينال " .

ولم يكن " ابن المقفع " يتعمد السجع تعمدا فى أسلوبه ، انما كان يلجأ إليه ليحلى كلامه ويزين أسلوبه دون أن يشوه المعنى ، ويفسد الغرض المطلوب من الفكرة . وكان يتوخى اختيار الألفاظ العربية الفصيحة ، حتي لا يكون غير ذلك مدعاة إلي الطعن فى كتابته وأدبه ، ولذلك كان أسلوبه يجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز ويكفى أن صاحب " الفهرست " عدّه من البلغاء العشرة الأول الذين يقومون على رأس أدباء العصر العباسي وكتابه .

والواضح أن " ابن المقفع " كان يتعب فى صنعته كثيرا ، كما يقول الدكتور شوقى ضيف ، ومن ذلك أنه كان يقف كثيرا إذا كتب ،فقيل له فى ذلك فقال : " إن الكلام يزدحم فى صدرى فأقف لتخيره " . ولم يغفل العنصر الإسلامى الذى يبرز بشكل واضح ملموس فى كل ما يكتب ، حتى أننا نتبين منه أنه كان على إلمام بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف إلي حد ما .

مصنفاته الأدبية

ترجم " ابن المقفع " مجموعة من الكتب الفارسية فى التاريخ والفلسفة ، نذكر منها :

١ - كتاب " خدينامه " أو " خدينامك " ومعناه ، كتاب الملوك ، أو كتاب السادة ،

في تاريخ ملوك الفرس .

٢ - كتاب " آبين نامه " : في عادات الفرس ، ونظم مراسم ملوكهم .

٣ - كتاب " التاج " : فى سيرة " أنوشروان " .

٤ - كتاب " الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة " فى أخبار السادة الصالحين .

٥ - كتاب " مزدك " .

٦ - كتاب " قاطيغورياس " : فى المقالات العشر .

٧ - كتاب " بارى أرمناس " : فى العبادة .

٨ - كتاب " ايسافوجى " أو المدخل " لفورفوريوس الصورى .

٩ - كتاب "انالوطيقا " فى تحليل القياس .

والذى يهمنا كتبه الأدبية الأخرى فى الأدب والاجتماع والسياسة والأخوانيات ، ونذكر منها :

١ - رسالة الصحابة .
٢ - كتاب "الأدب الصغير " .
٣ - كتاب " الأدب الكبير .
٤ - كتاب " كليلة ودمنة " المشهور .

وقد عثر أحد الباحثين الإيرانيين على كتاب جديد لم ينشر بعد فى " آداب تعليم الصغير " وقد بدأه " ابن المقفع " بعبارة " أي ولدي الصغير " واستمر ابن المقفع يردد هذا النداء بين الفقرات وهو بوجه إليه الخطاب ، حتى ينشأ نشأة طيبة ، ويتزود بالثقافة التي تعينه على أن يكون فى المستقبل شابا نافعا ، فرجلا فاضلا . ولنعرض هنا أهم مؤلفاته وترجماته المنقولة فى القصص .

• **كليلة ودمنة** ، [1] نجد فى هذا الكتاب أن " ابن المقفع " قد وضع نهجا قويما إذا اتبعه الحاكم استطاع أن يسير بدقة بلاده نحو الأمام ، ويكفل لرعيته الخير والرخاء والسعادة والهناء : فبين له المواضع التى يشتد فيها إذا احتاج الأمر إلى الشدة ، ووضح له المواقف التى يلجأ فيها إلى اللين إذا احتاج الأمر إلى اللين ، كما طالبه بأن يكون حليما لا يستأثر به الغضب ، ولا تدركه العجلة ، فلا يتنبه إلى عواقب الأمور ، لأن الغضب يغشى العقل بغشاوة كثيفة لا يستطيع معها الإنسان

---

(١) نال هذا الكتاب من الشهرة والذيوع فى مشارق الأرض ومغاربها ما لم ينله كتاب غيره ، ويعد المعلم الأول لكل ذى حكمة وبيان ، وهو هندى الأصل وضعه بيدبا الفيلسوف الهندى ، ولكن الفرس زادو فيه ، وصبغوه صبغة فارسية . وهو النواة التى نشأ من حولها الأدب القصصى عن الحيوان والطير والحشرات . راجع : عيسى ناصر : كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع . تراث الانسانية العدد ٣ المجلد الرابع ص ١٧٩ وما بعدها .

أن يتبين حقائق الأمور واضحة جلية ... فإذا تحلى الملك بهذه الصفات والأخلاق ، تجنب الفوضى أن تدب فى بلاده وطالب الملوك أن يكونوا أصحاب عهد ووفاء : فإذا عاهدوا وفوا بعهدهم ، إذا قالوا صدقوا فى قولهم . **ويقول فى باب الملك والطائر** : " قبحا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ، وويل لمن ابتلى بصحبتهم فإنهم لاحميم لهم ولاحريم ولا يحبون أحداً ، ولا يكرم عليهم إلا أن يطمعوا عنده فى غناء ، فيقربوه عند ذلك ويكرموه ، فإذا قضوا منه حاجتهم فلا ود ولا حافظ ، ولا الاحسان يجزون به ، ولا الذنب يعفون عنه ... الذين إنما أمرهم الفخر والرياء والسمعة ، وكل عظيم من الذنوب يركبونه ، وهو عندهم صغير حقير هين . كما طالب الملك أو السلطان بأن يحسن اختيار معاونيه ، لأنه الرجل ضعيف بمفرده قوى بغيره وبأعوانه ، وكلما كان الذين يلتفون حول الملك أصحاب عقل راجح وسياسة محنكة وفكر ثاقب ، استطاع الملك أن يحكم الناس بالعدل ، وأن يثق فى أن العدالة منتشرة بين ربوع بلاده .

وقد قال فى باب الأسد وابن آوى : " من عُرِفَ بالشراسة ولؤم العند، وقلة الوفاء والشكر ، والبعد عن الورع والرحمة ، والجحود لثواب الآخرة وعقابها ، والحسد وإفراط الشر والحرص ، والسرعة إلى سوء الظن والقطيعة ، والإبطاء عن المعاودة والمراجعة ... فقطعه أحزم للرأى . ومن عرف بالصلاح وكرم العهد ، والشكر والوفاء والمحبة للناس ، والسلامة من الحسد والحقد ، والبعد من الأذى ، والاحتمال للأصحاب والإخوان - وأن ثقلت عليه منهم المؤونة - فهذا حقيق أن تغتنم صحبته وصلته ، ويمتنع من قطيعته . **واحذر من الخلطاء الثمانية : الكفور النعمة الغادر بما يعهد إليه، والذى لا يؤمن بيوم الحساب والثواب والعقاب، والمفرط فى عرضه وهمه وغضبه ، ومن يسخطه اليسير بغير علة ، ومن لا يرضى بشئ وإن كان كثيرا جسيما ، وذو المكر الداهى الغامض مكرا ، واللاهج بالزنا والخمر ، والسئ الظن المتلون المتهجم القليل الحياء** ... كما ينبغى على الملك أن يحسن اختيار رسله ومندوبيه لأنهم هم الذين يتكلمون بلسانه ، ويعبرون عن رأيه ، ويحملون رسالته ، فلا بد أن يكونوا أمناء على الرسالة ، مخلصين على أدائها ، حريصين على المنفعة العامة دون أن يجعلوا الأغراض الشخصية تتدخل فيها . وفي هذا المعنى يقول " ابن المقفع " فى باب البوم والغربان : " فإن الرسول يلين القلب إذا رفق ، ويخشن الصدر إذا خرق " [١] .

(١) المرجع السابق . ص ١٨٧ .

وأشار " ابن المقفع " كذلك فى كتابه إلى آفة من آفات الملوك وأصحاب السلطان كثيرا ما تتمكن من دولة من الدول ، فتنخر فى عظامها ، وتفتت فى كيانها، وتسلمها إلى الضعف والاضمحلال ... ألا وهى استئثار أصحاب السلطان بأقاربهم ومحاسيبهم وأهل خاصتهم ، ليسندوا إليهم أرفع المناصب ، وأعلى المراكز ، مع أن الحكمة تتطلب اختيار الرجل المناسب فى المكان المناسب . ولم يشر "ابن المقفع" صراحة إلي هذا التعبير الذي نستخدمه في حياتنا اليومية فى العصر الحديث ، إنما استخدمه بطريق غير مباشر حين قال فى باب " السائح والصواغ " : " إن الملوك وغيرهم أجدر أن يؤتوا بالخير إلى أهله ، وأن يؤملوا من كان عنده شكوى ، ولا ينظروا إلى أقاربهم وأهل خاصتهم ، لا إلى أشراف الناس وأغنيائهم وذوى القوة منهم، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف إلي أهل الضعف والجهد والفاقة ، فإن الرأى فى ذلك أن يجربوا ويختبروا صغار الناس وعظماءهم فى شكرهم وحفظهم الود ، وفي غدرهم وقلة شكرهم ، ثم يكون عملهم فى ذلك على قدر الذى يبدو لهم " .

وكما رسم « ابن المقفع » الخطوط الرئيسية للحكام وأصحاب السلطان ، رسم الخطوط الرئيسية كذلك فى آداب الأفراد وعلاقاتهم العامة ، وحلل صداقاتهم ، وبحث فى أسباب محبتهم ، والدواعى التى تدفع إلى ارتباط القلوب وتآلف النفوس والعوامل التى تبعث على التنافر بين الناس . ويرى « ابن المقفع » أن الصداقة إما تتناول ذات النفس أو تتناول ذات اليد ، والأولي هى المصافاة ، وهي أفضل من الثانية. وأما رأس المودة فهى الصراحة ، وحسن الثقة بالصديق والأئتناس به . وثلاثة تزداد بها الصلة بين الأصدقاء : المؤاكلة ، والزيارة فى البيت ، ومعرفة الأهل والحشم . كما اعتقد أن المحبة بين الأصدقاء كالإناء من الذهب بطئ الانكسار ، سريع الإعادة إلى أصله إذا أصابه تلف أو كسر . أما المحبة المصطنعة فهى كالإناء من الفخار إذا أدركه أى تلف فهيهات أن يعود إلى أصله الأول . وكان يقول : « لا خير فى العيش بعد فراق الأحبة » .

وإذا فرق بين الأليف وإلفه فقد سلب سروره ، وغشى على بصره . ورسم « ابن المقفع » الفضائل المثلى ، وكان يقول على لسان « برزويه » الحكيم الفارسى : «أفضل الأشياء فى الرجال كتمان السر ، وحفظ ما استودع منه . وإذا ابتلى الرجلان المتحابان دخل بينهما رجل خؤون يفسد بينهما ، وخير للرجل العاقل أن يطرح كلام السفهاء ، ولا يصدق كلام المغرضين ».

وإذا كان « ابن المقفع » يرى أن فضائل الرجل المثالى أن يحافظ على السر ، فان المرأة عند « ابن المقفع » تختلف عن الرجل تماما فى كتاب « كليلة ودمنة » ، لأنها لاتحفظ عهدا ، ولا ترعى ذمة فى أكثر أبواب الكتاب ، والعاقل من لايسترسل إليها ، ومن لا يثق بها ، ومن لا يفشى إليها بسره ، أو يفصح لها عن أمره . وقال فى باب «القرد والغيلم » : « إن الذهب يعرف بالنار ، وأمانة الرجل بالأخذ والعطاء، وقوة الدواب تعرف بالحمل الثقيل ، والنساء ليس لهن شئ يعرفن به » . وقوله فى باب «البوم والغربان » : « قَلَّ من حرص على النساء فلم يفتضح » .

وكان « ابن المقفع » يعتقد أن القناعة كنز لا يفنى ، وأن المال عرض زائل ، ومتاع لا يلبث أن يضيع ، وخير لهؤلاء الذين يجمعونه ألا يدركهم الغرور ، ولا تنالهم العجرفة ، فيتكبروا ويتعجرفوا ، ويسيروا فى الأرض مرحا . ورغم أن المال ضرورة من ضرورات الحياة ، وسبب من أسباب القوة فى بعض أبواب الكتاب ، فإنه على النقيض من ذلك آفة من آفات المجتمع إذا استخدم استخداما سيئا ، وخير الأمور الوسط ، وأحسنها الاعتدال . وفى هذا يتفق « ابن المقفع » مع الفيلسوف اليونانى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م) فى نظرية الاعتدال حيث كان يرى أن الشهامة فضيلة متوسطة بين التهور والجبن ، وأن القناعة فضيلة متوسطة بين السرف والتبذير ، والشح والتقتير [(١)] . وقال فى باب « الحمامة المطوقة » : « وقد جربت وعرفت أنه لا ينبغى لأحد أن يلتمس من الدنيا طلبا فوق الكفاف الذى يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه ، وذلك يسير إذا أعين بسعة يد وسخاء نفس ، وأما ما سوى ذلك ففى مواضعه ليس له منه إلا ما لغيره من حظ العين . ولو أن رجلا وهبت له الدنيا بما فيها لم ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذى يكف به الأذى عن نفسه ، وأما ما سواه ففى مواضعه لا يناله » [(٢)] .

وإلى جانب هذا نجد كثيرا من الأفكار القيمة فى القضاء والقدر ، وأمور الحياة والزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، حتى يستطيع الانسان أن يتبين مكانه من الحياة، وتتضح له معالم الطريق واضحة مشرقة الجنبات ، ولا يكون كمثل الذى يقذف بالحجر فى ظلمة الليل وحلكة الدجى ، ولا يدرى أين وقع الحجر ، ولا ماذا صنع .

---

(١) د. محمد بيصار : الفلسفة اليونانية ، مقدمات ومذاهب . دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٣ . ص ١٤٣ .

(٢) عيسى ناصر : كليلة ودمنة ص ١٨٥ .

ونلاحظ فى كتاب « كليلة ودمنة » أن « ابن المقفع » عندما نقله إلى العربية حاول أن يضفى عليه ما اتسم به أسلوبه من فنية واضحة تجلت فى اختيار اللفظ ، وانتقاء العبارة . ولذلك نجده عندما يترجم هذا الكتاب يستخدم بعض الألفاظ العربية الأصيلة التى تعب الشراح فى شرحها ، والبحث عن مصادرها فى المعاجم اللغوية ، عند ما حاولوا أن ينشروا هذا الكتاب بين النشء . ولكنه مع هذا لم يكن حريصا على اللفظ بقدر حرصه على الفكرة ، ولم يكن متمسكا بالبناء طارحا المعنى وراءه ظهره ، إنما كان يحاول جاهدا أن يعبر عن الفكرة التى يريد أن يعرضها ، أو القصة التى يريد أن يسردها بأقرب سبيل .

فقيمة هذا الكتاب لاتعزى إلى أسلوبه الأدبى الرفيع فقط ، إنما تعزى إلى ما فيه من حكم ونوادر وطرائف ، لا نزال نرددها فى حياتنا اليومية حتى اليوم ، ونقتبس منها فيما يلم بنا من ظروف الحياة . ومن أمثلة ذلك : « وينبغى علي العاقل أن يكون لهواه متهما ، ولايقبل من كل أحد حديثا ، ولا يتمادى في الخطر إذا ظهر له خطره ، ولا يقدم على أمر حتى يتبين له الصواب ، وتتضح له الحقيقة ، ولايكون كالرجل الذى يحيد عن الطريق فيستمر على الضلال ، فلا يزداد فى السير إلا جهدا ، وعن القصد إلا بعدا . . . وكالرجل الذى تقذى عينه فلا يزال يحكها ، وربما كان الحك سببا فى ذهابها » . وقوله :

« المرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة ، ومن لامروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة . وإن الارتفاع إلى المنزلة الرفيعة شديد، والانحطاط منها هينٌ ، كالحجر الثقيل : رفعه من الأرض إلي العاتق عسر ، ووضعه على الأرض هين . والرجل الشديد القوى لايعجزه الحمل الثقيل ، وإن لم تكن عادته الحمل ، والرجل الضعيف لايستقل به وإن كان ذلك من صناعته » .

وهكذا نجد من هذه الأمثلة أن حكمة « كليلة ودمنة » تساير كل زمان ومكان، وقد نقلها « ابن المقفع » إلى العربية فى أسلوب عربى مبين ، لا نزال نجنى قطافه حتى اليوم ، ونستمتع بما فيه من آيات بينات على لسان الطير والحيوان .

والمعروف أن هذا الأسلوب الحوارى الذى لجأ إليه « ا بن المقفع » أسلوب طريف لجأ إليه كثير من الكتاب فى أوربا فى عصر النهضة ، ونذكر منهم الكاتب الفرنسى المعروف « لافونتين » Lafontaine (١٦٢١ - ١٦٩٥) ، الذى كتب خرافاته فى كتابه العيون اليواقظ فى الحكم والأمثال والمواعظ وترجمها له

(عثمان جلال [١] « ١٨٢٨ - ١٨٩٨م ») إلى العربية بالنثر حينا ، وبالشعر حينا آخر وكانت ترجمته حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، وقد أضفى عليها طابعا دينيا أقتبسه من القرآن والحديث الشريف [٢] .

وقد كتب استاذنا الدكتور طه حسين كتابا أطلق عليه « جنة الحيوان » ، وجعل الأسلوب في هذا الكتاب يجرى على لسان ما فيه من حيوان . والواقع أن طه حسين لم يكن يقصد بحديثه حيوانا معينا ، أو نوعا من الطير ، إنما كان يقصد غرضا سياسيا فى نفسه يكمن وراء قصته والحكمة التى نستخلصها منها . وكذلك يمكن أن نقول بالقياس إلى ابن المقفع : فالحرية السياسية لم تكن متوافرة فى زمنه ، وهو بذلك لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقدا صريحا . وكان الخليفة « أبو جعفر المنصور » مشهورا فى ذلك الوقت بالبطش والشدة ، وإعمال السيف فى رأس كل من تحدثه نفسه بخروج عليه ، حتى كان من ضحاياه من قتل بالظنة ، وتذرع المنصور فى قتلهم بالزندقة . وكما ذكرنا كان « ابن المقفع » أحد هؤلاء الضحايا فى نهاية الأمر . فلعله رأى أن موقفه مع « المنصور » يشبه إلى حد بعيد موقف « بيدبا » الفيلسوف الهندى ، مع « دبشليم » الملك ، ووجد بينه وبين « بيدبا » كثيرا من المشابهة التى يمكن أن يجلوها هذا الكتاب ، ويعبر عن دخيلة نفسه .

وقد نظم « أبان اللاحقى » [٣] كتاب « كليلة ودمنة » بالشعر ، ثم نظمه شاعر آخر هو « ابن الهباريه » [٤] في كتاب الفطنة » . ويقول « ابن الهباريه » في ترجمته : « إنها خير من ترجمة « أبان اللاحقى » . وله نظم ثالث اسمه « درر الحكم في أمثال الهنود والعجم » أكمله عبد المؤمن ابن الحسن الصاغاتي . وألف « ابن الهباريه » على غراره كتاب « الصادح والباغم » الذي طبع في بيروت ومصر ، وكذلك ألف «أبو عبد الله محمد بن القاسم القرشى» ، المعروف بابن ظفر المتوفي سنة ٥٩٨م، كتابا بعنوان «سلوان المطاع في عدوان الطباع » علي غرار كتاب « كليلة ودمنة » ، كما ألف « ابن عربشاه » على هذا النسج كتابه « فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء » وكتابه « مرزمان نامه » الذى ترجمه من الفارسية . ويذكر كشف الظنون أن « أبا

---

(١) تصدى محمد عثمان جلال لترجمة حكايات لافونتين والاقتباس منها لإصدار عدد من الحكايات المنظومة تحقق لقارئها متعة ذهنية . راجع د. نفوسة زكريا : خرافات لافونتين فى الأدب العربى. مؤسسة الثقافة ١٩٧٦ .

(٢) د. عبد الفتاح غنيمة : حاجات الطفل للنفس والبدن . دار الفنون . ١٩٩١ ص ١٥٢ .

(٣) أبان بن عبد الحميد اللاحقى .

(٤) أبو يعلى محمد المعروف بابن الهبارية العباسى المتوفى سنة ٥٥٩هـ .

العلاء المعرى » ألف كتابا اسمه «القائف» على مثال كتاب «كليلة ودمنة» ، وهو فى ٦٠ كراسة ، ولم يتم ، وله كتاب آخر يسمى « منار القائف » يتضمن تفسيره فى عشرة كراريس ، وفي كتابات إخوان الصفاء رسالة بين الحيوان والانسان لا تخلو من لون كتاب « كليلة ودمنة » . ويقول « جولد تسيهر » : أن اسم اخوان الصفا قد يكون مقتبسا من كتاب « كليلة ودمنة » ، إذ ورد هذا الاسم فى صدر باب « الحمامة المطوقة » . وقد ألف كثير من الكتاب بعد ذلك كثيرا من القصص على غرار قصص : الأسد والثور ، والبوم والغربان ، والقرد والغليم ، والناسك وابن عرس ، وغيرها من قصص « كليلة ودمنة » .

وهكذا نجد ابن المقفع صاحبه مدرسة أدبية ممتازة - بعد عبد الحميد الكاتب[١] - زعيم المدرسة الأولى فى النثر الفنى عند العرب ، وقد راجت كتبه فى عهده وبعد عهده ، وضربت الأمثال ببلاغته ، وأصبح رمزا من رموز الحكمة والبلاغة وإماما من أئمة النثر ، ومرجعا من مراجع الفكر والاجتماع .

(٢) ابن طفيل

الأديب الفيلسوف والطبيب الشاعر

(ت : ٥٨١ هـ / ١١٨٥م)

حياته : هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل . من أكثر أدباء وكتاب وفلاسفة المسلمين شهرة فى المغرب والمشرق على حد سواء . ويطلق عليه اسم الأندلسى والقرطبى والإشبيلى . من الأرجح أنه ولد فى السنوات العشر الأولى من القرن السادس الهجرى ، على مقربة من مدينة غرناطة . والمعلومات عن طفولته شبابه تكاد أن تكون معدومة . ومن المحتمل أنه درس فى إشبيلية[٢] وقرطبة . ويقول ابن الخطيب مؤرخ غرناطة أن ابن طفيل درس الطب فى هذه المدينة ، ويذكر عبد الواحد المراكشى صاحب كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب أن هذا الأديب الفيلسوف ألف كتابين فى الطب . وقال بعضهم أن ابن طفيل تتلمذ على

---

(١) أبلغ كتاب العصر الأموى . وقد سماه الجاحظ فى كتابه البيان والتبين عبد الحميد الأكبر ، وضع الأساس الأول لآداب الكتابة فى رسالة عنوانها إلى الكتاب .

راجع : د. عبد الفتاح غنيمة : الكتابة العربية . تاريخها وتطورها . . ص ١٩٩ .

(٢) من أشهر مدن أسبانيا وأكثرها ارتباطاً بالوجود العربى هناك فى العصور الوسطى استولى العرب عليها عام ٩٣ هـ وبقيت فى حوزتهم حتى عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م حين استردها الأسبان بعد قتال عنيف استغرق عاماً وخمسة أشهر .

ابن باجة [1] (توفى ٥٣٣ هـ) ، لكن ابن طفيل نفسه يقرر أنه لم يلق هذا الفيلسوف .

وكان ابن طفيل طبيبا ورياضيا وشاعرا . شغل وظيفة كاتم السر لحاكم غرناطة. وفي سنة ١١٥٤م أصبح كاتم السر لعبد المؤمن بن على حاكم طنجة وأول ملوك الموحدين ، ثم انتهى أمره بأن صار كاتباً ووزيراً وطبيبا خاصاً لأبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذى حكم ما بين سنة ١١٦٣ وسنة ١١٨٤م . وقد حظى بصداقة هذا الأمير الذى كان يميل إلى العلم ويرغب فى الإطلاع على آراء العلماء وكتبهم . وكان ابن طفيل حريصا من جانبه على اختيار كبار العلماء والمفكرين لكى يزين بهم حاشية الأمير ، فكان يبحث عن هؤلاء ويستدعيهم من مختلف الأقطار ، وهو الذى قدم ابن رشد (توفى ٥٩٥ هـ) إلى أمير الموحدين ، ثم طلب إلى هذا الفيلسوف أن ينهض بشرح كتب أرسطو في الفلسفة والمنطق . وقد توفى ابن طفيل بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م)

مؤلفاته : يشير بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى إلى أن المؤلفات التى بقيت من انتاج ابن طفيل هى كتاب أسرار الحكمة المشرقية ورسالة حى بن يقظان كذلك أشار إلى الترجمات الأجنبية لهذه الرسالة من ألمانية وأسبانية وفرنسية وغيرها وعدد المستشرق الفرنسى « ليون جوتييه » تسع ترجمات لهذه الرسالة باللغات الأوروبية هذا إلى جانب أن تلك الرسالة ترجمت إلى اللغتين الفارسية والعبرية ويشير ابن أبى أصيبعة أنه كانت هناك رسائل متبادلة بين ابن طفيل وابن رشد فى المسائل الطبية . كذلك أشار ابن رشد فى شرحه المتوسط لكتاب ما وراء الطبيعة إلى أن ابن طفيل وضع نظرية ممتازة فى علم الهيئة أى علم الفلك ، وأنه يمكن الإفادة منها مما يشعر بأن ابن طفيل كانت له دراسات خاصة فى علم الفلك . وقال عنه أحد تلاميذه أنه كان يريد الاستعاضة عن نظرية بطليموس فى الفلك بفروض أخرى ، ونقل عن أستاذه أيضا أنه وجد نظرية فلكية ومبادىء أخرى غير مبادىء بطليموس يستطيع بها تفسير مختلف الحركات السماوية .

قصة حى بن يقظان :

عُرِفَ ابن طفيل ، بقصته المشهورة « رسالة حى بن يقظان » . وقد اختلفت الآراء فى تحديد المغزى الذى ترمى إليه هذه القصة التى تجمع بين الأدب والأخلاق

(١) هو أبو بكر الصائغ المعروف بابن باجة فى الأندلس

والتربية والفلسفة . فعبد الواحد المراكشى ، الذى يصف أبا بكر ابن طفيل بأنه كان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة معظماً لأمر النبوات ظاهرا وباطنا ، يعتقد أن تلك القصة كانت ترمى إلى بيان أصل النوع الإنسانى من وجهة نظر الفلاسفة . وذهب «مونك» فى كتابه « مزيج من الفلسفة العربية واليهودية . إلى أن تلك الرسالة لم تكن مجرد كتاب فى علم الطبيعة ، وذلك لأن كتاب « حى بن يقظان » يصور لنا رجلا منعزلا لم يخضع قط لتأثير المجتمع ، بل إنسانا استيقظ عقله بصفة تلقائية، فوصل تدريجيا بجهده الخاص من جانب ، وبعون من العقل الفعال - حسبما تصوره نظرية الفيض عند الفارابى وابن سينا - إلى إدراك أسمى للأمور الميتافيزيقية . لكن يبدو أن « مونك » لم يلحظ الجانب الصوفى فى الرسالة جيدا ، ولذلك عاب على ابن طفيل أنه انساق إلى الخيال في نهاية القصة . وفى رأى رينان Renan أن « حى بن يقظان » يعد نموذجا للمتصوف الذى يصل بملكاته الخاصة إلى إدراك عالم الغيب وإلى درجة الاتحاد بالله . ومن جانب آخر وصف قصة حى بن يقظان بأنها تمتاز إلي جانب دقتها المنطقية بنضارة الخيال ، والفن المتكامل فى التأليف من أى تأليف فلسفى آخر. أما ليون جوتييه الذى عنى عناية خاصة بفلسفة ابن طفيل فيرى أن « مونك » لم ير فى « حى بن يقظان » سوى عالم أصبح فيلسوفا أى مفكرا اعتمد على التأمل، وعلم نفسه بنفسه دون أن يكون فى حاجة إلى معلم . وربما كان سبب ذلك أن « مونك » تأثر بالعنوان الذى اختير للترجمة اللاتينية لهذه القصة وهو الفيلسوف الذى علم نفسه بنفسه

(Philosophus autodidactus, sive Epistola Hai ebn Yaddhan)

ويتلخص رأى « جوتييه » في مغزى هذه القصة ، فى أنها محاولة للتوفيق بين العقل والدين . وربما تأثر هذا الأخير برأى عبد الواحد المراكشى من قبل .

ويقول العلامة الأسبانى ينفدت ابيلايو : إن كتاب حى بن يقظان هو العمل الفلسفى والأدبى والدينى والتربوى والنفسانى الأكثر أصالة وعمقا فى تاريخ الأدب الأسبانى العربى على الإطلاق ، إن هذا الكتاب لا يهم الفلاسفة فحسب ، بل يهم كل من يهتم بتاريخ الفكر الإنسانى قاطبة .

ويغلب على الظن أن ابن طفيل إنما أراد أن يبين كيف ينشأ الإنسان وأن يبرهن فى الوقت نفسه على أن العرفان الصوفى La Gnose أسمى مرتبة يمكن أن يصل إليها الفيلسوف . هذا إلى أنه ختم قصته على نحو قد تكون له دلالته البعيدة

عندما جعل إنسانا جمع بين الشريعة والحقيقة ، أى بين الدين والتصوف ، يتتلمذ على حى بن يقظان .

وتلاحظ عند ابن طفيل نزعة حديثة فى التأليف ، لأنه رأى أن يقدم فى بدء رسالته عرضا موجزا عن الحياة الفكرية فى الحضارة الإسلامية حتى القرن السادس الهجرى ، قبل أن يعرض وجهة نظره الخاصة . وهنا يجب التنويه بمنهجه الموجز الواضح فى بيان وجهات نظر الآخرين . فلقد رأى أن يكشف عن طبيعة الدراسات الفلسفية السابقة فى المشرق وفي المغرب على حد سواء . فتكلم عن الفارابى وابن سينا والغزالى من فلاسفة المشرق ، ثم عن أبى بكر الصائغ المعروف بابن باجة فى الأندلس، لكنه لم يشأ الحديث عن أهم المعاصرين له ومنهم ابن رشد ومحيى الدين ابن عربى .

ويميل ابن طفيل إلى ارجاع الفضل فى نشر الثقافة الفلسفية إلى أهل المشرق ، حيث لم تظهر فلسفة فى الأندلس قبل ابن باجة ، لأن ذوى الفطر الفائقة في الأندلس لم يشغلوا أنفسهم ، قبل ورود فلسفة المشرق إليهم ، بالنظر الفلسفى ، فقد كانوا أكثر اهتماما بالعلوم الرياضية . وهكذا « قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغا رفيعا ، ولم يقدروا على أكثر من ذلك » . ثم عرفوا الفلسفة والمنطق من كتب الفارابى وابن سينا .

إن كتاب ابن طفيل « حى بن يقظـان » عرف كمخطوط من بين مخطوطات « الاسكوريال » لذا تمت ترجمته إلى :

١ - **العبريــة** : موسيس ناربونة - سنة ١٣٤١ ميلادية / ٧٤٢هـ .
٢ - **اللاتينية** : أ. بوكوك - سنة ١٦٧١م / ١٠٨٢هـ .
٣ - **الإنجليزية** : اشويل ، جورج كيث ، سيمون اكللى - سنة ١٧٠٨م/١١٢٠هـ..
٤ - **الهولندية** : مترجم مجهول - سنة ١٦٧٢م - وترجم مرة أخرى إلى هذه اللغة سنة ١٧٠١م/١١١٣هـ .
٥ - **الألمانية** : ج . جورج بيريتيوس سنة ١٧٢٦م - وترجمة أخرى سنة ١٧٨٣م .
٦ - **الفرنسية** : ليون جوتييى - سنة ١٩٠٠م/١٣١٨هـ .
٧ - **الأسبانية** : فرانشيسكوبونس - سنة ١٩٠٠م - وترجمة أخرى : كونثليث بالينثيا سنة ١٩٣٤م/١٣٥٣هـ .

ويرجح أن يكون هذا الكتاب قد ترجم إلى غير هذه اللغات المذكورة ، كما أن الدراسات والأبحاث قد تعددت واختلفت اتجاهاتها ، عدا المؤتمرات العالمية التى عقدت

عن ابن طفيل ، فى تشيكوسلوفاكيا ، ولبنان والمغرب ومدريد ، أو غيرها. ومن الدراسات المهمة الجديرة بالذكر ، الكتاب الذى ألفه الاسبانى : خوسى بيبرجو ليقارن بين « ديكارت وابن طفيل » . لم يذكر تاريخ نشره فى مدريد .

مقدمة الكتاب وموضوعه : بدأ ابن طفيل كتابه كما يأتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما - ذكر سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، أن جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب ، لانها أعدل بقاع الأرض هواء، وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعدادا . وإن كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الاطباء . . . » .

أن قصة « حى بن يقظان » معروفة الآن للخاص والعام ، ويقصد ابن طفيل بكلمة « حى » ، كائن حى ، بشر ، إنسان . وبكلمة « يقظان » - الله - الخالق المبدع لهذا الوجود وجميع الكائنات الموجودة فيه .

إن ابن طفيل جعل « حى » يولد بلا أبوين فى إحدى جزر الهند تحت خط الاستواء ، وترضعه وتربيه وتشرف على تنشئته ظبية ، إلى أن ماتت هذه الظبية ، فكان هذا الحدث بمثابة تغير جذرى فى حياة الصبى ، الذى بدأ أول الأمر بتربية لحواسه . ولما بلغ سن الإحدى وعشرين بدأ يعرف طبخ اللحم وصنع لباسه من جلود الحيوانات ، وصنع آلات الصيد والقنص ، وبناء كوخ من القصب اقتداء ببعض الطيور. ثم بدأ في استئناس الحصان وحمار الوحش وبعض الطيور الكاسرة . ثم بعد ذلك تطور تفكيره إلي التفكير في ممالك الحيوانات والنبات والمعادن، إلى أن وصل إلى فكرة أنه لابد من وجود وحدة بين هذه العوامل فى الحياة المادية . فوجد أن لكل جسم مادته ومظهره ولكن ما الذى يكون ذلكم الشكل وتلكم المادة . ثم بعد ذلك بدأ « حى » يتدبر هذا الكون الفسيح بما فيه من أجرام سماوية ونجوم وكواكب ورياح وأمطار وعواصف ورعد وبرق . إلى أن وصل عن طريق الملاحظة والمشاهد العلمية الدقيقة إلى **معرفة الله جل علاه ، وقدرة الخالق الأوحد تعالت قدرته .**

إن « حى » عن طريق التأمل والزهد والتنسك والملاحظة والحدس العقلى يصل إلى معرفة وجود الذات العلوية . ثم يتصل فى تلكم الجزيرة بـ « آسال » [1]

---

(١) كلمة آسال شركسية معناها أسد ، وهو اسم شركسى مازال يستعمل حتى الآن .

وهو عالم جليل عاش مع الناس وتعلم منهم إلى أن وصل إلى معرفة وجود الله عن طريق الإيمان والتدين . هذا الأخير بدأ يعلمه اللغة لينقل إليه أفكاره ، فاتفقا اتفاقا كليا في كل شئ على الاطلاق ، لكى يتفق بذلك أيضا العقل والإيمان للوصول إلى هدف واحد .

إن ابن طفيل ، ليعتبر السبّاق الأول إلى نظريات «النشوء والارتقاء» وغيرها من النظريات البيولوجية التى نادى بها كل من «داروين Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢هـ)» و « لا مارك Lamarck (١٧٤٤ - ١٨٢٩) » وغيرهما . وكذلك مبدأ «الشك المنهجى» الذى نادى به «ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠)». ومبدأ « التربية الذاتية » التى ينادى به الآن كثير من علماء التربية والتحليل النفسى، وكذلك مبدأ تربية الحواس عند الأطفال قبل تعليمهم العلوم المختلفة الذى نادت به قواعد التربية فى الإسلام .

أما من الناحية الأدبية فان قصة ابن طفيل لتعتبر المثال الذى احتذاه الكاتب الإنجليزى « دانييل ديفوى » عندما كتب كتابه «روبنسن كروزو» الشهير . وكما شهد بذلك أيضا المستشرق الأسبانى المعروف . « كارثيا كومث » عندما برهن في «مجلة الوثائق والمكتبات والمتاحف» سنة ١٩٢٦. أن قصة «الكر يطكون» التى كتبها العالم الاسبانى المعروف « كرَاسْيَان» مأخوذة عن قصة ابن طفيل « حى بن يقظان » .

أما « جان جاك روسو » (١٧١٢ - ١٧٧٨م) فى قصته « إميل » فلاشك أنه تأثر بقصة ابن طفيل لكن ابن طفيل كان أصدق منه عندما برهن أن الأطفال لا يتعلمون من الطبيعة بقدر ما ينبهرون بها، وهذا الانبهار هو الذى يأخذهم إلى التعلم. وهذا خلافا لمبدأ « جان جاك روسو » الذى يدعو إلى « التربية الطبيعية » حيث الرجوع إلي الطبيعة هو الحكمة ذاتها [1] وهذا أيضا هو المبدأ التربوى الحديث المجرب. أن النظرة إلى التربية عند ابن طفيل كان لها أيضا الأثر الواضح على « لِيبسين » الذى دعا إلى « التربية التقدمية للجنس البشرى » . وكذلك أيضا على فلسفة الدين والتدين لمدرسة واتباع « هيجل » . إن ابن طفيل يرى أن الإنسان يمر فى حياته بمرحلتين : الأولي تحليلية والثانية تقريرية . وفي جميع الأديان هناك دين للعامة وآخر للخاصة من العلماء والمفكرين . وهو يفضل الإنسان الذى يصل إلى الاعتقاد عن

---

(١) د. عبد الفتاح غنيمة : نحو فلسفة السياسة النظم والنظريات والمذاهب . دار الفنون ١٩٨٨ ص : ٢٢.

طريق العقل ، على المؤمن عن طريق التلقين . كما أن الأخلاق الدينية عنده هى حرية التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة . كما كان يعتقد جازما أن الإنسان يجب أن يساير ويتعايش مع المجتمع الذى يعيش فيه ويأخذ بيده إلى طريق الحق والإيمان ، وبهذه الأفكار إلي جانب تعايشه مع ابن رشد وغيره من الفلاسفة ، كان تأثيره بالغا فيَ مفاهيم التربية المغربية ، باعتبار أنه عاش في المغرب لمدة طويلة ، الأمر الذي طبع العقلية المغربية بطابع الايمان والمحافظة على التراث ، والجدية ، وطابع الاصالة في التربية الدينية على مر العصور .

إن المغرب اشتهر بعلماء أجلاء امتازوا بباعهم الطويل في علوم الفقه واللغة وعلوم الدين والفلك والجغرافية والفلسفة والتربية . ونحن نرد هذا إلى التأثر بأفكار ابن طفيل وابن رشد وابن خلدون والادريسي وغيرهم من علماء الأندلس الذين عاشوا في المغرب وتأثروا بالحياة الأندليسية الزاخرة بشتى أنواع العلوم والمعارف التى أثرت الحضارة الأوربية الحديثة وغيرها من الحضارات العالمية .

إن تطبيق نظرية ابن طفيل الأخلاقية فى الحياة لا نراه إلا من خلال ما يقوله هذا المفكر العربى الفذ ، ألا وهو ضبط النفس ، وجعلها تقوم بمجهود نفسى جبار بنفسها بقصد الوصول إلى مرحلة الإشراق والفيض الربانى ، والتعبير عن ذلك بلغة سليمة تكشف العبقرية العربية الإسلامية .

إن ابن طفيل وكأنه يعيش بين ظهرانينا الآن فى هذه المرحلة العصيبة الحالكة من تاريخ أمتنا العربية الإسلامية ويدعونا إلى الرَوِّية فى تفكيرنا وسبر أغوار نفسيتنا العربية ، ويدعونا إلى الحب والأصالة والخير والجمال والإيمان بالله العلى القدير جل علاه ، وما أحوجنا الآن إلى مفكرين مثل ابن طفيل رضى الله عنه وأرضاه .

(٣) ابن النديم مصنف العلوم

(توفى ٣٩٢ أو ٣٩٩هـ / ١٠٠١ أو ١٠٠٨م)

ليس بين المهتمين بالحضارة العربية وما انبثق عنها من علوم متنوعة من يجهل الأهمية الزائدة التي يحتلها كتاب الفهرست ، لمؤلفه (أبى الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحق) ، النديم ، الوراق ، البغدادى . فهذا الكتاب قد تضمن قوائم شاملة لأسماء الكتب ، والمصنفين ، في مختلف فروع المعرفة ، حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ،

غير أنه يضيف إلى هذه الوظيفة الببليوجرافية - على خطرها وما تحتاج من دراية وجهد - وظيفة أخرى تتجاوزها ، وتحتاج إلى خبرة ومعايشة طويلة للعلماء لأن النديم لم يقف عند توزيع ما انتهى إليه خبره من الكتب في مقالات وفنون على حسب الموضوع ، وإنما قدم فى صدر كل مقالة أو فن لمحة تاريخية بالموضوع : جذوره، وأطواره ، وتفريعاته ، وأهم رجاله ، ومصطلحاته ، ويمحص القول ويدققه ، وأن يصدر أحكاماً علي الرجال ، معتمداً على ما انتهى إلى علمه ، أو من خلال درايته الخاصة بما ألفوا ، وقد يغوص في بعض المسائل الجوهرية التى تضمنها هذا الكتاب أو ذاك ، فيحلل ، وينقد ، ويصحح النسبة ، ويربط ما بين الأول والآخر . . وبهذا كله يأخذ كتاب الفهرست مكانه بين الموسوعات العلمية التى لا غنى عنها لكل مشتغل بالعلم ، أو راغب في توثيق المعرفة ، سواء كان التراث بغيته ، أو العصر مبحثه ، لأن الوعى بالتاريخ أساس فى صواب التصور للحاضر والمستقبل .

حياته : تتفق أقوال المؤرخين على اسم الكتاب ، فهو الفهرست ، كما تتفق على اسم صاحبه محمد بن اسحق ، وعلى موطنه : بغداد . بالكتاب إشارات تدل على أن بداية كتابته كانت سنة ٣٧٧ هـ ، وفيه إشارات تدل على أن مؤلفه عاش إلى العقد الثانى من القرن الخامس الهجرى، مع أن مصادر أخرى قررت أنه مات أواخر القرن الرابع (٣٩٢ هـ أو ٣٩٩) .

وكما يحتمل أن النديم عاش عدداً من السنين أوائل القرن الخامس ، فإنه يحتمل أن الإشارات التى دلت على ذلك قد زادها النساخ في كتابه بعد وفاته . ولن يغيب عنا هنا وجه المفارقة فى رجل قضى الشطر المثمر من عمره ، يوثق التواريخ ويصحح المعلومات ، ثم مات دون أن يقوم أحد بتوثيق ميلاده أو وفاته . وقد اختلف مؤرخوه حول صفة النديم ، وهل هى لاصقة به أو بأبيه ، ومن هنا كان شيوع تسميته بابن النديم ، وأغلب الظن أنها صفة له ناتجة عن اشتغاله بالرواية والأدب ، وكذلك الأمر في الوراقة وليس بمستبعد أن يكون وراقاً ابن وراق ! ! . ومن الصحيح أنه لم يكن رائد التوثيق الببليوجرافي إذ سبقه الفارابى، صاحب (إحصاء العلوم) (٣٣٩هـ) والخوارزمى صاحب (مفاتيح العلوم) (٣٨٧ هـ) ولكن هاتين المحاولتين اقتصرتا على حصر أسماء الكتب والمؤلفين حسب موضوع العلم ، ولم يتطرق أحدهما إلى مادة الكتب فى ذاتها ، ولا إلي حياة هؤلاء المؤلفين ، وبهذا الشمول الذى اتسمت به محاولة النديم يستحق كتابه منزلة فريدة . وتكون وقفتنا معه بمثابة تذكير للأجيال الحديثة من الدارسين والمثقفين .

الفهرست والمنهج :

إن النديم قسم كتابه إلى عشر مقالات ، تنقسم كل منها إلى فنون . وشأن ابن النديم فى كل فن أن يذكر أسماء أهل هذا الفن محافظاً على التسلسل الزمنى ما أمكنه ذلك ، ثم يرصد عناوين كتبهم ومقالاتهم ، ويتوقف عند المهم من بين هذه الكتب فيعرض فكرته الأساسية ، وقد يربطه إلى أشباهه ، أو يرده إلى أصله . ونستطيع أن ندرك الشمول ، أو الموسوعية التى تحققت عبر هذه المقالات والفنون ، وسيرى من يعود إلى الكتاب ليقف على تفاصيل كل فن ، كيف أن بعض الفنون تكاد تنطوى على أقسام توشك أن تصير بدورها فنوناً . وبصفة عامة فإن الكتاب تناول أهم الموضوعات العلمية بالتمهيد الذى قام به لكل مقالة أو فن ، وبحصر الكتب والمصنفين الذين تناولوا هذا الموضوع ، إلا أن تسلسل المقالات لم يخضع لترتيب محكم ، حيث كان البدء باللغة والدين ثم كان الكلام عن النحو ليس هو الحلقة التالية بالضرورة ، وبصفة عامة فاننا نجد مناسبة بين المقالة الأولى ، والمقالة السادسة ، ثم الخامسة ، ثم التاسعة ، ومناسبة بين المقالة الثانية ثم الرابعة عن الشعر والشعراء ، ثم الثالثة عن الرواة . ولعل النديم ألف كتابه فى شكل مقالات مستقلة حيث تهيأت له المادة ، ولم يهتم بفكرة التدرج المنطقى ، أو لعل ذلك من عمل النساخ . كما أنه اهتم بالعلوم الإنسانية أكثر من اهتمامه بالعلوم العملية ، فنصيب الهندسة والرياضة والطب والصناعة أقل إذا ما قيس إلى حوار المتكلمين واختلافات النحويين ، وعذر النديم فى ذلك واضح ، فهو تابع لنوع النشاط التأليفى لعصره ، وهذا هو ما كان يشغل المثقفين فى عصر النديم وما قبله من عصور . وقد أدى هذا الاتجاه إلى قصور فى حصر بعض العلوم ، فلا نكاد نجد ذكراً لعلوم النبات ، أو فن الزراعة مثلاً ، أو النظم الاقتصادية ، وهى بالطبع تتجاوز ما ألف عن الخراج ، وكذلك علوم البحار والحيوان ، فى حين أنه اهتم بشكل واضح بالأسماء والقصص والخرافات ، وهذا أمر يحمد له لاريب ، ويدل على نفاذ البصيرة والوعى .

فهرسة وتوثيق :

إن الجهد الأكبر فى كتاب الفهرست ليس وقفاً على تقصى أسماء الكتب ومؤلفيها ومن ثم تبويبها حسب الموضوع ، إنه يتجاوز ذلك إلى (التوثيق) [1] ،

---

(١) راجع : د. عبد الفتاح غنيمة : نشر الكتاب . دار الفنون العلمية ١٩٨٧ (نشر الكتب عند العرب) .

وهى كلمة سهلة ولكنها قد تقتضى من إنسان عمره كاملاً ، وخصوصا في الزمن القديم حيث تتباعد المسافات ، ويواجه نشر الكتاب صعوبات شتى ، ويسهل التزييف والحذف والإضافة ، وتغيب المؤسسات التى تعنى بتسجيل المطبوعات . ولكن الأعمال الكبيرة تتحدى الصعاب وتتجاوز قدرة المرحلة ، وتشهد مادة الفهرست على أن كاتبه اتصل بشكل مباشر بالمصادر التى أخذ عنها ، بالسماع مباشرة من صاحب الشأن ، أو قراءة خطه فى مؤلفاته الأصلية ، أو تلقى رواية عن ثقة ، أو النقل عن مصدر موثوق به سنجد فى الكتاب مثل هذه العبارات : قرأت بخط أبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى في كتاب الوزراء تأليفه (ص ١٥)- ورأيت أنا فى زماننا عند أبى يعلى . . . مصحفاً بخط على (ص ٣٠) - قرأت بخط ابن مقلة (ص ٦٠) وعن المبرد قرأت بخط أبى الحسن الخراز (ص ٦٤) - قرأت بخط أبى الطيب أخى الشافعى ، قال (ص ٧١) وهكذا يتقلب بين السماع من المصدر الأصيل ، أو النقل عنه ، أو عمن له صلة مباشرة به . وقد نجد عبارات لا تدل على التحديد ، مثل : قرأت في بعض التواريخ القديمة (ص ١٧) - عن اليهود : سألت رجلاً من أفاضلهم (ص ٢٥) ، والمعلومات الواردة بهذه الطريقة لا تمثل مركز الثقل الحقيقى فى الكتاب ، فهى قليلة ، وتنتمى إلى أمم بائدة أو قديمة ، أما ما يتعلق بالحضارة العربية والفكر الإسلامى ، فكله محدد المصادر موثق النصوص ولهذا نجده لا يستسلم للرأى الشائع أو المعلن ، وإنما يحتكم إلى معرفته الخاصة الموثقة ، فلا يتردد فى إصدار تصويبات لا تجرى مع ما هو معروف .

التواصل الثقافى :

ومع أهمية توثيق المصادر التى اعتمد عليها النديم والتنسيق بين الموضوعات أو توزيعها على أبواب أو مقالات ، فإن هذين الجانبين لا يمثلان الإنجاز الوحيد فى منهج كتاب الفهرست ، ويستطيع المتأمل أن يجد إضافات أخرى من الأهمية ، وهى تكاد تكون من الظواهر التى سبق إليها النديم ، أكثر من غيره منها :

١ - **الاهتمام بقضية التواصل الحضارى أو الثقافى** ، وهو ما ندعوه فى زماننا بقضية التأثير والتأثر ، وكيف يُتم الثانى عمل الأول ويفيد من تجربته ، فيقول مثلاً عن المطوق : له من الكتب كتاب الوزراء ، وصل به كتاب محمد بن داود بن الجراح ، وعمله إلى أيام أبى القاسم الكلوذانى . أما ابن الجراح نفسه صاحب كتاب الورقة في أخبار الشعراء ، فمن كتبه : كتاب الأربعة على مثال كتاب أبى هفان .

وكذلك ابن المراغى وله من الكتب كتاب البهجة ، على مثال كتاب الكامل . أما الآمدى فقد كان يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب ! !

٢ - وكما يراعى النديم هذا الجانب في مجال الكتب فانه يبدي الاهتمام ذاته على نطاق أعظم ، فيما يتعلق **بالتواصل بين الأشخاص** ، فالنديم لم ينظر إلى المثقف أو العالم فى حدود ذاته الفردية ، بل وضعه فى إطار من ثقافة العصر المكونة من مجموعة الأطر ، وقد تجاوز الانتماء الثقافى - إن صح التعبير - حدود الوقوف عند المدينة ، كما لاحظنا في البصرة والكوفة مثلا ، إلى أنواع أخرى من الكتل أو الجماعات ، فيشير إلى اليزيديين ، وآل وهب ، وآل طاهر ، كأسر أو عائلات تناسلت علمياً وشهر أفراد منها بنشاط معين ، كما يشير إلى المدرسة العلمية المتمثلة فى أستاذ كبير يتبعه تلاميذ على مدى أجيال ، والأمر يتجاوز أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة إلي الرياضيين مثل ثابت بن قرة وتلاميذه وجابر بن حيان والرازى ، ولا يستثنى الأطباء والفلاسفة والمنجمين .

٣ - وإذا كانت مادة الفهرست تقوم أساساً على حصر وتبويب المؤلفات العربية فإن الكتاب قد تضمن إشارات مهمة توضح جوانب غامضة في حركة التأليف وتطورها ، لا يتاح إدراكها إلا لمن كان على درجة النديم من الإلمام بالمصادر والخبرة فى معايشة الكتب . فهو يقول مثلا فى معرض حديثه عن كتاب منسوب لعبد المطلب بن هاشم كان فى خزانة المأمون : (وكان الخط يشبه خط النساء) ! ! هذه ملاحظة وذات أهمية فى اثبات صحة النسبة أو عدم صحتها ، وتفطن النديم لاختلاف خط الرجال بصفة عامة عن خط النساء ، فى عصر لا تشيع فيه كتابات النساء ، مما يدل على ذكاء وتيقظ . وفي أخبار حماد يذكر أنه عاش إلى سنة ست وخمسين ومائة . . . ولم نر لحماد كتاباً ، وإنما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده ! وفي العبارة الأخيرة تحديد للفترة التى ضعف فيها الاعتماد على الرواية الشفهية وبدأ عصر التدوين . وفى مكان آخر ، وفي معرض الترجمة لمحمد بن حبيب يذكر أن له كتاب القبائل الكبير ، جمعه للفتح بن خاقان (ورأيت النسخة بعينها عند أبى القاسم بن أبي الخطاب بن الفرات فى طلحى ، نيف وعشرون جزءاً ، في كل جزء مائتا ورقة وأكثر ، ولهذه النسخة فهرست لما يحتوى عليه من القبائل والأيام بخط السندى بن على الوراق في طلحى ، نحو خمس عشرة ورقة بخط نزك) . بهذه الإشارة يمكننا أن نعرف متى - على وجه التقريب - بدأ نظام وضع الفهرس لكتاب ما . والفهرس هنا عمل فنى يحصى القبائل والأيام التى ورد ذكرها فى الكتاب ، كما نعرف أن هذا

الجانب التنظيمي لم يكن في مبتدئه من فعل المؤلفين ، الذين كانوا يسترسلون في الإملاء على سجيتهم واختلاط معارفهم أو تداخلها أكثر من اهتمامهم بتحديد الموضوعات وخطوات عرض كل موضوع ، ولهذا جاءت هذه المحاولة ، ولعل هناك الكثير مثلها ، من فعل الوراقين .

دوافع التأليف :

لقد كان النديم واسع المعرفة متنوع الاهتمامات ، وعاش في عصر مزدهر بالعلوم قد بلغ بالحضارة العربية الإسلامية أرقى ما أتيح لها أن تبلغه ، وهو القرن الرابع الهجرى ، الذي سماه العلامة أحمد أمين (ظهر الإسلام) . وكما كان رواج تجارة الكتاب ، وكثرة المكتبات العامة في عواصم الأقاليم ، والخاصة في بيوت الموسرين والعلماء ، من الدوافع الموضوعية التى حبذت - ابن النديم - لوضع كتاب الفهرست ، فإن هناك دوافع ذاتية خاصة جعلته يقدم على المحاولة ، وتذكر بعض المصادر ، أن النديم قد سمع من أهم علماء عصره عن أهمية جمع التأليف والكتب وحصرها بما حوت من مثل : الحسن بن سوار الناقط ، وأبى اسحق السيرافى ، وإسماعيل الصفار ، ويونس القس . وهؤلاء من ذوى المكانة العلمية في زمانهم ، وهذا يعنى الاتصال المباشر بهم . أو بمكتباتهم الخاصة ، وأيضاً أبى سعيد وهب بن إبراهيم ، وأبى الحسن بن الكوفي ، وأبى سهل نوبخت ، وأحمد بن الطيب . كما أنه اطلع على كتب قديمة لم يذكر اسمها ولا أسماء مؤلفيها ، تدل على سعة الاطلاع ، حتى لقد ظن بعض الدارسين أنه رحل إلي الصين حتى قرأ ما كتبه عنها في آخر الفهرست ومعنى ذلك أن نزعم أن النديم رحل إلى جميع بلدان العالم القديم ، وهذا ما لم يحدث ، وإنما هو حب المعرفة وسعة الاطلاع . وغاية ما نريده هنا معرفة الدافع الذاتى لتأليف الفهرست ، والإجابة أن الرجل مع هذه السعة في الخبرة بالكتب وما حوت كان صاحب عقلية تنظيمية ، هى التي صرفته إلى التأليف بشكله وطريقته المعهودة ، وإلي وضع هذا الكتاب الذى أدى خدمة جليلة غير مسبوقة . وللنديم كتاب آخر أشار إليه ياقوت بمعجم الأدباء جـ ١٨ ص ١٧ اسمه كتاب التشبيهات ، ولم نطلع عليه ، ولم ينوه به أحد في أى فن ، مما يعني - استنتاجا - أن الملكة الإبداعية عند النديم ذات نزعة تنظيمية تهتم بالتقسيمات وترتيب المعلومات وعرض الأفكار ، أكثر من قدرتها على التحليل والابتكار .

وهذا الرأى يعنى إظهار منزلة النديم ، فقد أدى للثقافة العربية والإسلامية خدمة جليلة لا يستطيعها غير أولي العزم من العلماء . وتنظيم المعلومات وحصر

المصادر هو بمثابة (التصنيف والفهرسة وتنظيم المعلومات) في حركة التقدم العلمي في الحضارة الحديثة ، وهو ما تتفوق به الثقافة والعلوم فى البلاد المتقدمة الآن ، ومع أننا كعرب كنا أصحاب الخطوة الأولى على هذا الطريق ، وبتلك الخطوة الواثقة الفسيحة التى صنعها النديم وحده ، فإننا نعانى فى نظام الفهرسة وتجميع المعلومات تخلفاً محزناً في عالمنا العربى رغم المحاولات المستميتة فى أقسام الوثائق والمكتبات بجامعاتنا أن تفعل إزاءه شيئاً ، وأكثر جهد هذه الأقسام أن تخرج موظفى مكتبات متخصصين . ولعل علوم التصنيف هى التى تنقصهم بالأسلوب التطبيقى الذى يتجاوز المعرفة النظرية ، وعليه فإن ابن النديم قد سبق نظام ديوى أو غيره [(١)] . بهذا العلم الموسوعى الذى توفر له ، ودفعه إلى وضع كتابه ، ونجده فى صفحاته التى تتجاوز الأربعمائة من القطع الكبير ما يؤكد علمه واستقلال رأيه ، وأنه لم يكن جامع عناوين أو منضد قوائم .

ومن خير دلائل الخبرة الواسعة لابن النديم تعليله لأسباب تطرف ابن الروندى في نزعته المادية ، فهو يرجع هذا التطرف لأسباب شخصية نفسية إذ جُفي الرجل من أصحابه ، فكان هذا الجفاء سبباً فى الميل إلى أن يحدث صدمة للآخرين . كما رسم للحلاج صورة نادرة نرى أنها أصلح للمعالجة الدرامية من تلك الصورة التى كتب عنها صلاح عبد الصبور وإنما هى تتفق مع ما كتبه الدكتور جلال شرف[(٢)] . كما أشار إلى الآثار السلبية للكبت السياسى وكيف تتولد عنه الحركات السرية ، وحين يتعرض النديم للعشق والعشاق فانه يضع ثبتاً بأسماء العشاق فى الجاهلية والإسلام وما ألف في أخبارهم من كتب ، وآخر بأسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر وهذه أول محاولة واضحة للتفرقة بين العشق التاريخى والعشق الفنى ، ونجد كتباً كثيرة ، قبل النديم وبعده ، تخلط بين الشخصيات التاريخية ، والأخرى المخترعة ، حين تورد أخبار العشاق ونوادرهم . وإذ يرجع كتاب كليلة ودمنة إلى الهند فإنه يشير إلي أنه رأي من الكتاب نسخة تضمنت زيادة بابين ! فهل كان هذا القول دافع ما قام به الدكتور عبد الوهاب عزام فى دراسته عن كليلة ودمنة ، حين حدد فصلين أضافهما ابن المقفع ؟!

---

(١) ملفل ديوى Melvil Dewey (١٨٥١ - ١٩٣١م) واضع التصنيف العشرى لخدمة المكتبات جميعا . وقد أسهم بقسط كبير فى إعادة ترتيب وتنظيم وتصنيف المجموعات المكتبية باستخدام الأرقام العربية كرموز بطريقة عشرية حتى تستوعب المكتبات المعرفة الانسانية بأكملها وذلك فى عام ١٨٧٣م .

(٢) د. جلال شرف : الحلاج : ١٩٧٦ .

الفهرست وفنون المعرفة :

نفترض أن لكل كتاب موضوعاً واحداً لا يهتم بغيره ، فيما عدا الكتب الموسوعية المعروفة بدءاً بالبيان والتبيين للجاحظ ، وإلى صبح الأعشى للقلقشندى . وهذا ليس من الدقة فى شئ ، فأكثر المؤلفين القدماء كانوا يتركون خبراتهم المتنوعة تتنفس بكثير من الحرية حتى من خلال الكتاب ذى الموضوع الواحد ، ولو قرأنا هذا الكتاب قراءة متأنية فإننا سنجد فيه ألواناً من المعارف تغنى أفكارنا عن موضوعات لم يخطر ببالنا أن نجدها فى مثل هذا الكتاب . وعلى سبيل المثال : لو أن القصص والأخبار القديمة قرنت قراءة اجتماعية أو سياسية ، أو اقتصادية فإنها ستعطى صوراً وأفكاراً عن عصرها وما سبقه من العصور قد تفوق ما نجده في كتابات المؤرخين الذين وقعوا أسرى أسماء الملوك وأعمالهم وتراجم المشاهير وأفضالهم . وفى الفهرست سنجد دلالات حضارية تحتاج إلى القراءة التى لا تهدف إلى مجرد اكتشاف أسماء الكتب وأسماء المؤلفين . ونذكر بعضاً من هذه الدلالات ، لعلها أن تكون حافزاً لمزيد من الجهد فى هذا الاتجاه .

١ - فهو يذكر فى معرض حديثه عن الكتاب والنساخ أن للمصاحف كتاباً مخصوصين بها فى كل عصر وبعد أن يذكر أنواع الأقلام التى يستخدمها الكتاب المختصون بكتابة الرسائل ، يقرر أن استخدام نوع معين من الأقلام (وعددها ١٢ نوعاً) تحدده شخصية من توجه إليه الرسالة .[(١)]

٢ - وللنديم إشارات دالة فيما يتعلق بالنظام التعليمى وحركة الثقافة ودوافع التأليف ، ونعرف أن نظام المعيدين ، والدرجات العلمية كان معمولاً به عند العرب ، فيقول في ترجمته للزجّاج تلميذ المبرد : (وكان من يريد أن يقرأ على المبرد يعرض عليه أولا ما يريد أن يقرأه . وفي وصف مجلس الرازى (٢٤٠/٣١١ ، ٣٢٠هـ) سنجده لا يختلف فى شئ عما يجرى عليه العمل فى الكليات العلمية ، وخصوصاً كلية الطب وما يتبعها من مستشفيات جامعية . يقول النديم عن الرازى : كان يجلس فى مجلسه ودونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ آخرون ، وكان يجئ الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فإذا كان عندهم علم، وإلا تعداهم إلى غيرهم، فإن أصابوا ، وإلا تكلم الرازى فى ذلك) . ولاشك أن ذلك طبق الأصل مما يجرى عليه العمل فى كليات الطب ، إذ يبدأ طبيب الامتياز فى شرح تاريخ حالة المريض

---

(١) راجع : د. عبد الفتاح غنيمة : دراسات حول الكتابة العربية - تاريخها وتطورها ط ٢ ص ٢١.

إلى النائب الذى يوسع من دائرة تطور الحالة المرضية ، ثم ينتهى الأمر بين يدى الأستاذ فى آخر المطاف .

٣ - وعن أبى زيد البلخى يذكر أنه كان يتلقى معونات مالية من بعض القوى السياسية والاتجاهات المذهبية فى زمانه ، وأنه ألف كتباً معينة قطعت عنه هذه الصلات . وفي ترجمته للإسكافى وهو معاصر للخليفة المعتصم يشير إلى ذكائه النادر وفقر أسرته ، فتمسك بتعليمه جعفر بن حرب الهمدانى ، ولكى يعوض الأسرة الفقيرة عن مساعدة ولدها أجرى عليهم عشرين درهماً كل شهر بدلاً من كسب الفتى ، وهذا ما يشبه نظام التفرغ العلمى ، وإن كان الأستاذ هو الذى يدفع من جيبه الخاص حرصا على نبوغ التلميذ .

٤ - وعن أخلاق العلماء ومنزلتهم فى شعوبهم يذكر عن ثابت بن قرة وهو من أشهر الرياضيين والمهندسين العرب أنه كان صيرفياً استصحبه محمد بن موسى لما انصرف من بلاد الروم ، لأنه رآه فصيحاً وقد تعلم فى داره فوجب حقه عليه ، فوصله بالمعتضد ! ! فتأمل حقوق التلميذ على الأستاذ في هذا الاقتباس . ويقول عن المحاملى : أنه توفى سنة ثلاثين وثلاثمائة . . . ونودى في شوارع بغداد ! فنعرف أن إعلان وفاة المشاهير بالنداء فى الشوارع كان معروفاً في بغداد فى ذلك العصر .

(٢) أثر الفلسفة العربية فى أوروبا

أما عن أثر المسلمين فى التفكير الفلسفى لاوروبا فكان عظيما ، حتى قال ترند أن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الأوربى هو أعمال فلاسفته [١] ، والمعروف أن المشرق الاسلامى شهد نشاط بعض كبار الفلاسفة مثل الفارابى (توفى ٨٥٠) والكندى (توفى ٨٧٣) وابن سينا « توفى ١٠٣٧ » [٢] ، ولكن تأثير الفلسفة الإسلامية علي الفكر الأوروبى الغربى كان مركزه أسبانيا ، لان أوروبا لم تعرف فلاسفة المشرق إلا عن طريق الأندلس ، حيث أشرف ريموند أسقف طليطلة من سنة ١١٣٠ - ١١٥٠م على ترجمة أعمال الفارابى وابن سينا وابن رشد والغزالى وغيرهم [٣] . وهنا نشير إلى أن الصلات الفكرية والعلمية ظلت قوية بين المشرق والمغرب الإسلاميين، رغم ما حدث بينهما من شقاق سياسي . ولا شك فى أن وحدة اللغة والدين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ساعدت على نشاط التبادل الفكرى وانتقال العلماء والكتب بين المشرق والمغرب وقد لخص الأستاذ أحمد أمين العوامل التى أعانت أهل الأندلس على التفلسف فى انتقال بعض البغداديين إلى الأندلس . وتعليم أهله ما وصل إليه أهل المشرق من تفكير . وفى نشاط أهل الأندلس فى نقل الكتب أحيانا بين خلفاء بنى أمية الأندلسيين وبين أباطرة القسطنطينية،فكان الأخيرون يهدون إلى خلفاء الأندلس بعض الكتب اليونانية فى الفلسفة والعلوم . ومن ذلك ما قيل من أن امبراطور القسطنطينية أهدى عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٦م) هدايا عظيمة منها كتاب ديسقوريدس باليونانية . فسأل الخليفة عبد الرحمن الإمبراطور أن يبعث إليه رجلا يتكلم اليونانية ليعلم عبدا له ، فبعث إليه الإمبراطور راهبا يسمى نيقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م) حيث حظى بالحفاوة والتكريم عند عبد الرحمن الناصر [٤] .

وهكذا لم ينفرد المشرق الإسلامى وحده بالعناية بعلوم اليونان ، وإنما شاركه فى ذلك المغرب أيضا ، هذا في الوقت الذى انقطعت الصلة بين الغرب اللاتينى وعلوم اليونان ، مما جعل العرب أصحاب فضل التواصل الحضارى بالمحافظة على كتب أرسطو بل في تعريف الأوربيين ببعض هذه الكتب [٥] . فاتصال العقلية الأوروبية الغربية

---

(١) ترند : تراث الاسلام ص ٥٥ .

(٢) Cam. Med. Hist.; vol. 4, p. 295.

(٣) Pirenne : La Civilisation Occidentale' p. 266.

(٤) أحمد أمين . ظهر الإسلام ج ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٥) **Rashdall** : op. cit., Vol. 1, p. 353.

بالفكر العربى هو الذى أثار حماسة الأوروبيين لدراسة الفلسفة اليونانية ، وهنا يتساءل الاستاذ جيوم ، إذا لم يكن التأثير الأول الفعال عربيا فكيف نفسر اختلاط اسم ارسطو بالتعاليم المنسوبة إلى ابن رشد أجيالا طويلة [(١)] ، والواقع - كما قال بيكون - هو أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر فى الغرب لضياع المخطوطات التى حوت هذه الفلسفة ، أو ندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين فقاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضا شاملا مما حقق التواصل الحضارى .

وإذا كان المشرق الإسلامى أمتاز بفلاسفته العظماء ، فإن الأندلس كان له أيضا فلاسفته الذين ضربوا الرقم القياسى فى حرية التفكير وتركوا أبعد الأثر فى الفكر الأوروبى . وأهم فلاسفة الأندلس ثلاثة هم ابن باجه توفى (٥٣٣ هـ) وابن طفيل (توفى ٥٨١ هـ) وابن رشد (توفى ٥٩٥هـ) ، وهؤلاء جميعا كان تأثيرهم في غرب أوروبا أكثر منه فى العالم الاسلامى [(٢)] . ويهمنا ابن رشد بالذات بوصفه أكبر شارح لفلسفة أرسطو ، ذلك أنه أعجب بأرسطو إعجابا شديدا جعله يضع ثلاثة شروح على فلسفته . وفى ذلك يقول رينان «ألقي أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غوامضه ، ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غامضها» [(٣)] ويكفي ابن رشد جرأة أنه أطلق لتفكيره العنان فضرب مثلا فريدا فى حرية الفكر ، ولم يبال بتهم الزندقة والكفر والإلحاد التى وجهت إليه ، وإنما أعلن آراءه فى صراحة تامة حتى اعتبره الغربيون أكبر مثل لحرية الفكر [(٤)] . وإذا كان بعض الفلاسفة المسلمين كابن سينا . وغير المسلمين كابن ميمون ، عملوا على تقريب وجهات النظر بين آراء أرسطو من ناحية والمبادئ الدينية السماوية من ناحية أخرى ، فإن ابن رشد رفض أن يحيد عن طريقته من أجل ذلك الغرض واختار أن يعبر عن آراء أرسطو تعبيرا صادقا ، فقال بأن العقل العام المطلق أبدى قابل للانفصال عن الجسم ، وأنكر الخلود والبعث . وصرح بأن على المرء ألا ينتظر ثوابا أو عقابا غير ما يلقاه من الحياة الدنيا . كذلك تعرض ابن رشد للفلسفة الخلقية والاجتماعية فأعلن كرهه للاستبداد ورأى عدم وجود خلاف بين الرجال والنساء في

---

(١) جهوم : تراث الإسلام ص ٢٤ .

(٢) **Cam. Med**. Hist., vol. 4, p. 296.

(٣) Renan : Averroes et Averroisme, p. 12.

(٤) ابن رشد : كتاب الكليات ص ١١ - ١٧ .

الطبع وإنما الاختلاف بينهما فى الكم[1].

وقد نادى بعض الباحثين بأن ابن رشد لم يبتكر شيئا فى فلسفته . وأن هذه الفلسفة بصفة عامة إنما هى فلسفة اسلافه ومعاصريه من العرب أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن باجه ، وكلها تعاليم فلسفة أرسطو ، ولكن الواقع هو أن ابن رشد أضاف إليها نظريات من الأفلاطونية الحديثة فضلا عن شروح فلاسفة العرب. وفاق ابن رشد الجميع فى دقة النقد وشدة التعمق وقوة الأدلة ، فجاء شرحه أوفى شروح العصور الوسطى . حتى قيل أنه إذا اعتبر أرسطو الفيلسوف الأكبر فإن ابن رشد هو الشارح الأعظم[2] . بل أن جوستاف لوبون يرى أن ابن رشد سبق أرسطو فى بعض الاحيان وأن فلسفته لا تزال مقبولة . أما جيوم الأكامى (١٢٧. - ١٣٤٧) Guillaume d'occam فقال عن ابن رشد أنه ينتسب إلى أوروبا والفكر الغربى أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر الإسلامى .

ومهما كان الأمر ، فمن الواضح أن آراء ابن رشد السابقة خالفت تعاليم الكنيسة ولذلك أحدثت هياجا عاما في غرب أوروبا . وسرعان ما ظهرت نقمة الكنيسة على أرسطو وابن رشد معاً ، فأصدرت عدة قرارات فى القرن الثالث عشر بتحريم تعليم آرائهما وتبادلها . مع توقيع قرار الحرمان ضد كل من يردد فلسفة هذا أو ذاك[3] . على أن هذا الحظر لم يحل دون انتشار فلسفة ابن رشد وآرائه فى أوروبا فاستمرت تدرس فى الجامعات الأوروبية فى القرن الثالث عشر. وظل تأثيرها متغلغلا وبخاصة فى ايطاليا حتى القرن السادس عشر[4]. ويكفى أن دانتى (١٢٦٥-١٣٢١) وضع ابن رشد فى قائمة الفلاسفة العظام الذين يفخر بهم التاريخ[5] .

ويبدو أثر فلسفة ابن رشد واضحا فى خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة ، وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحا في فلسفة القديس توما الأكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤) فى الفصول التى كتبها توما في العقل والعقيدة وعجز العقل عن إدراك الأسرار

---

(١) المرجع السابق ص ١١ - ١٧ .
Renan : op. cit. pp. 89-162.
(٢) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 369.
(٣) Cam. Med. Hist., vol. 6, pop. 712-714.
(٤) Renan : op. cit., pp. 220 -316.
(٥) Dampier : op. cit., p. 40.

الإلهية ، ليست إلا مقابلا لما كتبه ابن رشد فى باب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة » . هذا إلى أن كلامنهما سلك طريقا واحدا فى معالجة وجود الله ووحدته. وقد بلغ من تأثر توما بفلسفة ابن رشد ، أن كتاب « الخلاصة Summa لتوما يحوى بعض مذاهب إسلامية الأصل مما يثبت أن الأثر الذى تركه ابن رشد فى عقلية الغرب لم يكن مجرد شرح لكتابات أرسطو ، وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير [١] .

وبعد ، فمن الواضح أن هذا التراث العربى في مختلف العلوم التى تعرضنا لها، وكان له أثر كبير فى الحياة العلمية الأوروبية وفى جامعات أوروبا التى نشأت منذ أواخر القرن الثانى عشر . وقد بلغ من أثر الثقافة العربية في الحياة الفكرية الأوروبية . أن أخذ الأوروبيون منذ القرن الثالث عشر يربطون بين العلم ومعرفة العربية . حتى قال روجر بيكون (١٢١٥ - ١٩٩٢) أن الفلسفة مستمدة من العربية ، وعلى هذا الأساس لا يستطيع الشخص اللاتينى أن يفهم فلسفة العلم إلا إذا عرف اللغة التى نقلت عنها » . وهكذا أصبحت معرفة العربية شرطا أساسيا يجب أن يتوافر فى الأوروبى المثقف . مما جعل بعض الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى تعنى باللغة العربية عناية فائقة . بوصفها لغة العلم والمعرفة . ولا مبالغة في ذلك ، فإن كثيرا من كتب العرب ومؤلفاتهم ظلت موضع ثقة الأوروبيين حتى القرن السابع عشر بل التاسع عشر ، فإذا كانت آراء ابن رشد وشروحه صارت المحور الذى دار حول تدريس الفلسفة في فرنسا منذ القرن الثالث عشر ، وأقر ذلك لويس الحادى عشر عندما نظم التعليم فى بلاده في أواخر القرن الخامس عشر ، فإن لوبون يقول أن أساتذة جامعة مونتبليه لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا فى الطب إلا منذ خمسين سنة فقط : وما زالت جامعة باريس تحتفظ فى كلية الطب بصورتين كبيرتين ملونتين إحداهما للرازى والأخرى لابن سينا . ولم يكن نفوذ العرب فى الجامعات الايطالية - وبخاصة جامعة بادوا - أقل منه فى فرنسا إذ أصبح للدراسات العربية شأن كبير فيها مما جعل بترارك[٢] (١٣٠٤ - ١٣٧٤) يفزع محتجا على مواطنيه : « يا للعجب ! استطاع شيشرون Cicero (١٠٠ - ٤٣ ق.م) أن ينبغ

---

(١) Renan : op. cit. pp 237-246.

(٢) بترارك : شاعر وأديب إيطالى وأول من وضع حجر الأساس فى بناء النهضة الأوروبية الحديثة ورفع صوته جهرة مناديا بالتجديد والاصلاح بالإشتراك مع دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١) فنادوا بتعلم العربية واليونانية واللغات الشرقية الأخرى . واهتموا بدراسة السياسة والاجتماع والعلوم والفنون والأديان والفلسفة . ومهدوا لكل الحركات الفكرية التى ظهرت فى القرنين ١٥ ، ١٦ .

في الخطابة بعد ديموستين Demothene واستطاع فرجيل أن ينبغ فى قرض الشعر بعد هوميروس Homeros . فهل قدر علينا ألا نكتب بعد العرب ؟ لقد أدركنا اليونان وجميع الشعوب وسبقناها فى بعض الأحيان ما عدا العرب . فيا للحماقة ويا للجهل وياللعبقرية الإيطالية الخامدة ! »[1].

قلنا فى طليطلة كان المسلمون يعيشون جنبا إلي جنب مع المسيحيين . وكان وجودهم فى عاصمة الملك ومقر رئيس الأساقفة مما دفع جيرانهم إلى الاهتمام بالحياة الثقافية العربية والإسلامية . وفى طليطلة أسس « ريموند » ديوانا للترجمة ، مهمته ترجمة أمهات الكتب العربية . ثم نقل الديوان لإشراف « **جنديسالينوس** » (المتوفى سنة ١١٥١) ومن بعده « جيرار الكريمونى » Gerard de Cremone (المتوفى سنة ١١٨٧) . وكان من أثر نقل المؤلفات العربية إلى اللاتينية أن بذل مجهود فكرى جديد من المؤيدين والمعارضين ، فامتدت آفاق المعرفة عند الغربيين ، وأصبح للفكر العربى عندهم أثر بعيد . ومن المسلم به الآن لدى الباحثين الغربيين أن الفارابي كان له أثر كبير فى فلسفة العصور الوسطى ، فقد ترجم كتابه « احصاء العلوم »[2] De scientis إلى اللغة اللاتينية ، وأصبح فى المدارس المسيحية ، كما كان فى المدارس الإسلامية ، من المؤلفات التى لا يستغنى عنها . فقد أفاد منه «روجر بيكون » ، و « جيروم دى مورافيا » (النصف الأول من القرن الثالث عشر). وقد بين « فارمر »[3] فى بحث عن «أثر العرب فى الموسيقى » أن لكتاب « احصاء العلوم » قيمة كبيرة عند المشتغلين بنظرية الموسيقى عند الأوروبيين، وأن منفعة الكتاب الحقيقية إنما هى توجيه انتباه الغربيين إلى العلوم العربية ، التى أقبل عليها طلاب المعرفة منهم ، وجدّوا فى تحصيلها ، والاستزادة منها ، وخلص « فارمر » إلى

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) له ترجمتان الأولى opusculum de scientiis وقد طبعها كامراريوس وترجمها دومنيك جندسالفى (يوحنا الأسبانى) والثانية بقلم جيرار الكريمونى بالمكتبة الأهلية بباريس وهى ترجمة كاملة وتطابق النص العربى . راجع : الأب چورج قنواتي : الفارابى فى الفكر اللاتينى إبان القرون الوسطى (أبو نصر الفارابى في الذكرى الألفية . تصدير د. إبراهيم مدكور . ص ٣٢٧ وما بعدها .

(٣) أن « دى مورافيا » قد عرض للفارابى فى فصل من رسالته عن الموسيقى ، كما عرض له فى فصل خاص عنوانه « تقسيم الموسيقى عند الفارابى » . وقرر أن دى مورافيا نقل فى هذا الفصل كل ما كتبه الفارابى » . عن الموسيقى فى كتابه « احصاء العلوم » . ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام « ريمون لول » المتصوف الميحى الذى عاش بين سنتى ١٢٣٥ - ١٣١٥م ، وكان من المشتغلين بالدراسات العربية . وقد أشار فارمر كذلك إلى باحث آخر اسباني معاصر لريمون لول ، وهو « يوحنا الزاموري » ، وذكر أنه استعار هو أيضا تعريف الفارابى للموسيقى.

أن كتاب المعلم الثانى قد ساق الباحثين الذين تقاطروا من أنحاء الدنيا إلى أسبانيا الاسلامية - على حد تعبيره - لينهلوا من معين المؤلفات العربية فى الموسيقى ، على أيدى رجال مثل الكندى والفارابى وابن سينا وأبى الصلت وابن رشد . ومن الثابت أنه قد كان لاحصاء العلوم فى أوربا المسيحية أثر عظيم فى اثارة الاهتمام ببحث تقسيم العلوم بوجه عام ، ونظرية الموسيقى بوجه خاص .

ويبدو مما بينه الباحث « دنن بركفسكى » فى كتابه عن « اسبينوزا »[(1)] (١٦٣٢ - ١٦٧٧) ، أن للفارابى فى القرون الوسطى أثرا كبيرا على مفكرى اليهود الذين ترجموا كتبه إلى اللغة العبرية ، وأقبلوا على دراستها والانتفاع بها . ويبدو أن هذا الأثر قد امتد إلى العصور الحديثة عن طريق بعض علماء الدين من اليهود مثل : « موسى بن ميمون » و « ابن جرسون » ، حتي وصل إلى فيلسوفهم « اسبينوزا » فى القرن السابع عشر . والواقع أن من يقرأ مقدمة رسالة اسبينوزا « عن اصلاح الذهن » يسترعى انتباهه التشابه الواضح بين هذا الكتاب وبين كتاب الفارابى المسمى « فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » . إن تتابع الأفكار فى الكتابين واحد ، والباعث إلى التفلسف فيهما واحد ، بل إن المقصد الأخير فيهما واحد ، وهو معرفة الله «للتشبه به بمقدار طاقة الإنسان» ، على حد تعبير الفارابى. ونظرية النبوة عند « اسبينوزا » تكاد تكون هى عين نظرية النبوة عند الفارابى . ولا عجب فى أن يجد « اسبينوزا » فى مذاهب فلاسفة الإسلام التى ذكرها أساتذة اليهود، ما كان يعوزه عند أبناء دينه ، من مثل « بن جرسون » و « كرسكاس » و « ابراهام بن عزرا » .

وما كاد ينقضى قرن واحد على الترجمات الأولى للمؤلفات العربية ، حتى كان الرأى قد استقر عند الأوروبيين على اختيار فلسفة ابن سينا ممثلة «للفلسفة الإسلامية» : فقد ترجم « جنديسالينوس » كتاب « الشفاء » إلى اللاتينية وترجم «جيرار الكريمونى» كتاب « القانون فى الطب » ، فأصبح كتابا مدرسيا ، يعول عليه فى مختلف الكليات الأوروبية من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر . وبهذا الكتاب ارتفع شأن ابن سينا فى الغرب واتسع نطاق نفوذه ، حتى جعله شاعر ايطاليا

---

(١) اسبينوزا Spinoza فيلسوف اليهود فى التاريخ الحديث ونقطة الاتصال بين موسى ابن ميمون وديكارت . وملتقى الروحية التى تعنى بالحب والسعادة الحقة والعقلية التى تبحث عن العلة والدليل والبرهان لذا فهو يذكرنا بالفارابى وافلوطين .

راجع : د. ابراهيم مدكور ويوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ١٩٥٣ ص ١٤ .

العظيم « دانتى » فى منزلة بين «ابقراط» و « جالينوس » ، وذهب « اسكالينجر » إلى أنه قرين جالينوس فى الطب ، ولكنه أسمى منه مرتبة فى الفلسفة . . وقد بين الأستاذ « جيلسون » فى سلسلة من البحوث الممتعة ، مدى الأثر الذي كان لابن سينا فى الفكر الأوربى فى العصور الوسطى المسيحية ، كما أوضح الصلات الوثيقة بين الفيلسوف الإسلامى واللاهوتيين المنتمين إلى مذهب « القديس أوغسطين » Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠م) أكبر ممثل للنزعة الافلاطونية فى المسيحية ، وقرر أن الفلسفة الغربية فى القرن الثالث عشر عبارة عن مختلف المواقف من أرسطو وابن سينا وابن رشد : يأخذ « الأوغسطينيون » من الأفكار الجديدة طائفة يكملون بها مذهبهم مع شئ من التأويل ، وينبذون طائفة أخرى . يأخذون عن ابن سينا اشراق « العقل الفعال» إلا أنهم يضيفون لله المعانى التى يضيفها ابن سينا لعقل فلك القمر . واقترح « جيلسون» أن يطلق على هذا التيار الفكرى فى أوروبا اسم « الأوغسطينية النازعة إلى السينوية ».

وبعد « جيلسون » أقبل الباحثون الغربيون على هذا الموضوع الخطير فتوسعوا فيه وتناولوا مفكرين « مدرسيين » لم يكونوا أوغسطينيين ، فجاء الأب « دوفو » ونشر سنة ١٩٣٤ بحثا عن « السينوية اللاتينية » فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وبين فيه أن اللاهوتيين المسيحيين النازعين إلى السينوية كانوا يغترفون من منهل الفيلسوف الإسلامى ، ويتخذونه مصدرا لإلهامهم . وحاول «دوفو» أن يثبت - مستعينا بنصوص من ذلك العهد - أنه قد وجد أيضا من المفكرين من كانوا يتابعون فلسفة ابن سينا حتى فى المواضع التى تخالف العقيدة المسيحية ، وبعبارة أخري ، حاول أن يثبت أنه إلى جانب اللاهوتيين المسيحيين وجد مفكرون آخرون اعتنقوا مذهب ابن سينا ، وصرحوا بآراء سينوية مخالفة للعقيدة المسيحية ، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم الأب « دوفو » اسم «السينويين اللاتينيين » .

فإذا تساءلنا عن سبب ما كان لابن سينا من حظوة عند المسيحيين ، أجاب الأب «دوفو » أن ابن سينا كان فيلسوفاً كبيرا ، وأستاذا ملهما ، ومفكرا مبتكرا، يمتاز فكره بالأصالة وتعبيره بالوضوح ، وهذا الابتكار والوضوح هما أسباب عظمة الفيلسوف الإسلامى . والواقع أن ابن سينا كان تلميذا لأرسطو ، لكنه كان تلميذا مجدداً . وهذا التجديد نفسه هو موضع الإعجاب عند المسيحيين فى أمرين : لقد سكت أرسطو عن الكلام فى أصل الكون ، ولم يتحدث عن الله إلا قليلا ، فوجدوا ابن سينا قد كمله بعناصر مستقاة من الأفلاطونية الجديدة : فأفاض فى الكلام عن

الله والملائكة والخلق والخير والعناية ، بل أن ابن سينا حاول التوفيق بين العقل والايمان، وهو الأمر الذى كان يشغل بال المدرسيين ، لأنه كان مسلما متمسكا بدين يتفق مع تعاليم المسيحية فى كثير من الأمور ، فلم تكن أرسطيته الممزوجة بالأفلاطونية الجديدة باعثة على إعادة التفكير فى معانى « الخلق » و « العناية » فحسب ، بل أنها تركت مكانا لعقائد مثل بعث الأجساد ، أو عذاب الملعونين . وقد كان من شأن هذه الخصائص أن تجعل فلسفة ابن سينا قريبة إلى قلوب المسيحيين . ويبدو أنهم وجدوا فى آراء الفيلسوف المسلم ما كانوا يطلبون : فالعالم الذى يتصوره ابن سينا فيه للإنسان مكان، فهو على حدود الأرواح والأجسام - كحاله عند أرسطو- ولكن الجديد هو أن ذلك العالم يصدر عن علة أولى فاعلة : وإذن فللعالم تاريخ ، والله فى أصل العالم . وإذا كان ابن سينا يرى أن العالم قديم ، وأن علة الخلق هى الصدور - مما يتعارض مع العقيدة المسيحية - إلا أن آراءه قد سدت ثغرة عند أرسطو ، وكان يبدو عليه سمات قرابة من مذهب بعض المسيحيين مثل «دينيس» . وكذلك نظرية المعرفة عند ابن سينا : وجدوا فيها كل نظرية أرسطو عن النفس مضافا إليها أشياء عن الحواس الباطنة ، .وفى الوقت نفسه حسمت تردد آراء أرسطو فى «العقل الفعال» : فقد قرر ابن سينا أن العقل الفعال واحد . وأنه « مفارق » للمادة، وأنه هو العقل المحرك للفلك الأقصى . وكان يكفى أن يقول قائل أن هذا العقل المفارق هو الله ، لكى تقبل كل نظرية ابن سينا فى النفس وتنتظم فى فلسفة مسيحية : وهذا هو الحل الذى أدلى به « روجر بيكون » .

وأول مفكر مسيحى تأثر بابن سينا ، هو « جنديسالينوس » رئيس ديوان الترجمة بعد ريموند . كتب رسالة فى النفس ، بدأ فيها من ابن سينا وانتهى بأوغسطين . وقد اقتبس براهين ابن سينا عن وجود النفس ، مبينا أنها جوهر لا عرض ، وأنها خالدة وروحية ، واقتبس منه رمزه المشهور المسمى رمز « الرجل المعلق فى الفضاء» ، الذى لا صلة له بالعالم الخارجى ، ولكن فكره يكشف له أنه ذات مفكرة ، وأنها موجودة . وهو ينقل نص ابن سينا الذى قال فيه : « ارجع إلى نفسك، وتأمل . . . وهل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك . . . ولو زعمت أن ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة ، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة لا تبصر أجزاؤها ، ولا تتلامس أعضاؤها ، بل هى منفردة ومعلقة لحظة فى هواء طلق ، وجدتها قد غفلت عن كل شىء إلا عن ثبوت آنيتها » . وهذا الرمز قد ذكره كثيرون من مؤلفى العصور الوسطى المسيحية ، ولذلك كان من الممكن

أن يكون « ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) » قد اطلع عليه ، فكان له صدى فى تأملاته ولا سيما أن « الكوجيتو » الديكارتى قريب منه مؤيد له . والكوجيتو الديكارتى ، كما هو معلوم، يبين أن الذات - وهى التى أثبت صاحبها وجودها حين غفل عن كل شئ سواها - مختلفة عن بدنه ، وأن إدراكه لنفسه ومعرفته بوجود آنيته لا يحتاج إلى بدن ، والنفس ندركها إدراكا مباشرا ومعرفتها أيسر من معرفة البدن .

ولعل ما يشهد بأثر ابن سينا عند المسيحيين فى العصور الوسطى ، تلك الحملة العنيفة التى رفع لواءها « جيوم الاوفرنى » (المتوفى سنة ١٢٤٩) لمقاتلة أرسطو وأتباعه (يعنى بهم الفارابى وابن سينا والغزالى) . وهذا اللاهوتى يذكر ابن سينا فى كتبه حوالي أربعين مرة ، معارضا أقواله تارة ، ومقتبسا تعريفاته وأمثلته تارة أخرى . يأخذ تعريف ابن سينا للحق بأنه ما يكون في الذهن مطابقا لما هو عليه خارج الذهن ، ويقتبس من ابن سينا تفرقته بين «الماهية والوجود» كما يقتبس تدليله على أن النفس تدرك ذاتها بذاتها دون حاجة إلي البدن ، وهو ذلك الدليل الوارد في «الشفاء» و «الاشارات» والذى ذكرناه باسم رمز «الرجل المعلق في الفضاء» .

لكن الصورة التى رسمها ابن سينا للعالم بالعقول المفارقة والنفوس المحركة للكواكب لا يقبلها « جيوم الأوفرنى » . وبالاجمال يمكن أن يقال أنه يعارض ابن سينا فى مسائل نذكر منها : القول بأن العالم قديم ، أى ليس له بداية فى الزمان ، وأنه عن الله صدر عقل أول صدورا ضروريا ، ولم يصدر عنه سوى ذلك العقل ، وأن باقي العقول صدرت على التوالى ، كل عن الذي قبله ، وأن العقول عشرة فقط ، وأن العقل الفعال جوهره « مفارق » ، وهو العقل المفارق للفلك الأقصى ، وأن العقل الفعال هو العلة الخالقة للنفوس الانسانية ، وأن سعادة النفوس الانسانية في اتحادها بالعقل المفارق . ويكفى أن تقرأ ثبت هذه المسائل لنلاحظ أن جميعها على وجه التقريب يمكن أن يشترك فيها ابن رشد مع ابن سينا ولكن يبدو أن « الأوفرنى » كان ينسبها لا إلى ابن رشد الذى لم يكن معروفا لديه ، بل إلي ابن سينا خاصة . وقد بين « جيلسون » أن مذهب « الأوفرنى » في النفس يقوم على المذهب السينوى بعد أن نزعت عنه نظرية ابن سينا فى العقل الفعال المفارق للمادة .

ومن معاصرى « جيوم الأوفرنى » لاهوتى اسمه « اسكندر الهاليسى » الذى ألف كتابا فى اللاهوت يعيننا على أن نتبين أثر ميتافيزيقا أرسطو وميتافيزيقا

ابن سينا : نجده لا يذكر الا كتب ابن سينا ، مع أن اطلع أيضا على آراء ابن رشد ، وينسب الهاليسى إلى ابن سينا اكتشاف قوة نفسية جديدة هى التى تسمى «المتوهمة».

وحسبنا أن نذكر ما قاله جيلسون عن روجر بيكون من أنه ، يمثل تمام التمثيل « الأوغسطينية النازعة إلى السينوية » . ولكنه لم يكن شاهدا فحسب على ذلك النفوذ الذى كان لابن سينا على كثير من مؤلفى ذلك الحين ، بل يعيننا أيضا على أن ندرك كيف كان بعض أولئك يتابعون ابن سينا متابعة تتجاوز حدود التفكير المسيحى فى كثير من الأحيان .

ويضيق المقام عن سرد جميع مقابسات « روجر بيكون » عن ابن سينا ، ويكفي أن نذكر أن أهمها متعلق بمشكلة المعرفة الانسانية ، وقد بين جيلسون أن نظرية « بيكون » في الاشراق تابعة لنظرية ابن سينا فى العقل الفعال المفارق .

فاذا انتقلنا إلي « القديس توما الأكوينى » (١٢٢٥ - ١٢٧٤) وجدناه يشارك ابن سينا فى التمييز بين « الماهية والوجود » ولكى يثبت ذلك التمييز يأخذ من ابن سينا تحليله لفكرة الماهية ، وهى في المخلوقات ممكنة وليست ضرورية «واجب» . أما الموجود الوحيد الذى هو « واجب الوجود » فهو الموجود الذى ماهيته عين وجوده (أي الله) . وقد سلك « الأكوينى » في التدليل على وجود الله مسلك ابن سينا ، والدليل الثالث عنده دليل سينوى ، لأنه قائم علي التفرقة بين «الواجب » و « الممكن » ، بل أن الدليل « الأنطولوجى » المشهور - دليل القديس «أنسلم» (١٠٣٣ - ١١٠٩) - يرجع مصدره إلى مؤلفات ابن سينا . غير أن توما « الأكوينى » يأخذ على ابن سينا مسائل منها : أنه قصر علم الله على الكليات دون الجزئيات ، فأضاف إلى الله معرفة ناقصة بالوجود ، وأبطل عنايته ... وقد كانت نظريات ابن سينا عن الوجود منتشرة فى القرن الثالث عشر ، حتى أننا نجد اقتباسات منها ، في تعليقات « ديكارت » على كتاب « الحكمة » . ومنذ ذلك الحين ثبت مركز ابن سينا في الغرب .

أما « روجر بيكون » فهو يمثل تمام التمثيل ما سماه « جيلسون » باسم «الأوغسطينية النازعة إلى السينوية» . كان يرى فى ابن سينا أعظم قادة الفكر العربى ، وثانى فيلسوف بعد أرسطو وقد أعجب بيكون بما وجد عند الفيلسوف الإسلامى من قوة التدليل على خلود النفس ، والسعادة الأخروية وبعث الأجساد والخلق ووجود الملائكة .

الحق لقد أضاف ابن سينا إلى الثروة الفلسفية والعلمية اضافات جعلته من مفاخر الانسانية المفكرة .

فاذا ما انتقلنا إلى ابن رشد وجدنا أن الأعجاب بشروحه لفلسفة أرسطو كان عظيما فى أوروبا حتى سماه « دانتى » ، الشارح الأكبر » . ومن المشهور أن مدرسة « بادوا » بايطاليا كانت تنتمى إلى مذهب ابن رشد ، وأن « سيجر دو برابان » كان زعيم المدرسة الرشدية فى فرنسا ابان القرن الثالث عشر . ولقد ظل المذهب الذى نسب إلى ابن رشد متدارسا عند الأوروبيين في الكتب وفي الجامعات ، من منتصف القرن الثالث عشر حتى أوائل القرن السابع عشر .

ولابد أخيراً أن نشير إلى فضل الفلسفة العربية على الفلسفة اليهودية ، وحسبنا هنا أن نذكر أن كتب أرسطو لم تنقل إلى اللغة العبرية ، وأن اليهود قنعوا فى معرفتها بما كتب المسلمون من ملخصات وشروح . ولقد تبين للباحثين الغربيين أن أصحاب اللاهوت من اليهود قد ساروا خطوة خطوة فى أثر فلاسفة الإسلام ، وأن المفكرين الذين سبقوا موسى ابن ميمون مدينون بمنهجهم وآرائهم فى الدين لفلاسفة المسلمين ، وأن كتاب «د لالة الحائرين» لموسى بن ميمون ، وأن يكن حافلا بنقد آراء الإسلاميين ومحاولة تفنيدها والرد عليها ، إلا أن قارىء الكتاب يجد فى كل صفحة منه ما يشهد شهادة قاطعة بأهمية الفلسفة الإسلامية وبعد أثرها في الفكر اليهودى.

وبعد فما نحب أن يتسرب إلى وهم أحد من الناس أننا ننتحل الأسباب للاشادة بفضل المسلمين على غير حق . فالواقع أن كل ما أوردناه هنا فى إيجاز شديد إنما هو مقتبس من شهادة علماء الغرب فى العصور الوسطى وفي عصرنا هذا . وهى شهادة تقطع فى جملتها بأن ثقافة الغرب قد استفادت بقسط موفور من المواد التى قدمها إليها مفكرو الإسلام تحقيقاً لتواصل الحضارات . ومتى درست مذاهب فلاسفة الإسلام حق دراستها ، ومتى نشر ما لم ينشر من آثارهم ، كان لنا من ذلك نور يهدينا إلى تبين ما للفلسفة الإسلامية من منزلة جليلة فى تراث الإنسانية الفكرى .

ذكرنا من قبل - عند حديثنا عن الحياة العقلية فى الأندلس - كيف ترجمت كتب ابن طفيل وابن رشد وابن باجة إلي اللاتينية . وذكرنا أن مراكز الترجمة كانت تنحصر فى مدرسة قطلونية فى القرن العاشر ، وأشهر مترجميها الراهب « جربوتو » ، ومدرسة طليطلة ابتداء من القرن الثانى عشر ، ومن أشهر مترجميها « دومنجو جنثالث » ، المعروف بدمنيكوس جنديسالفى و «خوان هسبالنسى» . وانضم إلى هذه

المدرسة كثير من المترجمين الأوروبيين الذين وصلت إلى أسماعهم ما تزخر به طليطلة من فرائد الكتب العربية في العلوم والفلسفة ، ومن هؤلاء « جيرار الكريموني » الايطالي و « أديلارد دي باث» وغيرهما .

في القرن الثالث عشر امتزجت نظريات الفلسفة اليونانية بالفلسفة الاسلامية والعقائد المسيحية . وكان لشروح ابن رشد وتعليقاته أكبر الفضل في اتصال المدرسيين بالفلسفة اليونانية . كما عرف المدرسيون كتب ابن باجه وابن طفيل وغيرهما ممن يغلب عليهم مذهب الأفلاطونية الحديثة . وقد تجلى هذا الأثر في كتاب « الفريدوس انجليكوس » (De Motu Cordis) وفيه تظهر بعض الاتجاهات النفسية العربية . كذلك عرف « اليخاندرو دي هالس » علم « الميتافيزيقا » عند الغزالي وابن سينا . وكان « چيوم الأوڤرني » يعرف كثيرا عن الفلسفة الإسلامية ، إذ قرأ عن الفارابي وابن رشد ، وجعل من ابن رشد « أنبل وأعظم مثال للفلاسفة ».

وكان « البرتو ماجنو » أول من أدخل العلوم العربية في فلسفة المدرسيين . ويشير في موسوعته الفلسفية إلى إلمامه بآراء فلاسفة المسلمين . وكان كثير الإعجاب بهم ، وذكر أن كتب الفلك الإسلامية ليس فيها ما يناقض العقائد الكاثوليكية على عكس ما يذهب إليه من لم يطالعها . وقد بلغ به التأثر بطريقة ابن رشد أن كتب تعليقات على كتاب أرسطو في السياسة . فليس عجيبا إذن أن يلم تلميذه توما الأكويني الفلسفة الإسلامية إلماما تاما .

وكان حظ ابن رشد عظيما في أوروبا المسيحية ، لكثرة ما نشر من مؤلفاته باللاتينية ، وفقا لما ذكره رينان . وظلت آراؤه تضيء الفكر الإنساني حتي نهاية القرن السادس عشر . وظهر إلى جانبها مذهب جديد ، يعرف بالمذهب الرشدي ، وهو مذهب أخذت به المدرسة الفرنسسكانية، ودافعت عنه، وعلى رأسها «روجر بيكون» و «سيجر دي برافانت» في جامعة باريس : ويقوم المذهب الرشدي على نظريتين أساسيتين : إحداهما نظرية المخادعين الثلاثة ، وفيها يهاجم الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام . والثانية نظرية الحقيقتين ، وهي نظرية لاهوتية فلسفية ، لعلها اشتقت من آراء محيي الدين بن عربي .

وترتبط آراء محيي الدين بن عربي ، ومذهبه الفلسفي ، ارتباطا وثيقا بآراء علمين من أعلام الفكر الإنساني في القرن الرابع عشر : أحدهما « دانتي » في كتابيه « الكوميديا الإلهية La Divina Commedia » و « الحياة الجديدة » . وقد

استوحى « دانتى » ، فى كثير من العناصر التى تؤلف قصيدته الخالدة قصة الإسراء والمعراج. وثانيهما «ولوليو» فى كتبه «أسماء الله المائة»، وكتابه عن الحيوان، وكتاب «الصاحب والمحبوب» ، وكلها كتب يتجلى فيها أثر التصوف والفلسفة الإسلامية .

من رواد الفكر الفلسفى

(١) الكندى

(١٨٥ - ٢٥٣هـ) (٨٠١ - ٨٦٧م)

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن الأشعث بن معاوية بن قحطان ، ولد بالكوفة فى ١٨٥هـ/ وتوفى بالبصرة فى ٢٥٣هـ/ . توفى والده بعد مولده ولم يكن قد بلغ سن الشباب بعد ، ونشأ فى الكوفة وفى حضن اليتم وظل الجاه الزائل ، وكانت بغداد قد عفى عز ازدهارها، ثقافة وثراء ، لذلك كانت تتطلع إليها أنظار من يطمحون إلى نباهة الذكر ، بالعلم أو بالثراء أو الجاه والحفاوة لدى الخلفاء ، فكان من الطبيعى أن ينتقل الكندى من الكوفة إلى بغداد . درس الكندى فى الكوفة وبغداد والبصرة علوم الدين والفقه حيث كانت نشأته فى العلم دينية ، ثم عكف على دراسة الفلسفة والرياضيات والفيزياء والطب . ومما لاشك فيه عند كثير من المحققين أن الكندى كانت له معرفة جيدة بعدة لغات، وكان جيد النقل من إحداها إلى الأخرى فمثلا كتاب (الجغرافيا فى المعمور من الأرض) لبطليموس كان سريانيا، وقد نقله الكندى إلى العربية نقلا جيدا .

درس الكندى الفلسفة اليونانية والفارسية ، الهندية ، ودرس الهندسة والجغرافيا والموسيقى ، وكان يمزج بين الطب والموسيقى فى علاجه للأمراض ، وتحكي عنه فى هذا المجال حكايات طريفة . وكانت للكندى علاقات جيدة بأمراء العراق عامة، ونظرا لألمعيته وعبقريته الفذة فقد وقعت له أضرار متفرقة للوشاية به عند الأمراء والخلفاء حتى جلد وسجن وحجر عليه مرات . ويحكى أنه كان بخيلا حيث كان يكتنز أمواله كما يكتنز كتبه ، وكان يضع الأخيرة فى خزانة يقال لها (الكندية) .

فلسفته : لقب الكندى بفيلسوف العرب ، وبدأ متكلما ومعتزلا ، وانتهى سنيا ، وكان من أشد معارضى إخوان الصفا ، وقد بذل جهوده للتوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين الإسلام ، وإذا صح لنا التعبير فنقول إنه يستأنس الفلسفات المختلفة إستئناسا إسلاميا ، فهو محب شغوف بالفلسفة معتز ومتمسك بدينه الإسلام . وكان

الكندى من أوائل (المؤولين) الذين حاولوا التوفيق بين الوحى والعقل ، والمميزين بين حاجات العامة والخاصة .

مؤلفاته :

حقق الكندى شهرة واسعة فى أوروبا زمن العصور الوسطى ، وعدد ابن النديم والقفطى ، وابن أبى أصيبعة ، وابن نباتة مؤلفات كثيرة له ، فلم يترك مجالا من المجالات العلمية إلا وقد ألف فيه ، فقدر ابن النديم أن تصانيفه تبلغ « ٢٣٠ » من الكتب الطوال والرسائل القصار منها ٢٢ فى الفلسفة ، ١٦ فى الفلك ، ١١ فى الحساب ، ٣٢ فى الهندسة ، ٢٢ فى الطب ، ١٢ فى الطبيعيات ، ٧ فى الموسيقى، ٥ فى النفس ، ٩ فى المنطق ، ورسائل فى الأدوية المركبة وفى المد والجزر ، وبعض الآلات الفلكية ، وعلم المعادن والجواهر [(١)] .

من مؤلفاته الموسيقية والرياضية والفلكية :

(رسالة فى المدخل إلى صناعة الموسيقى) ، وقيل أنه أول من ألف فى السلم الموسيقى ، وله أيضا (رسالة في ترتيب النغم) ، (رسالة فى الإيقاع) .(رسالة فى المدخل إلى الأرثماطيقى) ، (رسالة فى استعمال الحساب الهندسى) (رسالة في الحيل العديدية وعلم أضمارها فى تسطيح الكرة) . (رسالة فى علل الأوضاع النجومية) ، (رسالة فى صنعة الاسطرلاب) .

(٢) الفارابى [(*)]

(٢٥٩ - ٣٣٩ هـ) (٨٧٢ - ٩٥٠م)

حياته : أبو نصر الفارابى هو محمد بن محمد بن طرخان ، سمى بالفارابى نسبة إلى ولاية « فاراب » من بلاد الترك فيما وراء النهر . فهو تركى المولد ، وهو بجملة ثقافته ومؤلفاته من « مؤسسى الفلسفة العربية . كان يعرف أكثر من لغة ومنها العربية والتركية والفارسية ودرس الموسيقى نظريا وعمليا . ولم يكن له من

---

(١) د. عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه . دار المعارف ط ٥ ١٩٧٣ ص ١٠٩ .

(*) لمزيد من المعرفة راجع : الفهرست لابن النديم ، وفيات الأعيان لابن خلكان ، كارادى فو فى مقاله الذى كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية ، وظهر الإسلام لأحمد أمين وأبو نصر الفارابى فى الذكرى الألفية لوفاته ٥٩٥م . الكتب العربية . تصدير د. إبراهيم مدكور ،
د. مدكور : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٠ .

أمور الدنيا أغراض حتى نبذ القضاء الذى تولاه ببلدته ، وكان يخرج فى الليل إلى الأماكن التى بها أشجار وماء ليقرأ وليعزف .

قال فيه ابن سبعين : « هذا الرجل من أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة وهو فيلسوف فيها لا غير ، ومات وهو مدرك محقق . . . . » . وقال ابن خلكان : ولم يكن فيهم (أى فى فلاسفة الإسلام) من بلغ رتبته فى فنونه . والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج ، وبكلامه انتفع فى تصانيفه » . وقال بعض المستشرقين : « وليس شىء مما يوجد فى فلسفة ابن سينا وابن رشد إلا وبذوره موجودة عند الفارابى » . وقد كان كتاب العرب يعدون الفارابى أكبر العلماء بعد أرسطو ، لذا فقد أطلقوا عليه اسم «المعلم الثانى»

ويقول عنه العقاد : إن فلسفة الفارابى فلسفة إسلامية لا غبار عليها ، فلم يرى فيها جمهور المسلمين المعنيين بالبحث الفكرى جرحاً ولا موضع ريبة ، ولا نخالها تغضب متدينا بالإسلام أو بغيره من الأديان .

كان الفارابى مولعا بالأسفار منذ صباه : تنقل فى بلاد الإسلام حتى دخل بغداد ، فتلقى الفلسفة على أستاذ نصرانى هو يوحنا بن حيلان فى حرّان . وكان من زملائه فى التلمذة أبو بشر متى بن يونس ، المشهور بترجمته للكتب اليونانية . ثم أرتحل إلى حلب ، واتصل بالأمير الحمدانى سيف الدولة ، ونال الحظوة عنده، ولبس لباس أهل التصوف ، ثم صحب الأمير إلى دمشق فى حملته عليها سنة ٩٥٠م ، ووافته المنية هناك ، وقد ناهز الثمانين من عمره . وأظهر ما يستوقفنا فى حياة الفارابى أنه كان يميل إلى التأمل والنظر ، ويؤثر العزلة والهدوء . بدأ شبابه متفلسفا، وختم حياته متصوفا .

ألف كتبا كثيرة إلا أنه أشتهر بين العرب بشروحه لفلسفة أرسطو [(١)] ، كما ألف طائفة من الرسائل أوضح فيها فلسفته الخاصة : كفصوص الحكم » و «احصاء العلوم» و «الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون وأرسطو» و «آراء أهل المدينة الفاضلة»

---

(١) يستعمل الفارابى طريقة الشرح الكبير وتدل هذه الطريقة على احترام نصوص القدماء لا على تبعيتها وتقليدها وتقديسها . وهى طريقة تعلمها المسلمون من شروحهم للقرآن كما تدل على التمايز الحضارى . فالنص المشروح نص القدماء ، والشرح نص جديد من حضارة أخرى تفهم وتفسر وتؤول وتتمثل ثم تراجع وتفيد النظر وتكمل ما نقص . كما تدل على إمكانيات المقارنة راجع : د. حسن حنفى : الفارابى شارحا أرسطو الكتاب التذكارى . الفارابى فى الذكرى الألفية لوفاته ص ٦٤ .

و «تحصيل السعادة» ، وغيرها . وقد كانت للفارابى معرفة بالطب ، وكانت له مواهب بارزة فى الموسيقى : علما وفنا . وقد كتب أشهر رسالة فى نظرية الموسيقى الشرقية. ويذكرون من براعته فى هذا الفن أنه صنع آلة موسيقية ، شبيهة بالقانون ، عزف عليها مرة ، فأضحك الحاضرين ، وعزف عليها مرة ثانية ، فأبكاهم ، وعزف مرة ثالثة، فأنامهم ... ثم انصرف ! ولقد أعجب سيف الدولة بمواهب الفارابى فى الموسيقى، وما زال الدراويش « المولوية » يحتفظون فى أغانيهم ببعض الأنغام المنسوبة إلى ذلك الفيلسوف الفنان .

فلسفته : التوفيق بين أفلاطون وأرسطو :

كان الفارابى يرى أن الفلسفة اليونانية فلسفة واحدة فى صميمها ، لا اختلاف بين مذاهبها وقضاياها . ولما كان أفلاطون وأرسطو ، فى نظره ، الإمامين الممثلين للفلسفة اليونانية ، فمذهباهما عنده مذهب واحد على الحقيقة . وإذا كانت هنالك مسائل كثيرة يظهر الخلاف فيها بين الفيلسوفين ، فالفارابى لايعده خلافا جوهريا ما دام الاتفاق واقعا على الأصول والإتجاهات ، وإنما يسلم الفارابى باختلاف أفلاطون وأرسطو فى أمرين : فى منهجهما التعليمى ، وفى سلوكهما العملى . أما من حيث المنهج ، فالفارابى يلاحظ أن أفلاطون لم يدون كتبه إلا أخيرا ، وأنه عمد فى كلامه إلى الرموز والإشارات صونا للحكمة ، وضنا بها على من لم يكن من أهلها ، فى حين أن أرسطو جرى على منهج التقرير والتدوين ، والإيضاح والتبيين . وأما من حيث السلوك العملي ، فأفلاطون فى نظره رجل تزهد وتخلى عن الدنيا وشواغلها ، فى حين أن أرسطو رجل أقبل على الدنيا والتمس أسبابها وخيراتها .

وقد يعجب القارىء للفارابى كيف تورط فى نظريته فخلط بين مذهبين متعارضين كالمذهب الأفلاطونى والمذهب الأرسطى ، وأحدهما مذهب « مثالى » ممعن فى المثالية ، والثانى مذهب « واقعى » يريد أن يخفف من غلواء المثالية الأفلاطونية! أفلاطون رأى أنه لا وجود للأفراد والمحسوسات لأنها متغيرة ، وإنما الموجود حقيقة هو « المثال » أى المعنى الكلى العام المجرد فالمعنى الكلي للانسان ، أو « مثال » الانسان ، هو « الماهية » الثابتة للناس علي اختلافهم . وبهذه المثالية أقام أفلاطون مذهبه أما أرسطو فرأى - خلافا لأستاذه - أن الموجود عنده هو الأفراد المحسوسة نفسها . فمثلا سقراط هو سقراط ، بما يخصه ويميزه ممن عداه من الناس لا بما يشترك فيه جميع الناس ، ولذلك كان أرسطو فى فلسفته أقرب إلى « الواقع » الملموس ، فى حين أن أفلاطون كان محلقاً فى « عالم المثل » .

وهذا ما فات الفارابى أن يراه من تعارض بين مذهبى الفيلسوفين . ولكن يبطل العجب إذا علم السبب ، وهو أن الفارابى فى محاولته التوفيق بين رأى الفيلسوفين استشهد بكتاب أثولوجيا أرسطو طاليس . وهذا الكتاب هو شذرات من كتاب « التا سوعات » للفيلسوف السكندرى «أفلوطين» شيخ الأفلاطونية الجديدة .

التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام :

الفارابى كان فيلسوفا ومسلما فى آن واحد ، فالفلسفة والدين عنده أمران متفقان: فالفلسفة والدين يعبران عن حقيقة واحدة . يلجأ الدين إلى طرق التخيل والاقناع النفسى وتلجأ الفلسفة إلى المعقولات والبرهان المنطقى ، وبينما الفلسفة بطبيعتها تتجه إلى «الخاصة» ، أو إلى « أصحاب الأذهان الصافية » - كما يقول الفارابى - نجد الدين إنما يتجه إلى « الكافة » .

الفلسفة عند الفارابى: ليست علما جزئيا، كعلوم الرياضة، والطبيعة، والطب ، وما شاكلها ، وإنما هى علم « كلى » يرسم لنا صورة شاملة للكون فى مجموعة . وهذا ما قال به فلاسفة اليونان من قبل . ولكن الفارابى يزيد على فلاسفة اليونان رأيا ، فيقول : أن الفيلسوف الكامل » هو الذى يحصل هذا العلم الكلى ، ويكون له فى الوقت نفسه قدرة على استعماله ، يعنى أنه هو ذلك « الذى يحصل الفضائل النظرية أولا ، ثم الفضائل العملية ببصيرة يقينية » أما الفيلسوف الباطل فهو ذلك « الذى يشرع فى أن يتعلم العلوم من غير أن يكن أهلا للعلم . والفارابى يرى أن للشروع فى النظر الفلسفى شروطا ينبغى توافرها . وهى محبة الصدق والعدل والخير ، وتصفية النفس من شوائب المادة وشواغل الحواس ، وينبغى أن يكون له بالفطرة استعداد للعلوم النظرية ، وهى الشروط التى ذكرها أفلاطون فى كتابه فى السياسة (كتاب « الجمهورية ») : وخلاصتها أن يكون جيد الفهم والتصور ، ثم أن يكون بالطبع محبا للصدق وأهله والعدل وأهله ، غير جموح ولا لجوج فيما يهواه ، وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب ، تهون عليه بالطبع الشهوات والدرهم والدينار وما جانس ذلك ، وأن يكون كبيرا عما يشين عند الناس ، وأن يكون ورعا، سهل الانقياد للخير والعدل ، عسر الانقياد للشر والجور ، وأن يكون قوى العزيمة على الصواب . وأن يكون قد رُبى على عادات تشاكل ما فطر عليه ، وأن يكون صحيح الاعتقاد لآراء الملة التى نشأ عليها ، متمسكاً بالأفعال الفاضلة ، غير مخل بكلها أو بمعظمها . . . » .

والفيلسوف الباطل هو ذلك الذى « يتعلم العلوم النظرية ، وهو دوماً تابعا لهواه وشهواته فى كل شىء » . ورجل كهذا ، لم « يشعر » بالغرض الذى التمست له الفلسفة . . . فحصل على الفلسفة النظرية أو على أجزاء من النظرية فقط ، وظن هذا كافيا ، بل لعله ظن أن الغرض مما حصل منها أن ينال سعادات وخيرات ، « فأقام علمها طلبا لذلك ، وطمعا فى أن ينال بعض ذلك الغرض » . وهذه الحدود والتعريفات تبين ، لأول مرة فى تاريخ الفكر الفلسفى العربى ، أن للفلسفة مهمة « جوانية » أصيلة ، إذ توحد بين البصر و « البصيرة » ، وتؤلف بين النظر والعمل، حين تجعل الفعل منبثقا عن الفكر انبثاقا طبيعيا لا قسر فيه ولا إعنات . وتذكرنا هذه الأفكار للفارابى بأفكار شبيهة لها سيوردها الفيلسوف الأوروبى «سبينوزا» حيث تأثر بآراء الفارابى تأثرا لا نزاع فيه . ولعل الفارابى أراد أن يحيا على وفاق مع المبادىء التى وضعها فى مذهبه ، وحاول أن يكون فيلسوفا فى سره وعلانيته ، وفى فكره وسلوكه . وواضح من تأملات الفارابى أن للفلسفة أهلها «الموطأين» نحوها ، أى المستعدين لها . وليس كل حافظ للعلوم فيلسوفا ، ومن اشتغل بالفلسفة طمعا فى جاه أو رياسة أو مال ، فهو « برانى » دخيل عليها ، وليس من أهلها على الحقيقة ، وإنما هو - على قول الفارابى - فيلسوف « زور » ، و « بهرج » ، و « باطل » ، وخليق به أن ينبذ من زمرة «الخاصة» المصطفين ، وأن يكون فى عداد الدجالين المهرجين . . .

مدينة الفارابى الفاضلة :

كان الفارابى معنيا بالسياسة أيضا (١) ، لذا كان يحلم بتنظيم العالم تنظيما شاملا يجعل منه دولة مثالية ، على غرار جمهورية أفلاطون ، أو « مدينة » صالحة عاقلة ، تكون رياسة الحكم فيها لفيلسوف قد صفت نفسه حتى كاد أن يكون نبيا . فعبقرية الفارابى السياسية تقوم على جمعه بين التراث اليونانى عند أفلاطون وأرسطو وبين التراث الإسلامى متمثلاً فى الدولة الإسلامية وشريعتها المثالية ، واخراجه فِهما نسقاً فكريا متميزاً ، قدم نموذجاً تاريخياً للاتصال الحضارى بين القديم والحديث .

والمدينة الفاضلة التى ينشدها الفارابى هى نموذج لمجتمع انسانى « متمدن »

---

(١) للمزيد يمكن الرجوع إلي الفارابى ونظم الحكم فى القرن العشرين للدكتور محمد عبد المعز نصر بالكتاب التذكارى أبو نصر الفارابى في الذكرى الألفيه لوفاته ص ٢٢٦ .

راق ، يؤدى كل فرد فيه وظيفته التى تلائم كفاياته واستعداده . وأفراد المجتمع - كأعضاء البدن - متضامنون متعاونون على الأشياء التي تصل بهم إلى السعادة الحقيقية والخير الأفضل والكمال الأقصى . وهم جميعا يخضعون لرئيس المدينة، ويتشبهون به ، لأن ذلك الرئيس قد أوتى من الخصال الرفيعة ما يصعب تحققه فى عامة الناس : فهو سليم البنية ، جيد الذهن ، ثاقب الذكاء ، حاضر البديهة ، ماضى العزيمة ، حصيف صادق ، عادل نزيه ، متجرد عن المادة ، مؤثر للذائذ الروحية . لأن الرياسة تكون بشيئين : بالفطرة والطبع معدا لها ، وبالهيئة والملكة الإرادية . . . لهذا هو الإمام ، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة .

وتذكرنا الخصال التى يتحلى بها رئيس المدينة عند الفارابى بالصفات التى أضفاها الرواقيون على « الحكيم » الحائز لجميع الفضائل . . . ولما كان الحكيم الرواقى شخصا يعسر تحققه على الأرض ، فرئيس المدينة عند الفارابى ، شخص يعسر وجوده كذلك . ولكنه يضيف إلى خصال الرئيس خصلة أخرى نادرة : وهى قدرته على الاتصال « بالعقل الفعال » . وقد سمى ذلك العقل عقلا فعالا للدلالة علي تفوقه على العقل الانسانى الذى « ينفعل » به ويستفيد منه . فلا جرم أن تكون غاية العقل الانسانى وسعادته فى أن يتصل بالعقل الفعال ، وبهذا الاتصال يقترب الانسان من الله . وليس كل إنسان قادراً على هذا الاتصال بالعقل الفعال ، وإنما يستطيعه القليلون من أهل الصفاء الذين لم يشغلهم عالم المادة عن عالم الروح ، فسعوا إلي اختراق حجب الأرض ، وتطلعوا إلى اجتلاء أنوار السماء .

وأهل الصفاء عند الفارابى فريقان فريق الأنبياء وفريق الفلاسفة ، وكل من الفريقين يستطيع ، على طريقته الخاصة ، أن يجتلى تلك الأنوار ، حين يتصل بالعقل الفعال : فما يستطيعه الفيلسوف بالنظر العقلى والتأمل الميتافيزيقى (المجاورة للمادة) يستطيعه النبى بمخيلة ممتازة وقوة قدسية أودعها الله فيه . والنبى والفيلسوف - فيما يرى الفارابى - هما أجدر الناس بتولى رياسة المدينة الفاضلة ، لأنهما ينهلان من منهل واحد رفيع ، ويرميان إلى غاية واحدة سامية ، ولأن كليهما بمواهبه الخاصة واستعداده لتلقى الأسرار الإلهية ، يستطيع الاتصال بالعقل الفعال، منبع الوحى والإلهامات السماوية ، ومصدر الشرائع الضرورية لسير الجماعات البشرية. والفلسفة والوحى كلاهما ثمرة من ثمرات الجود الإلهى ، يفيضهما الله على من يشاء من عباده الصالحين .

السعادة العليا هى الخير الأسمى : يرى الفارابى أن المدينة الأرضية ، غايتها هى تدرج فى السعى للوصول إلى السعادة العليا وهى الخير الأسمى الذى يمكن أن تناله النفوس الزكية فى العالم الآخر . بحيث تصير نفس الانسان من الكمال فى الوجود فلا تحتاج فى قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام، وفى جملة الجواهر المفارقة للمواد، وأن تبقى على تلك الحال دائما... »! فالنفوس الخيرة العارفة هى التى تبقى وتدخل العالم العقلى . وكلما زادت درجتها فى المعرفة والفضيلة فى هذه الحياة علا مقامها بعد الموت ، وزاد حظها من السعادة فى الحياة الأخرى . وكلما كثرت الأنفس المتشابهة ، « المفارقة » للمادة ، واتصل بعضها ببعض ، كما يتصل معقول بمعقول ، زاد التذاذ اللاحقين بالماضين ، وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم » ، لأن كل نفس تعقل ذاتها وتعقل النفوس الأخرى المشابهة لها ، وكلما زاد تعقلها زادت لذائذها . وتكون حال كل طائفة مضت وكل طائفة لحقت على مدى الزمان إلى غير نهاية .

والظاهر من هذه النظرية فى السعادة أن الفارابى أراد أن يقول أنه حين الخروج من هذه الدنيا تذهب النفوس أفواجا لتلتقي بمواكب الراحلين السابقين ، وتتحد بها اتحادا عقليا ، إذ ينضم كل شبيه إلى شبيهه . وبهذا النحو من انضمام الروح إلى الروح تزيد لذات الغابرين والوافدين . فكرة فلسفية اسلامية طريفة ، تحتاج إلي فنان يقف عندها يستوحيها ، تحتاج إلى شاعر ينظمها قصيدة بارعة ، أو إلى موسيقى يصوغها لحنا جميلا ، أو إلى رسام يجعل منها آية فنية تسر الناظرين .

الفارابى إذن فيلسوف جمع بين مزيتين : الإيمان بالدين والإخلاص للفلسفة . وبهاتين المزيتين حاول أن يوفق بين لغتين ، لغة العقل ، ولغة القلب ، وهما - عنده -لغتان مفهومتان ، ضروريتان للإنسانية التى تريد أن تسمو على نفسها .

مؤلفات الفارابى :

كانت حياة « المعلم الثانى » الفكرية حياة خصبة . بلغت مصنفاته ومؤلفاته من الكثرة ما جعل المستشرق الألمانى « اشتينشنيدر » يخصص لها مجلدا ضخما . ولكن أغلب هذه المصنفات قد ضاع ، ولم يبق غير أربعين رسالة ، منها ٣١ باللغة العربية ، و٦ بالعبرية ، واثنتان باللاتينية [١] .

---

(١) راجع بروكلمان : « تاريخ الأدب العربى » ، ط ١ ص ٢١٠ - ٢١٣ .

على أن القسم الأكبر من كتب الفارابى شروح وتعليقات على فلسفة أرسطو مثل «المقولات» ، وكتاب «التحليلات الأولى والثانية» ، وكتاب «المواضع الجدلية»، وكتاب « السفسطة » ، وكتاب « الخطابة » ، وكتاب « الشعر » (أعنى مجموعة مباحث « الأورجانون » أو المنطق الأرسطى . وقد صنف الفارابي تعليقات وشروحا أخرى نذكر منها شرحه على كتاب أرسطو فى «علم الأخلاق إلى نيقوماخوس» ، وشرحه على «مقالة النفس» للاسكندر الأفروديسي. ومما علق عليه من كتب العلم كتاب « العلم الطبيعى » ، وكتاب « الآثار العلوية » ، و «رسالة النفس والعالم » لأرسطو ، وكذا كتاب « المجسطى » لبطليموس .

لكن همة الفارابى لم تقف عند شرح النصوص أو التعليق عليها : فقد ألف عدداً لا بأس به من الكتب والرسائل شرح فيها آراءه الخاصة ، ونذكر منها كتاب «العقل والمعقول» ، وكتاب «الواحد والوحدة» ، وكتاب «الجوهر» ، وكتاب «الزمان»، وكتاب «الجوهر» ، وكتاب «الخلاء» ، وكتاب «المكان». وبدار الكتب المصرية مخطوط للفارابى بعنوان : «صناعة علم الموسيقى» (تحت رقم ٥١٢ فنون جميلة) .

والمطبوع من كتب الفارابى بالعربية كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » : نشره المستشرق الألمانى « ديتريسى » فى مدينة ليدن سنة ١٨٩٥ ، وللكتاب طبعات أخرى فى مصر وغيرها . وقد نشر ديتريسى بضع رسائل أخرى للفارابى ، وطبعها بعنوان « الثمرة المرضية فى بعض الرسائل الفارابية » (ليدن سنة ١٨٩٠). وتحتوى هذه المجموعة على الرسائل التالية : « كتاب فى الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون وأرسطو و « كتاب فى أغراض الحكيم فى كل مقالة من الكتاب المرسوم بالحروف » ، و « مقالة فى معاني العقل » ، و « رسالة فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » ، و « عيون المسائل » ، و «فصوص الحكم» ، و « رسالة فى جواب مسائل سئل عنها» و «نكت أبى نصر الفارابى فيما يصح ولا يصح من أحكام النجوم». وقد نشرت هذه المجموعة أيضا فى القاهرة ، وطبعت أحيانا بتمامها وأحيانا فى أجزاء منها (« مجموعة أبى نصر الفارابى» القاهرة سنة ١٩٠٧ ، و « مبادىء الفلسفة القديمة » ، القاهرة سنة ١٩١٠) . على أن الرسائل الثلاث الأخيرة قد طبعت فى الهند بعناوين مغايرة ، وهى « كتاب الفصوص » ، (حيدراباد سنة ١٣٤٣ هـ) و « رسائل فى مسائل متفرقة » (حيدر اباد سنة ١٣٤٤ هـ) و «رسالة فضيلة العلوم والصناعات» (حيدراباد سنة ١٣٤٠ هـ) .

وهنالك جملة من الرسائل مطبوعة أيضا فى الهند بمدينة حيدراباد بين سنتى ١٣٤٤ ، ١٣٤٦ هـ، وهى « السياسات المدنية » (سنة ١٣٤٦هـ) ، و « التنبيه على سبيل السعادة » (سنة ١٣٤٦هـ) ، و « تحصيل السعادة » (سنة ١٣٤٥هـ) و «رسالة فى أثبات المفارقات» (سنة ١٣٤٥هـ) ، و «التعليقات». (سنة ١٣٤٦ هـ) .

ولا يفوتنا أن نذكر كتاب « احصاء العلوم [١] ، الذى نشرت طبعته الأولى بالقاهرة سنة ١٩٣١ ، وطبعته الثانية بالقاهرة سنة ١٩٤٨ ، وكذلك الطبعة التى نشرها «بلانسيه» فى مدريد سنة ١٩٣٢ وقد طبع الأب بويج للفارابى : « رسالة العقل » (بيروت سنة ١٩٣٨) . كما سبق أن ذكرنا أن الأب چورج قنواتى كتب بحثا عنوانه الفارابى فى الفكر اللاتينى ابان القرون الوسطى ضمن مجموعة البحوث المنشورة فى الكتاب التذكارى « أبو نصر الفارابى فى الذكرى الألفية لوفاته .٩٥م تصدير د. إبراهيم مدكور . نشرته الهيئة العامة للكتاب .

(٣) الشيخ الرئيس ابن سينا

(٣٧٠ - ٤٢٨هـ) (٩٨٠ - ١٠٣٦م)

ابن سينا الملقب بالشيخ الرئيس وأرسطو الإسلام ، ولد سنة ٣٧٠ هـ فى قرية أفشنة قرب بخارى بفارس . تفلسف فى سن مبكرة ، فحين أكمل العاشرة أتى على القرآن وعلى كثير من الأدب ، ثم تعلم الحساب والفقه والمنطق والهندسة والطب . كان مطلقاً بطريقة تفوق الوصف حتي استوعب كل ثمار الثقافة المصرية والفارسية والهندية في عصره وقدم لنا مادة غزيره في كل مجالات المعرفة بدرجة نخار أمامها العقول [٢] وحين بدأ مطالعة ما بعد الطبيعة ، أى العلم الذى يبحث فى أصل الموجودات لم يفهم شيئا ، وكان الكتاب الذى يطالعه هو كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو . يقول ابن سينا أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظا ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا أفهم المقصود به وأيست من نفسى وقلت «هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه» فحضرت يوما وقت العصر فى الوراقين فتقدم دلال بيده مجلد ينـادى عليه فعرضه على وقال لى اشـتر هذا الكتاب فصاحبه محتاج إلى ثمنه وهو رخيص فاشتريته بثلاثة دراهم فإذا هو كتاب الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة لأرسـطو . ورجعت إلى دارى وأسـرعت فى قراءته فانفتحت علي فى الوقت أغراض ذلك الكتاب . وفرحت بذلك وتصدقت فى

---

(١) أبو نصر الفارابى : احصاء العلوم تحقيق د. عثمان أمين . دار الفكر العربى القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) د. عاطف العراقى: الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا. دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٨٣ ص ٣٧ .

اليوم الثانى بشئ كثير على الفقراء . لماذا فرح ابن سينا هذا الفرح كله ؟ إن كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو يبحث فى العلة الأولى أى يبحث فى السبب الأول للموجودات جميعا . وكان يسميه المحرك الأول ويدلل على وجوده بمنهج فلسفى وليس بمنهج دينى، بالعقل وليس بالوحى . واستعان ابن سينا بهذا المنهج الفلسفى العقلى فى فهم مشكلة من أخطر المشكلات الدينية وهى مشكلة خلق الله للعالم . وقد كانت هذه المشكلة مطروحة على النحو التالى : كيف يمكن لله وهو واحد أن يخلق الكثير ، أن يخلق هذه الموجودات التي تكون فى مجموعها هذا العلم الذى نعيش فيه ؟

إن هذه المشكلة لم تكن واردة فى عقل فيلسوف مثل أرسطو . ومع ذلك فقد أبدع ابن سينا فى حل هذه المشكلة ، ففى رأيه أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ويسميه ابن سينا العقل الأول . والكثرة تبدأ فى هذا العقل . ذلك أن هذا العقل الأول يعقل نفسه ويعقل الله . وهو حين يفعل ذلك يصدر عنه عقل ثان ومن العقل الثانى يصدر عنه عقل ثالث وهكذا تصدر العقول بعضها عن بعض ويصدر معها نفوس وأجسام حتى نصل إلى العقل العاشر الذى عنه يصدر هذا العالم المادى. ومعنى ذلك أن العالم مخلوق ولكنه قديم. ومعنى ذلك أيضا أن خلق العالم ضرورى. وهذه الضرورة تحكم كل ما يحدث فى العالم . ولهذا يقول ابن سينا « لو أمكن لإنسان من الناس أن يعرف الحوادث التى فى الأرض والسماء جميعا وطبائعها لفهم كيفية ما يحدث فى المستقبل » . ومن هنا لم يكن غريبا على ابن سينا أن يؤلف فى العلوم كلها تأليفا علميا يستند إلى التجربة والعقل ويخلو من الأساطير والخرافات ، وقد بين الأستاذ جيلسون Gilson أن الفلسفة فى القرن الثالث عشر كانت عبارة عن مشتقات من ثلاثة فلاسفة : أرسطو وابن سينا وابن رشد ، وأن مذهب القديس أوغسطين لم يكن سوى اختيار بين آراء هؤلاء الثلاثة. كما أثبت الأب دى فو R. de Vause أن كثيرين من اللاهوتين المسيحيين اتخذوا فلسفة ابن سينا مصدراً لإلهامهم. وممن تأثروا بابن سينا الاسكندر الهاليسى (١١٧٥ - ١٢٤٥م) وهو أستاذ إنجليزى بجامعة باريس ، والقديس أنسلم (١٠٢٣ - ١١٠٩) وديكارت (١٢٦٠ - ١٣٢٧) في تعليقه علي كتاب الحكمة ، واقتبس منه القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ - ١٢٧٤) التمييز بين الماهية والوجود [١] .

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٥٦٩ وأيضا :

R. Bacon : Arabic thought p. 290.

ولم يقنع ابن سينا بالتأليف فى علم دون آخر فقد روى أحد تلاميذ ابن سينا القصة التالية : كان ابن سينا جالسا يوما بين يدى الأمير وأبو منصور حاضر . فجرى فى اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها فالتفت أبو منصور إلى الشيخ وقال « أنت فيلسوف ، وحكيم ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضى كلامك فيها « فاستنكف الشيخ من هذا الكلام وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، حتى بلغ فى اللغة طبقة قلما يتفق مثلها وأنشد ثلاث قصائد ، وكتب ثلاثة كتب ، ثم أوعز إلى الأمير بعرض هذا الكتب على أبى منصور بدعوي أنه قد عثر عليها فى الصحراء فنظر فيها أبو منصور ولكنه لم يفهم كثيرا مما فيها فقال له الشيخ إن ما تجهله من هذه الكتب مذكور فى الموضوع الفلانى من كتب الفقه ، ففطن أبو منصور أن هذه الكتب من تصنيف الشيخ نفسه وأعتذر إليه .

وابن سينا بالاضافة إلى كل هذا قصاص ومن بين قصصه « رسالة الطير » وهى صورة لحياة ابن سينا . يحكى أن جماعة من الصيادين ذهبوا لاصطياد الطير ، وبعد أن نصبوا شباكهم وقع الطير فيها ، وكان مما وقع فيها مؤلف هذه القصة . وأخذت الطيور تتعذب فى أسرها وتحاول الهرب ، وبعد محاولات كثيرة أمكن لبعضها الهرب. وهذه الطيور المتحررة أخذت تستدعى الطيور المحبوسة وتعلمها كيفية الخلاص . ثم سارت الطيور المتحررة هذه قدما تطير بسرعة وتواجه الصعاب فى طيرانها إلى أن وصلت إلى ثمانية جبال عالية وتعبت كثيرا فى الوصول إلى قممها ، وبعد أن قطعتها كلها وصلت إلى قصر الملك العظيم ، فسمح لها بالمثول بين يديه فشكت له ما أصابته من العناء فى أسرها وطيرانها ، والقصة كلها رمزية ترمز إلى أن النفس الانسانية خيرة بطبعها ولكنها وقعت فى شراك الشهوة فأفسدتها .

مات ابن سينا عن ثمانى وخمسين عاما فى سنة ٤٢٨ هجرية ١٠٣٧م ولكنه لم يمت إلا بعد أن أبدع فى الفكر الانسانى المرتبط بالدين وذلك لأن القضية المشتركة بين كل من الفكر الإسلامى والفكر المسيحى هى محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين، بين العقل والإيمان وقد أبدع ابن سينا فى تحقيق هذا التوفيق وكان هذا لحساب العقل والعلم . ومن أهم مؤلفاته :

(١) **الشفاء** : أعظم كتبه فى الفلسفة على الاطلاق ، ومن الكتب الخالدة فى تاريخ الفكر الفلسفى، جمع فيه ابن سينا جميع العلوم الأربعة . وصنف طبيعياته وإلهياته فى عشرين يوما بهمذان ، ثم وضع فى آصفهان المجسطى، والآرثماطيقى

والموسيقى . وانتهى من قسم الحيوان والنبات فى السنة التى توجه فيها علاء الدولة للقاء سالو رخواست . وهو أهم الكتب التى نقلت إلى لغات أخرى ، اللاتينية والفارسية والانجليزية والفرنسية [١] .

(٢) **النجاة** : ملخص الشفاء . وقد ترجم قسم الإلهيات إلى اللاتينية كما ترجم المنطق إلي الفرنسية وترجم محمود حفنى قسم الموسيقى إلى الألمانية .

(٣) الاشارات والتنبيهات (٤) دانش نامة علائى Dainesh - Name

(٥) الهداية (٦) عيون الحكمة [٢] .

(٤) ابن حزم الأندلسى

(٣٣٣ - ٤٥٧ هـ) (٩٤٤ - ١٠٦٤ م)

هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، ولد عام ٩٤٤ ميلادية فى قرطبة ومات عام ١٠٦٤م . وابن حزم صاحب ذهن حاد نادر، فلما جادت به الأندلس في جميع عصورها حسب رأى الكثيرين من النقاد . يوصف بأنه أحد كبار العلماء وبأنه من أعظم علماء الأندلس ومن أكبر المفكرين المبتكرين المسلمين فيها . وكان غزير الانتاج متعدد المواهب ، لمع اسمه فى الفلسفة والدين والشعر والأدب والتاريخ والمنطق .

ويتبين الباحث فى آثار ابن حزم مدى ما يتمتع به من دقة فى الملاحظة ، ونفاذ فى البصيرة ، وعمق فى الفهم . وقد ذكر ابنه أبو رافع ، وأيده فى ذلك كل من ابن خلكان والقفطى ، أن عدد مؤلفات ابن حزم بلغ ..٤ كتاب جاءت فى ثمانين ألف صفحة كبيرة . وإن ما وصلنا منها مطبوعا أو مخطوطا لا يبلغ على كثرته إلا نسبة قليلة من مجموع ما كتب . وقام دى سلان (De Slane) بترجمة مقالة ابن خلكان عن ابن حزم إلى الإنجليزية.

لا غرابة فى أن ينبغ ابن حزم فى البيئة التى نشأ فيها فى قرطبة ، فقد نشأ وترعرع فى بيت عريق بالمجد والسؤدد حافل بالعلم والأدب . وإنما الغرابة هى أن يكون العصر هو هذا العصر ، والبيئة هى هذه البيئة وإن لا ينبغ فيهما مفكر وفيلسوف . ولعل أبرز خصائص ابن حزم الفكرية ، وهو الأمر الذى يميزه عن كثير من

---

(١) د. عاطف العراقى : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص ٤٣ .

(٢) المراجع السابق : ص ص ٤٧ - ٥٤ .

الذين فتحوا آفاقا علمية واسعة ، أنه انصرف إلى العلم بكل ما أوتى من عزيمة وكفاءة، وأخلص له فلم يخلط به مأربا آخر .

ومن أشهر كتب ابن حزم « **طوق الحمامة** » الذى حققه العلامة الهولندى الكبير دوزى (Dozy) وهو الكتاب الذى ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية كالإنجليزية والألمانية . وفى هذه الرسالة الممتعة عن الحب التى ضمنها ابن حزم آراءه النفسانية ، ونوادر مقتبسة من خبرته وخبرات المعاصرين له ، لا يرينا دخائل نفسه فحسب ، بل ويلقى ضوءا على هذه الناحية التى لا يعرف عنها سوى النزر اليسير فى زمانه ، فهو يدافع فيها عن الحب الأفلاطونى . وكانت نسخة واحدة يتيمة من هذا الكتاب قد عثر عليها المستشرق بتروف (Petrof) ، فأحدث اكتشافها دويا هائلا فى الأوساط الأدبية ، ونشرها مع مقدمة لايدن (Leiden) عام ١٩١٤ ، ثم نشرت مترجمة إلى الفرنسية فى باريس عام ١٩٣١ .

ومن كتب ابن حزم التاريخية لا يزال كتاب « **نقط العروس فى تواريخ الخلفاء** » موجودا ، وهو رسالة لطيفة جمع فيها أخباراً تاريخية مفيدة وإحصاءات طريفة عن الخلفاء المسلمين ، وقد ترجمت للأسبانية فى غرناطة عام ١٩١١ . وهناك أيضا « **جمهرة أنساب العرب** » وهو دراسة شاملة للقبائل العربية وانتشارها . وتوجد مخطوطة من هذا الكتاب فى مسجد الزيتونة فى تونس ، كما توجد مخطوطة ثانية فى مدريد .

أما أشهر مؤلفاته فهو « **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** » فى خمسة مجلدات، وهو المؤلف الذى دعا فيه إلى الاعتماد على العقل والركون إلى العلم الصحيح . وقد أفرد فى هذا الكتاب فصلا خاصا لنظرية المعرفة التى سبق ابن حزم الفيلسوف كانت (Kant) بعرضها بحوالى سبعة قرون ونصف ، فهو يرى أن المعرفة تكون أولا بشهادة الحواس ، وثانيا بالعقل من غير حاجة استعمال الحواس الخمس ، وثالثا ببرهان راجع إلى شهادة الحواس والعقل . وقد قام العلامة الهنغارى الكبير جولد تسهاير (Goldziher) بتحليل مبادىء ابن حزم هذه في كتابه « دى زو هيرتين » (De zu Herten) الصادر فى ليبزج (Leipzig) فى ألمانيا عام ١٨٨٤ . وقد قام أيضا الباحث الألمانى الكبير شرينير (Schreiner) بتحليل فلسفة ابن حزم فى أحد أعداد مجلة الجمعية الألمانية الشرقية . كما تولى المستشرق (دوزى) إيجاز محتوياته فى الجزء السادس فى مجلد ليدن . ومن رسائله التى

ترجمت إلى اللغة الاسبانية رسالته المسماة كتاب «**الأخلاق والسير فى مداواة النفوس**» ، وهى الرسالة التى قام المستشرق الأسبانى المعروف ميجيل آسن (Miguel Asin) بنشرها فى مدريد عام ١٩١٦ ، كما نشرت عدة مرات فى لغات أوروبية مختلفة كالألمانية والإنجليزية . وفي هذه الرسالة يحث ابن حزم الناس على الحياة النقية والورعة ، ويدعو إلى الاقتداء بالنبى العربى الكريم كمثال للخلق الرفيع.

وقد قام المستشرق الألمانى كارل بروكلمان (Carl Brockelman) بوضع سجل لكتابات ابن حزم ومؤلفاته نشره فى الجزء الأول من كتابه القيم « **الموجز في الأدب العربى**» وهو الكتاب الذى نشره فى ويمار Weimar بألمانيا عام ١٨٩٨م. كما قام بالإشادة به وبأعماله الباحث الألمانى هورتن (Horten) فى كتابه « **النظام الفلسفى فى الإسلام** » الصادر فى بون بألمانيا عام ١٩١٢م .

ولعل أعظم دليل على مكانة ابن حزم وتأثيره فى الفكر الغربى هو ما قامت به الحكومة الأسبانية والهيئات الأوروبية من احتفالات كبيرة لتخليد ذكراه بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاته . فلقد قام عشرون عالما منهم خمسة من العرب وخمسة عشر من الأوروبيين بالقاء محاضرات عنه وعن آثاره فى أسبوع ابن حزم بمدينة قرطبة فى أسبانيا ، وكان ذلك فى شهر مايو عام ١٩٦٣ . وقد اشتركت الدولة رسميا فى الاحتفال وعهدت إلى المثال الأسبانى الشهير أماديو أولموس (Amadeo Olemos) بصنع تمثال بالحجم الطبيعى للقرطبى العظيم ، ويقوم التمثال على باب العطارين أو باب إشبيلية وهو نفس الباب الذى كان ابن حزم يمر منه فى طريقه إلى المسجد الجامع . وتعتبر مساهمة جامعتى باريس وليون مع السلطات الثقافية الرسمية الأسبانية من دلالات الاعتزاز بابن حزم فى الغرب والاعتراف بفضله . والباحث فى آثار ابن حزم يعجب بأسرار بلاغته ومدى تأثيرها ونفاذها إلى أعماق النفوس ، مما جعل له أسلوبه الخاص ، فكان يقال « أن قلم ابن حزم كان أشبه ما يكون بسيف الحجاج فى صرامته ومضائه . » .

ولاشك أن أهم ما ساهم به العرب في الآداب الغربية فى العصور الوسطى هو أنهم استحدثوا طرقا فكرية جديدة للتواصل الحضارى ، استحثت الفكر الغربى على الانطلاق والتحرر من عامل التقليد . وإذا كان ابن حزم أعظم علامة أنجبته الأندلس وأكثر عباقرته أصالة ، كما قال المستشرق الإنجليزى الكبير نيكلسون Nickolson عرفنا مدى ما يدين إليه الفكر الأوروبى عامة ، ومقدار ما ساهم به ابن حزم فى

تطور التراث العلمى العالمى. كما يكفينا ما رواه المستشرق الفرد جييوم (Alfred Guillaume) فى بحثه القيم عن الفلسفة والفقه فى كتابه « تراث الإسلام » (The Legacy of Islam) حين قال « وعندما يزاح النقاب عن جميع ما تزخر به مكتبات أوروبا من مواد ، حينئذ سترى أن التأثير الأبقى للعرب فى الحضارة الوسطى هو أعظم بكثير مما نعترف به حتى اليوم » .

(٥) ابن باجـــة

توفى ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م

هو أبو بكر محمد بن يحيى الذى ظهر فى غرناطة ، وكان قد ولد فى سرقسطة فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وتوفى فى فاس عام ١١٣٨م . وقد اشتهر بالطب والرياضة ، ويعتبر من أكابر فلاسفة الإسلام . كان كما يقول حى بن يقظان فى كتابه خاصا بأهل النظر « ثاقب الذهن ، صحيح النظر ، صادق الروية » . قسا عليه الدهر ، فضاعت معظم مؤلفاته ، ولم يبق منها سوى بعض الرسائل والصفحات . كما أن له من المؤلفات ، مخطوطة فى مكتبة برلين ، تقع فى ٤٤٠ صفحة.

فلسفته : بنى ابن باجة فلسفته العقلية على أساس من الرياضيات والطبيعيات ، وعلى نهجه سار « كانت » I. Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فى فلسفته ، يمكن أن يقال إن ابن باجة خلع عن الفلسفة سيطرة الجدل ، ودثرها بلباس العلم ، لكى يسير بها فى طريق جديدة ، أثارت من حوله الأحقاد والريب .

ويعتبر ابن باجة أول فيلسوف إسلامى فصل بين الدين والفلسفة ، فلم يتعرض للدين ، بل انصرف بكليته إلى المجال العقلى . وهو يرى فى بحثه عن الحقيقة ، سعادة اجتمعت حول نفسه ، وأن الحياة السعيدة يمكن توفيرها بالأفعال الصادرة عن الروية ، والعقل الفعال . وقد تأثر ابن باجة بالبيئة والأوضاع التي نشأ فيها ، فكان يري ويحبذ اعتزال الناس والمجتمع ، إذ أن تلك الأوضاع إنما كانت تخيم عليها الفاقة، ويسودها القلق والاضطراب . وهكذا رأى نفسه على أنه فى وحدة عقلية . فقد أعطى ابن باجة الفلسفة العربية في الأندلس دفعة ضد الميول الصوفية ، وآمن بأن العلم وحده قادر على الوصول بالإنسان إلى إدراك ذاته ، وفهم العقل الفعال . وبذلك مهد ابن باجة السبيل للاتجاه العلمى فى الغرب ، للفصل بين العلم والدين . ولكنه -

---

(١) د. محمد غلاب : الفلسفة الإسلامية فى المغرب . ص ٢٧ وما بعدها . وأيضا :
S. Mank; Melanges de philosophie juive et arabe. p. 383.

كأى مجدد - لاقى كثيراً من الإنكار والاضطهاد ، حتى قال عنه بعضهم إنه « قذى فى عين الدين ، وعذاب لأهل الهدى ! » ودست عليه الأقوال ، مثل ما نسب إليه أنه كان يقول : «إن الدهر فى تغير مستمر، وإن لا شيء يدوم على حال ، وإن الإنسان كبعض النبات أو الحيوان ... » وهكذا اتهم بالزندقة ، وقتل مسموما عام ١١٣٨م .

أثره فى أوروبا : لابن باجة فضل عظيم فى ازدهار الفلسفة فى أوروبا ، كما تأثر بأعماله علماء الفلك والرياضة ، والطب . ففى مجال الفلك ، كانت له ملاحظات قيمة على نظام بطلميوس ، وأظهر مواطن الضعف فيه ، حتى نادى بعض العلماء بالحركة الحلزونية . وامتد أثر ابن باجة إلى الطب ، فقد استشهد بأقواله ابن البيطار فى كتاب « الأدوية المفردة » فى عدة مواضع . كما أشاد الغربيون بفضله ، على الرغم من قلة المصادر التي تعالج آثاره الفلسفية والعلمية . وكان ابن باجه شاعراً رقيقا ، توفر له الذوق السليم ، والإحساس المرهف . فمن شعره :

هلا سألت أميرهم هل عندهم ... عان يفك وهل سألت غيوراً

لا والذى جعل الغصون معلقاً ... لهم وصاغ الأقحوان ثغوراً

ما مر بى ريح الصبا من بعدهم ... إلا شهقت له فعاد سعيراً

من مؤلفاته : ١ - كتاب « **تدبير المتوحد** » . وفيه يتحدث عن الأفعال الإنسانية وأنواعها . وفى رأيه أن المرء لكى يعيش على نور العقل وهديه ، عليه أن يعتزل المجتمع فى بعض الأحايين . وعلى الإنسان أن يقوم بتعليم نفسه بنفسه ، وأنه يستطيع أن يتمتع بمحاسن الحياة الاجتماعية ، مبتعداً عن مساوئها . ويرى أن من واجب الحكماء أن يؤلفوا جماعات من بينهم ، صغيرة كانت أو كبيرة من مبادئها البعد عن ملذات العامة ونزعاتهم ، والعيش على الفطرة . وأن بين الإنسان والحيوان رابطة ، كالتى بين الحيوان والنبات ، والتى بين النبات والجماد .

أما الأعمال البشرية المحضة التي لا يعملها غير الإنسان ، فهى الناشئة عن الإرادة المطلقة ، أى عن تفكير وتدبير صادق ، وليس الغريزة الثابتة فى البشر ، ثبوتها فى الحيوان . فلو أن رجلا هشم حجرا جرحه ، فإنه إنما يعمل عملا حيوانياً ، وأما من يهشمه حتى لا يجرح غيره ، فعمله هذا عملا إنسانياً . وعلى أية حال ، يرى ابن باجة أن أعمال الناس مركبة على عناصر حيوانية ، وأخرى إنسانية ، وأن على (المتوحد) أن يجعل للعناصر الإنسانية ، السيادة والغلبة ، وأن يجعل الروية والتعقل ، التأثير الأول فى نواحى نشاط البشر المختلفة .

٢ - « رسالة الوداع » ، وكان قد كتبها قبل قيامه برحلة طويلة ، وبعث بها إلى صديق له من تلاميذه ، ليقف على آرائه الخاصة بمسائل هامة . وفى هذه الرسالة ، تظهر رغبة الرجل فى الرفع من قيمة العلم والفلسفة ، لأنهما يرشدان الإنسان إلى الإحاطة الطبيعية بما حوله ، وإلى معرفة نفسه . وفى هذه الرسالة بعض مبادئه الفلسفية ، مثل قوله بأن المحرك الأول فى الإنسان هو أصل الفكر ، وإن غاية وجود الإنسان ونشوء العلم ، هو الإيمان بالله ، والاتصال بالعقل الذى يفيض من الخالق عز وجل .

نقده لابن سينا والغزالى :

انتقد ابن باجة كلا من ابن سينا والغزالى ، فأنكر على الأول ما ذهب إليه من أن انكشاف الأمور الإلهية ، والاتصال بالملأ الأعلي ، يحدث التذاذا عظيما ، وقال إن هذا الالتذاذ هو القوة الخيالية لا غير . كما انتقد الغزالى ، وقال إنه خدع نفسه وخدع الناس حين قال فى كتابه « المنقذ » إنه « بالخلوة ينكشف للإنسان العالم العقلى ، ويرى الأمور الإلهية فيلتذ لذة كبيرة » .

(٦) ابـن رشـد (*)

(٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) (١١٢٦ - ١١٩٨م)

هو القاضى أبو الواليد محمد بن أحمد بن رشد ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) ، من أسرة كبيرة مشهورة بالفضل والرياسة . كان أبوه قاضيا ، وكان جده قاضى القضاة فى قرطبة . درس ابن رشد الفقه ، والكلام ، والطب ، والرياضيات ، والفلسفة ، وتولى القضاء سنوات في « إشبيلية » ثم فى « قرطبة » . قيل إنه كان أول الأمر مكينا عند الخليفة المنصور ، وجيها فى دولته . ولما كان المنصور بقرطبة وهو متوجه إلى غزو « ألفونس » ملك قشتالة ، استدعى إليه الفيلسوف وقربه إليه، ولكن سرعان ما تغيرت الحال ، إذ سعى فيه الحساد ووشى به الجهال عند الخليفة ، وهم المتعالمون بأن ابن رشد كثير الاشتغال بالفلسفة وعلوم اليونان ، فنقم المنصور عليه إرضاء للعامة ، وأمر بإبعاده إلى « أليسانه » يقيم فيها ولا يخرج منها . وبقى

(*) أهم مصادر دراسة ابن رشد : د. عاطف العراقى: النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد دار المعارف ٩٦٨ مناهب فلاسفة المشرق دار المعارف ١٩٧٤ تجديد فى المذاهب الفلسفية الكلامية١٩٧٤ .
د. عبد الرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى ١٩٦٥ بيروت .
بالثيانا : تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة د. حسين مؤنس . مكتبة النهضة ١٩٥٥ .

الفيلسوف مغضوباً عليه إلى أن تولى الأعيان الشهادة له عند السلطان فرضى عنه ، ثم مضت الأيام وتنكر الناس للفيلسوف ، فنفى إلى بلاد المغرب ونكل به وأحرقت كتبه . . ومات في مراكش سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) ، تفرق تلاميذه ومريدوه ، وأصدر المنصور منشوراً بتحريم الاشتغال بالفلسفة .

عاش ابن رشد فى الأندلس فى بيئة من تلك البيئات المظلمة التى تحدث عنها المقرى فى « نفح الطيب » حين قال : « وكل العلوم لها عندهم (أى عند أهل الأندلس) حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم : فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة : فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة ، أو يشتغل بالتنجيم، أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه . وإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة ، أو أحرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان أو يقتله السلطان تقربا إلى العامة . وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الإنسان إذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن . . » وقد حاول ابن رشد أن يلقى فى بيئة الأندلس هذه أقباسا من نور الفلسفة ، ولكنه اصطدم بصخرة الجهل والتقليد والتعصب الذميم .

كان ابن رشد من أكبر علماء الإسلام ومن أخصب الكتاب فى اللغة العربية ، كتب فى الفقه ، والأصول ، واللغة ، والطب ، والفلسفة ، والفلك ، وصنف وقيد وألف الفلسفة والدين . وقد تناولت فلسفة ابن رشد عدة مسائل : تتدرج من أصل الكائنات إلى اتصال الكون بالخالق ، وعلاقة الإنسان به ، ثم المادة وخلق العالم .

وألف نحوا من عشرة آلاف ورقة . ولما كان ابن رشد شديد الإعجاب والإجلال لأرسطو ، فقد نهض للعناية بالفلسفة الأرسطاطالية وإيضاحها ، ووقف حياته على كتابة الشروح والجوامع تفسيراً لأقوال « المعلم الأول » . ومن أهم كتب ابن رشد كتابه « **تهافت التهافت** » الذى كتبه رداً على كتاب الغزالى « **تهافت الفلاسفة** » ، ولابن رشد كتابان مشهوران هما «**الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة**» و « **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال** » .

الفلسفة والدين :

بين ابن رشد فى كتابه « **فصل المقال** » العلاقة بين الفلسفة والدين . فدراسة الفلسفة واجبة بالشرع ، لأن مقصد الفلاسفة هو المقصد الذى حث عليه الشرع، « فمقصود الشرع إنما هو تعليم الحق والعمل الحق . والعلم هو معرفة الله

وسائر الموجودات على ما هى عليه ، وبخاصة الشريفة منها ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروى . والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة ، وتجنب الأفعال التى تفيد الشقاء . والمعرفة بهذه الأفعال هى التى تسمى العلم العملى » .
وإذن فالفلسفة والدين متفقان فى الغاية : كلاهما يرمى إلى تحقيق السعادة عن طريق تصحيح العلم والعمل .

التجنى على ابن رشد :

أوذى ابن رشد ، وكثر التجنى عليه بعد مماته من أهل عصره المسلمين ، وبعض علماء الدين من المسيحيين ، فكان الرجل فى نظر أولئك وهؤلاء كبير الزنادقة والمضللين ، وزعيم العقليين والمتشككين فى الدين . فلهذا لا نستطيع أن نأخذ ما ذكره المسلون عن ابن رشد إلا مع الاحتياط والحذر الشديد : فلقد لاحظ الأستاذ الإمام محمد عبده أن ما سيطر على المسلمين من جهل وجمود فى تلك الفترة أدى إلى إثارة الفتن وروح التعصب ، وسهل على كل واحد أن يرمى الآخر لأدنى شبهة ، بالكفر والزندقة .

هذا من وجهة ، ومن جهة أخرى نرى أن ما نقله الغربيون عن ابن رشد لا يمكن أن يعطينا فكرة صحيحة عن مذهب ذلك الفيلسوف : فقد تناقلوا عنه أقاويل كثيرة مكذوبة ، وصوروه فى صورة المتحامل على المسيحية . كما هوجمت فلسفة ابن رشد مهاجمة عنيفة من جانب اللاهوت الذين صوروها على نمط يلائم أهواءهم وغاياتهم ، فحرفوا الكلام عن مواضعه ، ونسبت إليه فلسفة لا تمت بصلة إلى فلسفة ابن رشد .

مثال ذلك « إرنست رينان Renan » الذى انحرف عن الحق حين قال إن فلسفة ابن رشد تقول بقدم المادة وتطور الكون بقوة كامنة فيه ، والقول بإله لا ذات له ، ولا يعلم الجزئيات ، والقول بعقل كلى لاشخصى ، والقول بفناء النفس الفردية ، وإنكار حشر الأجساد . وقد تابع « رينان » فى تجنيه بعض الشرقيين أمثال « فرح أنطون » الذى قام الإمام محمد عبده بالرد على مزاعمه فى مقالات مشهورة ، كان لها دوى عظيم أوائل هذا القرن . ومن ثم فإن فلسفة ابن رشد يجب أن تدرس فى ذاتها ، وأن تقوم تلك الدراسة على مؤلفات ابن رشد نفسها . فقد تبين للعارفين أن فى تلك الفلسفة عناصر من الأفلاطونية الجديدة ومن الرواقية ، فضلا عن صلتها الوثيقة ببحوث المتكلمين الإسلاميين .

النزاع بين ابن رشد والغزالى :

كان مقصد الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » أن يبطل آراء الفلاسفة فى الإلهيات ويزعزع ثقة الناس بهم ، وكان يرمى آخر الأمر إلى أن يثبت قصور العقل الإنسانى عن أن يعرف الحقيقة فى الأمور الإلهية ، وأن يبين أن الوصول إلى الحق لا يكون بالحجج العقلية والاستدلالات الفلسفية ، ولكن بالكشف الإلهامى وبنور يقذفه الله فى القلب . وكان لهذا الموقف العدائى للفلسفة أثره فى ركود ريحها فى العالم الإسلامى ، إلى أن قام ابن رشد ليبين فى كتابه « **تهافت التهافت** » ما فى آراء الغزالى من وجهة نظر تقوم على الأقاويل الجدلية والخطابية . وتناول ابن رشد المسائل التي هى محل النزاع بين الفلاسفة والمتكلمين وبسط القول فيها ، مبيناً أن آراء الفلاسفة لا تخالف الشرع إلا ظاهراً ، وأنهم من أجل ذلك لا يستحقون أن يرموا بما رماهم به الغزالى ظلماً وعدواناً .

وقد نقلت مؤلفات ابن رشد إلى اللاتينية بواسطة ميشيل سكوت عام ١٢٣٠م ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم فى سنة ١٤٧٣م أمر بتدريس مذهب ابن رشد ومذهب أرسطو . أما فى انجلترا فقد ظلت الفلسفة الرشدية متسلطة إلي ما بعد القرن الرابع عشر . وكان توما الاكوينى يعتبره المعلم الأول في المنطق وأستاذه فى المنهج بينما اتهمه بالزندقة فى آرائه الميتافيزيقية وعلم النفس . ولقد كان الرهبان الفرنسيون شديدى التعلق بآراء ابن رشد إلى أن ظهر بينهم الراهب دينز سكوت عام ١٣٠٨م وعارض الفلسفة الرشدية [١] .

(١) أوليرى : فى الفكر العربى ص ٢٨٠ وما بعدها .

الفصل الثالث

اسهامات الحضارة العربية فى الجغرافيا والتاريخ والاجتماع

(١) فى الجغرافيا العامة : فضل الغرب على أوروبا فى علم الجغرافيا، تشهد عليه مؤلفات العرب الجغرافية . وما جاء فيها من معلومات ترجم بعضها إلى اللاتينية فى العصور الوسطى . كما أن أوروبا مدينة للعرب بحفظ معلومات اليونان الجغرافية وهى المعلومات التي لم يعرفها الأوروبيون إلا من الكتب العربية فى أواخر العصور الوسطى [١] . ولكن إذا كان العرب اعتمدوا علي معلومات اليونان في أول أمرهم. إلا أنهم لم يلبثوا - كعادتهم - أن أضافوا لأساتذتهم . فصححوا ما وقع فيه جغرافيو اليونان من أخطاء . وأضافوا من تجاربهم الشئ الكثير إلى محصول المعرفة الجغرافية . وساعد العرب على ذلك ما هو معروف عنهم من حب للسفر وللرحلات ، فجابوا البلاد من شرق آسيا إلى مجاهل أفريقية . وسجلوا مشاهدتهم بدقة ووضوح، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوروبيون بها فى العصور الوسطى أو شكّوا فى وجودها . يطول بنا الأمر لو حاولنا الكلام عن كل واحد من الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، مثل المسعودى (توفى ٣٤٦هـ) وابن حوقل (توفى ٣٦٦هـ) والبيرونى (توفى ٤٤٠هـ) وابن بطوطة (توفى ٧٧٧هـ) والإدريسى (توفى ٥٦٠هـ)، هذا عدا غيرهم من جغرافى العرب مثل الاصطخرى (توفى ٣٤٠هـ) والمقدسى والقزوينى (توفى ٦٨٢هـ) وياقوت الحموى (توفى ٦٢٦هـ) . ولكن يكفى القول بأن كل واحد من هؤلاء الأعلام أسهم بنصيب وافر فى بناء علم الجغرافيا .

ويظهر لنا تقدم العرب فى ذلك العلم بالمقارنة بين أماكن المدن التى عينها اليونان وتلك التى عينها العرب . ففى الوقت الذى نجد تقدير العرب يطابق الحقيقة أو يقرب منها ولا يختلف عنها إلا فى بضع دقائق . إذا بالخطأ يبلغ فى تقدير اليونان درجات كثيرة . حتى أن خطأ بطليموس السكندرى [٢] فى تقدير طول البحر المتوسط بلغ أربعمائة فرسخ [٣]. لذلك لا نعجب إذا وجدنا كتب العرب فى علم الجغرافيا ظلت

---

(١) **Toylor** : Geography in the Twentieth Century; p. 32.

(٢) هو كلاديوس **بطليموس** (١٢٧ - ١٨٠) C. Ptolemy من كبار علماء الفلك اليونان الذين استقروا بالاسكندرية تحت حكم الرومان . نجح فى التدليل على أن الأرض ثابتة وهى مركز الكون .

راجع : **Sarah Bolton** : Famous men of Science. London 1960

(٣) **Sedillot** : op. cit. Tome ll, pp. 52-65. (Paris, 1877)

أساسا لدراسة ذلك العلم فى أوروبا عدة قرون . ونخص بالذكر كتاب الإدريسى (٤٩٥-٥٦٠هـ) المسمى «**نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق** . وهو مزود بأكثر من أربعين خريطة . وترجم إلى اللاتينية حيث اعتمد عليه الأوروبيون أكثر من ثلاثة قرون . والإدريسى هذا هو الذى كلفه روجر الثانى ملك صقلية بوضع خريطة جامعة أثبتت أن معلومات العرب الجغرافية أوسع ، مما كان يظن .

ويقال أن فاسكودى جاما [١] Vasco de Gama (١٤٦٩ - ١٥٢٤) درس الخرائط التى وضعها العرب للبحار . وأعجب بها إلى حد كبير [٢] . كذلك جاء فى دائرة المعارف الفرنسية أن كولمبس أطلع على كتب كثيرة فى الجغرافيا والرحلات - منها كتب العرب - وذلك قبل قيامه برحلته التى أدت به إلى كشف أمريكا . ولعل هذا يتصل بما ذكره الإدريسى عن الأخوة المغررين الذى خرجوا من لشبونة واتجهوا في المحيط الاطلسى غربا حتى اكتشفوا أكثر من جزيرة ، ومعنى ذلك أن العرب - فضلا عن جهودهم التى استفاد منها كولمبس - حاولوا عبور المحيط الاطلسى والوصول إلى العالم الجديد قبل كولمبس بكثير [٣].

وهكذا يبدو لنا فضل العرب على علم الجغرافيا . وعلى تزويد أوروبا بقسط وفير من الدراسات الجغرافية التى لم تعرفها في العصور الوسطى . وتبدو هذه الحقيقة واضحة ثابتة ، وإن تعمد بعض الأوروبيين إغفالها والاقلال من شأنها . وهنا نشير إلى العبارة التى ذكرها لوبون من أنه « لولا حقد الأوروبيين الموروث على الإسلام لتعذر إيضاح السبب فى إنكار عالم جغرافى كبير مثل فيفان دى سانت مارتن Vivien de Saint-Martn لفضل العرب على الجغرافيا » [٤]. وعلى الرغم من هذا فنحن مدينون بالكثير لبعض الباحثين - ومن بينهم أولئك الغربيون - لما بذلوه من جهد كبير فى سبيل تقديم جهود العلماء المسلمين القدامى إلى العالم .

---

(١) فاسكو بحار برتغالى ، تجاوز عام ١٤٩٧ رأس الرجاء الصالح ، واتبع الساحل الشرقى لأفريقيا، ثم وصل إلى ساحل مالابار وبلغ كلكتا عام ١٤٩٨ وتوفى فى الهند .

(٢) Taylor. : Geography in the Twentieth Century; p. 31.

(٣) أحمد أمين . ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٤) جوستاف لوبون . حضارة العرب ص ٤١٩ .

ومن المفيد أن نشير إلى أن الذى ساعد العرب على القيام برحلاتهم العلمية والتجارية الواسعة هو معرفتهم بالبوصلة . واستخدامها في أسفارهم . وإذا كان من الثابت أن البوصلة اختراع صينى ، إلا أن فضل العرب فى استخدامها يبدو فى ناحيتين : الأولى أنهم كانوا أول من استخدم البوصلة على نطاق واسع فى الملاحة . والثانية أنهم هم الذين نقلوا ذلك الاختراع إلى أوروبا وعلموا الأوروبيين استعمال البوصلة . ذلك أن الصينيين كانوا ضعافا فى الملاحة ، ولم نسمع عن قيامهم برحلات بحرية بعيدة عن شواطئ بلادهم ، ولذلك لم يستخدموا البوصلة فى البحر ، وذلك بخلاف العرب الذين أثبتوا أنهم ملاحون مهرة . فأسرعوا إلي التفكير في استخدام البوصلة في الملاحة . ويقول المستشرق جورج يعقوب أن العرب فى أول معرفتهم بالبوصلة استخدموا قطعة مجوفة من الحديد الممغنط على شكل سمكة ، وضعوها فى طبق به ماء لتطفو على سطحه وتتجه اتجاها شمالياً جنوبيا [١] .

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الفكرة التى تنسب إختراع البوصلة فى أوروبا إلى رجل إيطالى في القرن الرابع عشر اسمه « فلافيو » إنما هى فكرة خاطئة ، لأنه من الثابت أن أوروبا عرفت البوصلة في القرن الثالث عشر أو فى أواخر القرن الثانى عشر ، وأنها عرفتها عن طريق العرب الذين استعملوها قبل ذلك وذكرها الإدريسى فى مؤلفاته . ويكفى أن البوصلة احتفظت باسمها العربى في كثير من اللغات الأوربية ، فهى بالايطالية (bossala) وبالفرنسية (boussole)[٢]. لذا تمكن العرب من ارتياد البحار في جرأة ومهارة فائقة ، حتى ملكوا فى أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب . وسرعان ما أدى نشاطهم التجارى إلى ابتكارهم بعض النظم المالية والتجارية التى عرفتها أوروبا منهم . وقد أثبت العالم جرسهوف أن أول من عرف نظام الحوالات المالية هم العرب . وعنهم أخذتها أوروبا في القرن العاشر عن طريق أسبانيا وإيطاليا . ومع هذه المستحدثات انتقلت أيضا الكلمات والاصطلاحات اللازمة لها من العرب إلى الأوروبيين . فلفظ Aval ليس إلا كلمة (حوالة) العربية . ولفظ (شيك) فارسى الأصل كثيرا ما استعمله الفردوسى وانتقل من العرب إلى أوروبا . هذا فضلا

(١) جورج يعقوب مآثر الشرق فى الغرب. ترجمة د. فؤاد حسنين. مطبعة مصر ١٩٤٦ ص ٢٩.

(٢) ليست البوصلة فقط هى التى أخذت أوروبا فكرتها عن العرب فى العصور الوسطى ، بل أخذت عنهم أيضا فكرة خطوط العرض . راجع د. أنور عبد العليم : تاريخ البوصلة البحرية (بحث منشور بمجلد المؤتمر الدولى لعلوم البحار الذى عقد فى موناكو ١٩٦٦ (باللغة الانجليزية) .

عن كثير من المصطلحات البحرية والتجارية التى انتقلت إلى اللغات الأوروبية بنطقها العربى . فمن المصطلحات التجارية bazaar من بازار و dinar من دينا ، و tariff من تعريفه ، و douanne ، من ديوان ومن المصطلحات البحرية أدميرال Admiral من أمير البحر ، و Tare من طرح السفينة ، و arsenal من دار الصناعة ، و felouque من الفلك ، و Galfate . من الجلفطة . . الخ [(١)] .

من أقدم اهتمامات العرب بعلم الجغرافية ما كتبه ابن خرداذبة [(٢)] (توفى ٢٧٢هـ) فى كتابه « المسالك والممالك » حيث يذكر طرق التجارة الرئيسية في العالم العربى بجانب وصفه لجهات قاصية مثل : الصين وكوريا واليابان غير أنه يخلط بين الحقيقة والخيال . وتبعه قدامة بن جعفر البغدادى (توفى ٣١٠هـ) بمؤلف عنوانه « الخراج وصنعة الكتابة » تناول فى مقدمته تنظيم الخدمات البريدية كما أجمل جغرافية البلدان العربية وجيرانها . وأهتم بالتوقيت فى ولايات الدولة وقد ذكر فون كريمر V. Kramers أن معلومات قدامة الجغرافية كانت صحيحة وقد فطن إلى كروية الأرض وقصر النهار في القطبين[(٣)] .

ويمكن القول أن جهود المسلمين فى ميدان الجغرافية قد نالت حظها من الدراسة على أيدى المستشرقين فى أوروبا ، إلا أن هناك ما حال دون مزيد من التقدير لتلك الجهود . يرجع إلى ضياع كثير من المؤلفات النفيسة التى أشارت إليها المصادر وإلى أن كثيراً من المادة التى تيسر الحصول عليها ظلت على حالها في المخطوطات دون أن تترجم إلي اللغات الأوروبية ، ولذا فإن تاريخ الجغرافية عند العرب المسلمين في حاجة إلى مزيد من الكتابة المحققة لكى يعرض علي بساط البحث والمناقشة بصورة صحيحة.
رغم تعدد المحاولات من جانب المستشرقين أمثال رينو Reinaud ودى جويه De Goeje وناللينو Nallino وسخاو Sachau وبارتولد Barthold ولى سترينج - Le Strange وكريمر Kramers ومينورسكى Minorsky فقد أعان هؤلاء وغيرهم علي

(١) جورج يعقوب . أثر الشرق ص ٥٢ .

(٢) ابن خرداذبه : فارسى الأصل قدم إلى بغداد وارتبط بالموسيقى اسحاق الموصلى وهناك جمع بين دراسة الأدب والموسيقى . ثم عمل بالبريد مما أتاح له الحصول علي معلومات كبيرة النفع عن الأقاليم النائية .

(٣) خودابخش : الحضارة الإسلامية ترجمة د. علي حسن الخربوطلى . دار احياء الكتب ١٩٦٠. ص ١٨٠ .

كشف بعض الجوانب المتعدده مما قدمه العرب المسلمون فى سبيل التقدم العام للفكر الجغرافى والمعرفة الجغرافية .

ولاشك أن لدى مراكز البحوث العربية الإسلامية الشعور المتزايد بأن الباحثين الذين ينتمون إلي العروبة . قد يكونون أقدر علي تقدير وتقويم هذه الثمار الرائعة فى آلاف المخطوطات العربية . كما أنهم فى هذا السبيل قد يمكنهم مفاداة المزالق والصعاب الثقافية واللغوية والدينية والإجتماعية التى تعترض سبيل الباحث الغربى مهما كان مدققاً فى عمله وموضوعيا فى بحثه ومتجاوبا مع روح البحث العلمى،وإذا نظرنا إلى جهود العرب باعتبارها وحدة فإننا نستطيع أن نذكر فرعين هامين هما الجغرافية الكونية أو الفلكية ، والجغرافية البلدانية الوصفية بخلاف الجغرافية العامة وفن الخرائط Cartography .

(٢) فى الجغرافيا الكونية أو الفلكية (الكوزموغرافية) :

Astronomical Geog

بداية نود أن نتحدث عن مجموعة من المؤلفين العرب وضعوا كتبا أساسها تصور الأرض ، لا وصفها ، ومحاولة اكتناه الصلة بين الأرض والكون بكامله . لكنهم ضمنوا كتبهم الكثير من أخبار العجائب والغرائب . أكثرها مما يشوق القارئ دون أن يكون لها سوى أساس بسيط من الصحة . لكن الأسطورة نسجت حول هذا الأساس الضئيل ثوبا فضفاضا من الخيال . فى هذا المجال ثمة أربعة كتاب برزوا بشكل ملحوظ بالنسبة لقرائهم ومعاصريهم ، وبالنسبة للباحثين في العقود الأخيرة . هؤلاء هم :

(١) « **أبو حامد الغرناطى** » المتوفى سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠م) واسم كتابه « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » [(١)] وهو وصف لرحلاته .

(٢) « **زكريا بن محمد القزوينى** » المتوفى سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣م) وله كتابين «آثار البلاد وأخبار العباد » و «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» [(٢)] .

(٣) « **الدمشقى** » المعروف بشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م) وصاحب كتاب « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » [(٣)] .

---

(١) تحقيق دى جويه De Goeje طبعة ليدن ١٨٨٥م .

(٢) طبع الكتاب على هامش كتاب الحيوان للدميرى ، ١٣٠٩هـ وأعيد طبعه ثلاث مرات ١٨٩٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٥٤ .

(٣) ترجم إلى اللاتينية بمعرفة مهرن Mehren طبعة كوبنهاجن عام ١٨٧٤م .

(٤) « **سراج الدين بن الوردى** » المتوفى سنة ٨٦١ هـ (١٤٥٧ م) مؤلف كتاب « خريدة العجائب وفريدة الغرائب »[1] .

هؤلاء المؤلفون الأربعة هم أصحاب التآليف الكوزموغرافية ، أي الكتب التى تصف الكون ، وتحاول تصويره وتفسيره ، فتذكر صفات الأقاليم والمدن من الجهة الواحدة ، ثم تنتقل ، فى الفقرة نفسها ، لتذكر غريبة أو عجيبة لها أساس بسيط من الصحة . والغريب أن بعض هؤلاء المؤلفين ، مثل أبى حامد الغرناطي ، يكون غاية فى الدقة فى وصفه لمنطقة زارها ، ثم ينتقل فيذكر عنها شيئا لم يره بنفسه ، ولكن نقله عن غيره .

وللقزوينى كتابان ، أحدهما « **آثار البلاد وأخبار العباد** » وهو كتاب فى الجغرافية طبع بجوتنجن عام ١٨٤٨م ، والآخر « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ، وهو الكتاب الذى يعنينا أمره فى هذا المقام .

أما شمس الدين محمد بن أبى طالب، الذى عرف فيما بعد **بالدمشقى**، فقد ولد في دمشق سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ، وبذلك يكون قد وعى فى صباه وشبابه هذا التوتر والاضطراب الذى أحس به الشرق الاسلامى بسبب احتلال المغول لبغداد والقضاء على الخلافة العباسية، واجتياحهم لديار الشام، كما أنه أحس، فيما بعد، بالأطمئنان الذى شمل الشام ومصر بسبب قيام دولة المماليك. وقضى «الدمشقى» معظم سنى حياته بدمشق ، ولأنه كان إماما بمسجد « الربوة » عرف باسم « شيخ الربوة » . وكانت له نزعة صوفية ، ولعل هذا ما حمله على اعتزال العالم وقضاء السنوات الأخيرة من حياته بناحية فلسطين ، وقد توفى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م). وكان الدمشقى واسع الاطلاع متبحرا فى ثقافة عصره فى التصوف والدين والفقه والجغرافية. وكتابه الذى يهمنا هو « **نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر** » .

وآخر المؤلفين الأربعة الذين نوليهم العناية هو « **سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردى** » ، نشأ وعاش فى حلب . ولم يتمكن الباحثون من الاهتداء إلى سنة مولده ، ولكنهم يكادون يتفقون على أنه توفى سنة ٨٦١هـ (١٤٥٧م) .

---

(١) ترجم إلى اللاتينية بمعرفة هايلندر Hylander عام ١٨٢٣م . وله طبعات بمصر .

إن مؤلفات هؤلاء الأربعة تشملها كلمة « كوزموغرافية » حيث لها صفات عامة ، وإن كان بعضها يختلف عن البعض الآخر فى هذه الصفات ، فمنها أنها تعرض للقوانين التى تتحكم فى النظام الشمسى بقدر ما أدركوه . ومنها أنها تعنى بجميع الظواهر الطبيعية التى تتعرض لها الكرة الأرضية من حيث الزلازل والبراكين وظهور الجزر . واختفاؤها أحيانا . ومنها حرصها على التحدث عن المعادن والنبات والحيوان . وكثير منها يقدم لنا معلومات قيّمة . وتفتقر إلى منهجية البحث والعمق فى التحليل. فالمعلومات التى جمعها هؤلاء الكتاب غاية فى الاتساع ، وتتفق جميعها فى أنها مصنفات تركيبية تعرض المادة العلمية بطريقة تلذ لقارىء الأدب الجغرافى .

والقزوينى بشكل خاص « . . يتميز بالوضوح فى الأسلوب الذى يبلغ به فى واقع الأمر درجة رفيعة . ولديه مقدرة فائقة فى تبسيط أكثر الظواهر تعقيدا . . » غير أن الميزة الرئيسية لهذه المؤلفات عنايتها بالعجائب والغرائب ، ومؤلفوها ، فى غالب الأحيان ، أصحاب نزعة تصوفية دينية ، فكانوا يرون فى هذه الغرائب معجزات الخالق « . . وكثيرا ما اتخذت رسائلهم طابع الموعظة والتهذيب . . » ولنأخذ على سبيل المثال ما ذكره « أبو حامد الغرناطي » حول هذه النقطة بالذات . ففى المقدمة يرتب العقول فى درجات ، فيقول : فعقول الملائكة والأنبياء أكبر من عقول جميع العلماء ، وعقول العلماء أكبر من عقول جميع العوام فى الدنيا ، وعقول العوام أكبر من عقول النساء ، وعقول النساء أكبر من عقول الصبيـ ن . وبقدر هذا التفاوت يقع الإنكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل . لأن الذى يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالي قليل .

ونحن إذا أخذنا هذه الكتب التى ذكرناها من قبل ، واحداً بعد الآخر ، وجدنا فى ذكر فصولها ما قد يوضح محتوياتها . فكتاب « **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب** » للغرناطي فيه أربعة أبواب . يبحث الباب الأول في صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها ، والثانى فى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والثالث فى صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما فى جزائرها من أنواع النفط والنار . أما الباب الرابع فيبحث فى صفة الحفائر والقبور وما تضمنت من القفار إلى يوم النشور .

وكتاب القزوينى « **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** » ينقسم إلى قسمين يعالجان العالمين العلوى والسفلى كلا على حدة . والقسم الأول الذى يبحث فى

العالم العلوي يتناول الكلام على ما في السماء من أجرام ، أي الشمس والقمر والنجوم والملائكة ، سكان ذلك العالم ، وفيه بحث عن التوقيتات والتقاويم العربية والسريانية لارتباطها بحركات الأجرام السماوية . أما القسم الثاني الذي يبحث في العالم السفلي، أي الأرض وظواهرها ، فيتناول فيه المؤلف ما عرف عن العناصر الأربعة [1] (النار والهواء والماء والتراب) مفصلا الحديث عنها . ويقسم المعمورة إلى سبعة أقاليم ، ويفصل أسباب حدوث الزلازل والبراكين ، وتكوين الجبال ، ونشأة الأنهار والينابيع ، ثم ينتقل إلى ممالك الطبيعة الثلاث ، المعدنية والنباتية والحيوانية . والإنسان هو منطلق هذه المملكة فتركيبه العضوي وخصائصه الأخلاقية ومميزات شعوبه مفصلة . ويلي ذلك حديث عن الجان والغيلان . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن كتاب «القزويني» هو أكبر أثر للكوزموغرافية العربية .

« ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر » للدمشقي فيه تسعة أبواب ، أولها فيه مقدمة في شكل الأرض وأقاليمها السبعة وفصول السنة . وأما الباب الثاني فيبحث في المعادن السبعة الذائبة المتطرقة ، وذكر طبائعها وخصائصها وفعائلها وما يمت إلى ذلك كله بصلة . ويتناول الباب الثالث الأنهار الجرارة والعيون والآبار وينابيعها المختلفة . ويدور الباب الرابع على كثرة المياه وما قالت القدماء ، وفي إحاطته بالأرض . ويختص الباب الخامس بذكر بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ووصف حدوده ونواحيه . ويتناول الباب السادس ذكر بحر الجنوب (المحيط الهندي) وما يتفرع منه. ويخص المؤلف الباب السابع بالممالك الشرقية الكبار وأصقاعها كما يخص الباب الثامن بالممالك الغربية من مصر إلى الأندلس مرورا بأقطار المغرب . أما الباب التاسع والأخير فيختص بوصف انتساب الأمم إلى سام وحام ويافث ، وذكر ما امتازوا به وأسماء شهورهم وخصائص البلاد والإنسان [2] .

و « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » لابن الوردي ، يختلف توزيع فصوله باختلاف النسخ التي نشرت طبعة معينة عنها . والنسخة التي بين أيدينا هي طبعة القاهرة سنة ١٣١٤هـ ، وقد قسم الكتاب فيها إلى خمسة وعشرين فصلا .

---

(١) اختمرت فكرة العناصر الأربعة في عهد الفيلسوف اليوناني انكسيمانس Anaximenes (٥٨٨-٥٢٤ ق.م) حيث أصبحت التفسير السائد للظواهر الطبيعية في الوجود .
راجع : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية . دار المعارف ١٩٤٩ . ص ١٧ .

(٢) زكي حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى .

أولها في ذكر المسافات ، وثانيها في صفة الأرض وتقسيمها ، وثالثها ، وهو أطول الفصول . في ذكر البلدان والأقطار . ثم تليها ثمانية فصول قصيرة تتحدث عن البحار وما فيها ، وثلاثة فصول عن الأنهار والعيون والآبار ، وفصل واحد في الجبال ، وفصل عن الأحجار ، وخمسة فصول في النباتات والفواكه والبقول الكبار والصغار والحشائش المختلفة والبذور، وثلاثة فصول في الحيوان، والفصل الآخير في خصائص البلدان[1] .

ويجدر بنا ، وقد تعرفنا إلي المؤلفين ، أن نشير إلى مزايا كل منهم على انفراد فيما يلي :

كان أبو حامد الغرناطى رحالة جواب آفاق ، فقد تنقل فى أنحاء العالم الإسلامى وخارجه وعمل في التجارة . ولذلك كانت تجاربه واختباراته واسعة ، ومعرفته العملية كبيرة ، ومشاهداته كثيرة . وهذا يبدو جليا وواضحا فى تآليفه . فتراه يتحدث عن منارة الاسكندرية وأهرامات مصر وتجارة بحر الخزر حديث العالم المدقق . لكن الغرناطي لم يرمى إلى غاية معينة . وكل ما رمى إليه ، على حد تعبير «دويلر» « . . هو تسلية القراء ، ومن هنا جاء اهتمامه الدائم بتقديم استطراد بعد آخر ليزهى بحشد مجموعه المتنوع اللطيف من الحكايات والأقاصيص . . » . ولعلنا ننصف الغرناطى والباحثين الذين تعرضوا لدراسة هذا النوع من الأدب الجغرافى العربى إذا نحن ذكرنا تقدير « كرتشكوفسكى »[2] Krachkovsky . للغرناطى ، إذ يقول: «ومن المستحيل تجاهل الغرناطى في تاريخ الأدب الجغرافى ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القراء ، لأن المنهج الذى ابتدعه في الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيرا للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى (٦٠٥ - ٨٠٨هـ) واستعمله كل من ابن الوردى وابن اياس (٨٥٢ - ٩٣١هـ) فى بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميرى (٧٤٢ - ٨٠٨هـ) وصاحب المجموعة

---

(١) نفيس أحمد: جهود المسلمين فى الجغرافية. ترجمة فتحى عثمان. الألف كتاب القاهرة ١٩٥٧

(٢) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٣ وما بعدها .

الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهى فى القرن الخامس عشر . وقد خمَّن أبو حامد تخمينا صحيحا حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ، فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافية بما يلازمه من عنصر الغرائب محببا إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص ، وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطا معينة فيه (١) .

أما القزوينى فقد اقتصر تنقله على رقعة تمتد من قزوين إلى شمال العراق ، وهى رقعة صغيرة إذا قورنت بأسفار الغرناطى لكن القزوينى شهد الغزو المغولى وعرف ما جره على البلاد التى كان يعرفها من أهوال ، وهى تجربة شخصية هامة . ولكن أثر هذه التجارب لا يظهر في مؤلفه ، فنظرته إلى الغرائب والعجائب نظرة من يسلم كل أمر لله عز وجل ويقبل بحكمه دون تفكير . وبذلك فالذى يمكن أن يقال عن القزوينى هو أنه مؤمن مثالى ، ولا شك أن اطلاعه الواسع ومادته الغزيرة تحفل بمادة جغرافية وافرة. » كما يزين كتابه بأشكال ورسوم كثيرة ، بحيث يمكن تتبع بعض آرائه فيها (٢) .

ويمثل الدمشقى الرجل الذى ينقل العلم والمعرفة عمن سبقه بأمانة دون تمحيص أو نقد . فقد قضى حياته فى دمشق ثم تصوف وتزهد واعتزل الناس حتى وفاته . ولعل ميزة الدمشقى هى احتفاله بمعطيات النبات الطبيعى ، حيث يزودنا بمعلومات قيمة عن ديار الشام وفلسطين . فهو لا يكتفى بوصف دمشق مثلا ، ولكنه يتحدث عن صناعة استخراج ماء الورد ، ويضع بين أيدينا رسما يبين طريقة تقطيره .

أما « ابن الوردى » فإنه يختلف عن نظرائه من الكتاب في أنه ركز على العجائب والغرائب بحيث كانت الأصل عنده ، وقد نثر فيها ، هنا وهناك ، حقائق ومعلومات . وقد وضع كتابه تلبية لطلب « شاهين المؤيد » ، قائد قلعة حلب . فلما همَّ بالكتابة رجع إلى ما كان بين يديه من الكتب ، فقرأها ونقل عن الكثير منها . وخريطة ابن الوردى ، التى يعرضها فى أول كتابه ، تظهر عليها بلاد الروم والإفرنج وغيرهم من طوائف النصارى ، كما يدور بها جبل من جميع الجهات وهنا تجد الحقيقة ممتزجة بالأسطورة من الأصل . ولعل خير ما نفعله هو أن ننقل جزءا من مقدمة ابن الوردى ففيها توضيح لرأيه العام فى كتابه . قال : « وضعت دائرة مستعينا بالله

---

(١) نقولا زيادة : الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ . الغرناطى .

(٢) لمزيد من التفصيل يمكن مراجعة رواد الفكر الجغرافى « القزوينى » .

تعالي على صورة شكل الأرض فى الطول والعرض بأقاليمها وجهاتها وبلدانها وصفاتها وعروضها وهيآتها ، وأقطارها وممالكها وطرقها ومسالكها ومفارزها ومهالكها ، وعامرها وغامرها وجبالها ورمالها وعجائبها وغرائبها ، وموقع كل مملكة وإقليم من الأخرى ، وذكر ما بينهما من المتالف والمعاطب برا وبحرا ، وذكر الأمم المقيمة في الجهات والأقطار ، وسد ذى القرنين فى سالف الأحقاب على يأجوج ومأجوج كما جاء فى نص الكتاب . وسميته « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » ، وبالله سبحانه الاعتصام وهو حسبى على الدوام ، ومنه أسأل السداد والتوفيق ، فإنه أهل الإجابة والتحقيق . . » .

من حق القارىء أن نضع بين يديه نماذج من كتابات هؤلاء الكوزموغرافيين . ولذلك فاننا ننقل هنا قطعة واحدة من كل من « **التحفة** » ، و « **العجائب** » ، و « **النخبة** » ، و « **الخريدة** » .

في الباب الثالث الذى عقده الغرناطى فى صفة البحار وعجائب حيواناتها ، جاء قوله : ولقد رأيت يوما وأنا علي جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل فى البحر قريب من الساحل فرأيت على صخرة من تلك الجبل عدداً من النارنج الطرى الأحمر الذى كأنه قد قطع الآن من شجرة فقلت في نفسى هذا قد وقع من بعض السفن فذهبت إليه فقبضت منها واحدة فإذا هى متصلة بالبحر وإذا بها حيوان يضطرب فى يدى ويتحرك فتركته ونظرت إليه وإذا فمه فى موضع العرجون الذى علق النارنج ، وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج ، وهو يتحرك ويفتح فمه وكأنه يأكل وهو لين فلففت كم ثوبى على يدى وقبضت عليه مرة أخرى وعصرته وجررته فخرج من فمه ماء كثير ، وضُمّ ولم أقدر أن أقلعه من مكانه فأخرجت سكينا كان معى ورمت قلعه عن الحجر أو قطعه فلم يؤثر السكين فيه شيئا وعالجت كل واحدة منها فلم أستطع لها على شئ ، فتركتها عجزا منها وهى من عجائب خلق الله تعالى، ورأيت جميعها أحياء يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح إلا الفم والله أعلم لأى شيء تصلح[1] .

---

(١) هو حيوان البزاق - يعيش فى مستعمرات Colonies وهو من اللافقاريات Invertebrates - له فتحة فم كما وصفه الغرناطى . وله ألوان مختلفة البرتقالى والأحمر والأصفر - ويعيش تحت خط الجزر على الساحل ملتصقاً بالصخور ومن خصائص هذا الحيوان احتياجه للمياه النقية الخالية من التلوث . بعد مراجعة د. **أنور عبد العليم** : أستاذ علوم البحار بالاسكندرية .

ويكون أيضا فى البحر نوع من حيوان يشبه رأسه رأس العجل ، وله أنياب كأنياب السباع ، وجلده له شعر كشعر جلد العجل ، وله عنق وصدر وبطن وله رجلان كرجلى الضفدع ، يثب عليهما كما يثب الضفدع وليس له يدان ، يعرف بالسمك اليهودى[1] وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت خرج من البحر وألقى نفسه فى البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ولا تلحقه إلسفن لخفته وقوته ، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس فيبرأ ولايجد النقرس ألما ما دام ذلك النعل فى رجله وهو من عجائب الدنيا .

وفى حديث القزوينى عن المعادن وتحويلها ، يقول :

اقليمياء الذهب : قال أرسطو أن الذهب إذا خلط بغيره من الأحجار ثم أدخل النار للخلاص ، خلص جسمه ثم علاه حجر مشوب بسواد وبعضه على لون الزجاج وهو الحجر المسمى باقليمياء الذهب ينفع من وجع العيون ويذهب عنها البياض الحادث فيها وينفع من البلل الذى تحلب من العيون ، وقال غيره ينفع من ابتداء نزول الماء في العين ويدمل القروح الخبيثة وينقى أوساخها ويأكل لحومها الزايدة وتجففها بغير لذع. والذهب لا يتولد إلا فى البرارى الرملية والجبال والأحجار الرخوة **اقليمياء الفضة** : قال أرسطو أن الفضة أيضاً إذا أدخلت النار للخلاص ، تتخلص من الأجسام التى خالطتها ثم يعلوها جسم يسمى اقليمياء الفضة وهو أقل نفعا من اقليمياء الذهب وهو نافع من وجع العين ذروراً وفي المراهم ينبت اللحم في الجراحات . والفضة تتكون من جوف الجبال[2] .

باهت : هو حجر أبيض فى لون المرقشيا البيضاء يتلألأ حسنا ، إذا وقع عليه نظر الإنسان يضحك حتى يموت ، وزعمو أنه مغناطيس الإنسان وله قصة في مدينة النحاس وهى أن من علا سورها يضحك وينجذب إلى داخلها ، ذكروا أن فى وسط هذه المدينة عمود من حجر باهت من علاها يجذبه به إليه وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالي في مقالة البلدان ، وإذا أخذ الانسان الضحك من وقوع نظره عليه لا يبريه من ذلك شيء إلى ما شاء الله ولا يبطل فعل هذا الحجر إلا طاير صغير يقال له الفرفر وهو أصغر من العصفور ولونه أسود وله طرق حمر وعيناه حمراوتان ورجلاه كذلك زعموا أنه إذا وقع علي هذا الحجر أبطل فعله[3] .

---

(١) كلب البحر (المرجع السابق) .
(٢) ،(٣) د. جمال الدين الرمادى : القزوينى. مقاله بكتاب الشعب العدد ٤٣ ١٩٥٩ ص ٣١٥.

وتعرض الدمشقي للمعادن ، فذكر أنواع حجر المغناطيس بقوله :

حجر المغناطيس ومعدنه ببحر الهند ، وبجبل عند القلزم ، وبالأندلس ، وبناحية من خرسان، وهو من الحجارة الحديدية ومن خواصه أنه يقوى جذبه للحديد . . وأجوده المعرق بالحمرة الذي لونه شبيه بلون الحديد ، وأفضله جذبا ما جذب منه نصف مثقال حديد وحمله . . وقال أرسطو فى علة تكوينه أن المغناطيس ابتدأ في معدنه ليكون حديدا فعرض له الحر واليبس فصار حجرا شديد الصلابة لقلة الرطوبة فى معدنه وغلظ اليبس المتصل به وهو جاذب للحديد بالخاصة . وقال عطارد الحاسب هو ثلاثة أنواع أحدها يجذب ، والثانى يهرب ، والثالث جانبه يجذب والآخر يهرب ، وحجر الماس مغناطيس الزيبق حيث لقيه جذبه إليه ولصق به وامتزج به ، وكذلك إذا اختلطت برادة ذهب ورصاص ونحاس وحديد وقصدير وألقى عليه الزيبقى طلبه برادة الذهب وأمسكه واختلط به دون باقى البرادات . **وحجر الفضة** سماه أرسطو مغناطيس الفضة ، وهو حجر أبيض مشوب بحمرة إذ غمز عليه الإنسان بيده صر كما يصر القصدير وليس فى القصدير شئ منه ولا فيه شئ من القصدير وهو يجذب الفضة على خمسة أذرع .
وحجر الصفر سماه أرسطو أيضا مغناطيس النحاس الأصفر والأحمر ، وهو حجر مشوب بصفرة وغبرة وإذا قرب منه النحاس التصق به . **وحجر الرصاص** سماه أرسطو مغناطيس الرصاص وهو حجر قبيح المنظر منتن الرائحة إذا ألقى منه دانق على عشرة دراهم رصاص عقدها فضة وقبلت السبك (والمطرقة هذا كلام أرسطو وقال الحاذق أن أرسطو أراد ذكر التسويد الأول من السواد الثانى المسمى أبار ويكون منه الجزء صابغا لثلثماية وعشرين جزء والله أعلم) .

ومن هذه الحجارة مغناطيس اللحم قال أرسطو أن هذا الحجر يكون فى البحر من صنفين حيوانى ومعدنى ، فالحيوانى يعرف بأرنب البحر وهو حجر إذا ألقى عليه شئ من حيوان ليس عليه شعر لصق به فلم يقلع دون أن ينقلع اللحم ولا يسيل من موضعه دم ، والصنف الآخر إذا لصق باللحم اقتلعه من لحوم الحيوان الحى ومن لحوم الميت دونه .

وحجر يختلس العظام قال أرسطو هو حجر أصفر خشن المحسنة يجلب من بلاد بلخ إذا دنا من العظم اختلسه . و. جر **يختلس الشعر** قال أرسطو هذا الحجر إذا ألح عليه إنسان بالنظر ظن أنه شعر متلفف فإذا جسه باليد علم أنه حجر وهو متخلخل الجسم ليس فى جميع الأحجار أخف منه وهو يحلق الشعر إذا مر به على

أجساد الحيوان كما تفعل النورة ، وإن طرح الشعر على الأرض التقطه. **وحجر الظفر** قال أرسطو وهو حجر تشوب بغبرة لين المجسة متى مررت به على ظفر سلخه أو على قلامة الأظفار التقطها . وهذا الحجر مع لينه لا يعمل فيه الحديد ولا ينكسر بالماس.

وحجر يجذب القطن ، قال أرسطو وهو حجر يتكون فى سواحل البحر من الملوحة لونه أبيض إذا وضع عليه القطن التصق به ولو كان منسوجا مع كتان .

وحجر يجذب الصوف قال أرسطو وهو حجر مدور أخضر اللون فيه عروق صفر يؤتى به من جزائر بحر الصين خفيف الجسم إذا دنا من الصوف وقع عليه حتى يغوص فيه .

وحجر يجذب الماء قال أرسطو هو حجر أبيض إذا شددته على سرة المريض ليلا وترك إلى الصباح ثم جعل فى الشمس قطرت منه قطرات من الماء إلى أن لا يبقى منه شيء ثم يعاد ويشد أيضا ويفعل ذلك مرارا حتى يبرى المريض .

وحجر الزيت قال أرسطو وهو حجر أحمر مشاب بزرقة إذا أتيته من الزيت طلبه الزيت حتى يدخل فيه وهذا الحجر يؤتى به من سفالة الزنج وإذا وقع على ثوب زيت ومر هذا الحجر عليه لم يترك له أثر أصلا .

وحجر مغناطيس الخل هو أبيض يسمي الكزك إذا وضع في بقعة فيه إناء فيه خل انساق الخل إليه ودخل فيه حتى يتوسطه ويغلى الخل به ما دام فيه ، من غير سخونة ولا نار .

وحجر الكهربا يجذب القش والتبن . والكهربا صمغ شجر الخلنج وقد يتولد فى وجه الأرض كالحصى وأجوده المسمى الشمعى لكونه مجزعا ببياض أصم ويلقط القش ورائحته تشبه رائحة الليمون ويسمى مصباح الروم ويوجد بالأندلس وبسواحل البحر تحت الأرض وبالواحات كذلك يوجد قطعا قطعا يجمعه الحراثون .

وقد خص ابن الوردى بحر القلزم (البحر الأحمر) وعجائبه وغرائبه بفصل جاء فيه قوله : هذا البحر شعبة من بحر الهند جنوبيه بلاد بربر والحبشة وعلى ساحله الشرقى بلاد العرب ، وعلى ساحله الغربي بلاد اليمن ، والقلزم أسم لمدينة على ساحله وهو البحر الذى غرق فيه فرعون وهو بحر مظلم وحش لا خير فيه باطنا ولا ظاهرا وفى هذا البحر جزائر كثيرة وغالبها غير مسكونة ولا مسلوكة (فمن جزائره) جزيرة قريبة من ايلة يسكنها قوم يقال لهم بنو حداب ليس لهم زرع ولا ضرع ولا ماء

عذب ، معاشهم من السمك وبيوتهم السفن المتكسرة ، ويشحنون الماء والخبز ممن يمر بهم من المسافرين وعندهم دوارة فى سفح جبل إذا وقع الريح عليها انقسمت قسمين ويلقى المركب بين شعبين متقابلين فيثور الريح بينهما ويخرج من كليهما متخالفين فتنقلب المركب بمن فيها وقيل أن هذا الموضع غرق فيه فرعون وأما عجائب هذا البحر فمنها سمكة تزيد على مائتى ذراع تضرب السفينة كوجه البوم (ومنها) سمكة مقدار ذراع بدنها كبدن السمك ووجهها كوجه البوم (ومنها) سمكة طولها نحو عشرين ذراعا ومن ظهرها النيل الجيد وهي تلد كالآدمية وترضع مثلها ، ومنها سمكة تصاد وتجفف فيبقى لحمها مثل القطن يتخذ منه غزل وينسج منه ثياب فاخرة تسمى تلك الثياب سمكين (ومنها) سمكة على خلقة البقر تلد وترضع كالبقر ، وسمكة عريضة ، عرضها أميز من طولها يقال لها اليهازور يقارب وزنها قنطارا طيبة اللحم والطعم ، وسمكة طولها شبران ولها رأسان رأس فى موضع رأس العادة ورأس موضع ذنبها وتسمى الخنجر (وسمك) يقال له الفرس وهو نوع من تحت كلاب الماء فى البحر فى فمه سبع صفوف أضراس وطوله عشرة أشبار وهو كثير الضرر والأذى .

وخلاصة القول أن العرب أخذوا عمن سبقهم وعن معاصريهم التراث الجغرافى الذى وقعوا عليه فنقلوه ولخصوه وشرحوه . ثم انتقلوا إلى دور التصحيح والإضافة والابتكار ، فجودوا فى هذه النواحي جميعها خلال سبعة قرون لما تجمّع لديهم من المعرفة الجغرافية عن طريق الرحلات التى سجلوا مشاهداتهم فيها بدقة ووضوح : فى المجالات الرياضية والفلكية والبلدانية وفى الرحلات وكتب الكوزموغرافية . وكان لهذا كله أثر كبير فى تطور الفكر العربى شأنه فى ذلك شأن نواحي المعرفة الأخرى . وقد اتصل الأوربيون فى العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة بالعرب ، وتأثروا بالكثير الكثير من مآتيهم الحضارية والثقافية لاستمرار جهود العرب والمسلمين فى تطوير الفكر الجغرافى الوصفى والفلكى .

ونحن إذا أخذنا الأدب الجغرافى بشكل خاص وجدنا أن الأمر يدور حول النقاط التالية : كان اهتمام الأوروبيين فى العصور الوسطى منصرفا ، فى الدرجة الأولى ، إلى الموضوعات الرياضية والفلكية والطبية والفلسفية . ومن هنا كان اهتمام المترجمين بالناحية الرياضية والفلكية من البحوث الجغرافية . وهنا كان الأثر العربى الكبير . ولم يتناول المستشرقون هذه الدراسات الجغرافية بالمفهوم العلمى المحض ، وإنما تناولوه كتراث لظروفه التاريخية أو كما عرف بالأدب الجغرافى العربى أو الجغرافيا التاريخية أن صح التعبير وهذا يعنى أنهم ركزوا على محاولة معرفة : كيف فكر العرب

جغرافيا، وكيف عبروا عن معارفهم الجغرافية وكيف كانوا يتصورون العالم القديم بمحيطاته وبحاره وأنهاره وسهوله وجباله وبلدانه ومدنه والبشر بألوانهم وأشكالهم ولغاتهم ودياناتهم وأساطيرهم وعاداتهم وأزيائهم .

تأثرت أوروبا ببعض الخرائط التى رسمها الجغرافيون العرب الأوائل مثل الإدريسى . لكن لأنهم لم يعرفوا كتب البلدانيين فلم يتأثروا بالخرائط المرسومة فيها .

على أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر انصرف عشرات من العلماء، والباحثين والمؤرخين الأوروبيين إلى كتب الجغرافية الأخرى - البلدانية والمعجمية والرحلات وما إليها - وأخذوا أنفسهم بدرسها وترجمتها والإفادة من المعلومات الكثيرة فيها .

(٣) فى الجغرافية البلدانية الوصفية : Descriptive Geog.

إن الناحية التى برز فيها الجغرافيون العرب وقطعوا فيها شوطا بعيدا هى الجغرافيا البلدانية التى بلغت شأوها فى القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) وقد تم هذا على أيدى أربعة هم : البلخى (توفى ٣٢٢هـ)، والإصطخرى (توفى ٣٤٠هـ)، وابن حوقل (توفى ٣٦٦هـ)، والمقدسى (توفى ٣٨٧هـ) .

ومن هؤلاء الجغرافيين الأربعة واحد ، وهو البلخى ، مولود فى بلخ . وقد ضاع مؤلفه صور الأقاليم وقد أورده حاجي خليفة [1] وهو من رسامى الخرائط ، ويتخلل الرسوم الشرح والبيان . والإصطخرى فارسى من اصطخرى ، وكتابه اسمه مسالك الممالك [2] اعتمد فى كتابته علي كتاب البلخى .

وابن حوقل ولد فى نصيبين وألف كتابه « صورة الأرض » وهو مثل كتاب مسالك الممالك[3] للاصطخرى بيد أن ابن حوقل أضاف عليه فى الوصف . أما المقدسى فهو من مواليد القدس ، ويسمى كتابه « أحسن التقاسيم » وجميع هؤلاء كتبوا فى القرن الرابع الهجرى:

وثمة أمور تجمع بين هؤلاء الكتاب :

(١) أن كل واحد منهم كان رحالة سفر وجواب آفاق ، فالبلخى ، علي ما عرفنا ممن كتب عنه ، زار شرق العالم الإسلامى ، ثم استقر فى بغداد . والإصطخرى

---

(١) Ency. (Art of Balhi) P. 638

(٢) تحقيق دى جويه De Goeje طبعة ليدن (١٨٧٠ - ١٨٩٣) .

(٣) طبقة ليدن (١٨٧٠ - ١٨٩٣) .

كان يعرف بلاد ما وراء النهر . وإيران وجزيرة العرب ، والشام ، ومصر . وابن حوقل تنقل فى العالم الإسلامى من شرقه إلى غربه ، وكانت له جولات فى شمال إفريقية فى بعض مناطق الصحراء الكبرى . وزار جنوب إيطاليا . وقد عمل ابن حوقل فى التجارة ، ولعله كان من العاملين فى مجال السياسة أيضاً لذا وصف أكبر البلاد الإسلامية ولم يتعرض لغيرها إلا قليلاً . وبسبب تنقل هؤلاء الجغرافيين وأسفارهم فقد كان الكثير مما كتبوه يعتمد على المشاهدة الجغرافية والتجربة المباشرة.

(٢) الذى يجب أن نذكره عن هؤلاء الجغرافيين ، هو أنهم تحرروا من عقدة الأقاليم السبعة التى جاءت من الهنود واليونان . وهذه قيدت الجغرافيين الأوائل لأنهم ظلو ينظرون إلى المسكونة على أنها مقسمة إلى سبع مناطق موازية لخط الاستواء . أما الجغرافيون البلدانيون الذين نتحدث عنهم الآن فقد وصفوا البلاد على أنها مناطق جغرافية أو إدارية .

(٣) عنى هؤلاء الجغرافيون ، يرسم خرائط لكل منطقة وصفوها . وخرائطهم لم تكن كالخرائط السابقة ، المبنية على القياسات الرياضية، بل كانت صوراً مبنية علي الحس والاتجاه فى السفر . لذلك فهى تعطى صورة عامة ولكنها لا تصلح للقياسات الرياضية. وقد اقتصر هؤلاء الجغرافيون أصلا على بلاد الإسلام، وقلما تعرضوا للبلاد الخارجة عنها ، إلا حيث تقتضى المجاورة الإشارة إلى ذلك . ويكفى أن نلقى نظرة على خرائط الاصطخرى لنقرر وجود خرائط إسلامية محضة ، لا أثر فيها لخرائط بطليموس . كان يخصص لكل اقليم فصلاً ، ولكل فصل خريطة ملونة [(١)] .

وفى المادة التى يعرضها الإصطخرى وابن حوقل، تداخل هو من طبيعة الأمور. فقد كان الرجلان متعاصرين وكانت مصادرهما متقاربة . أما المقدسى فهو القمة فى الجغرافية البلدانية العربية . وهو صاحب منهج علمى واضح وعمله مرتب منظم ، وهو حريص على توضيح المصطلحات التى يستعملها للمسافات والأزمنة والأوزان والمكاييل، وقد حدد المقدسى منهجه فى مقدمة كتابه ، ووصف تنقله وأسفاره . ولعله عرض جزء صغير من هذا الوصف مما يعطى صورة واضحة للقارىء الكريم :

« وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها. ولم يبق شيء مما يلحق المسافرية إلا وقد أخذت منه نصيباً . فقد تفقهت وتأدبت

---

(١) **الاصطخرى** : مسالك الممالك ، تحقيق دى جويه De Goeje طبعة ليدن . ١٨٧ ص ٤٣ وهذه الخرائط مصورة فى أطلس . . . . . Miller : Islam Atlas 1920.

وتزهدت وتعبدت ، وخطبت على المنابر ، وأذنت علي المنائر ، وصحبت عباد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزنبيل، وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت فى الطريق الفساق، وبعت البضائع فى الأسواق. وسجنت فى الحبوس، وجلدت المصاحف .. وحججت وجاورت وغزوت ورابطت » . ويختم المقدسى هذه المقدمة بقوله : « ذكرنا هذا ليعلم الناظر فى كتابنا أننا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ويميزه من غيره » وفى العبارة القصيرة التالية المنقولة عن ابن حوقل ما يدل على دقة الملاحظة . يقول عن الفسطاط فى مصر : « مدينة مصر العظمى تسمى الفسطاط وهى على النيل .. والبلد كله على جانب واحد (من النيل) إلا أن فى عدوة النيل أبنية قليلة تعرف بالجزيرة يعبر إليها على جسر فى سفن ... والفسطاط مدينة كبيرة نحو الثلث من بغداد . على غاية العمارة والخصب ، وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب إليهم محالها على مثل ما بالكوفة والبصرة (والفسطاط) سنجة وأكثر السفل بها غير مسكونة وربما طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات » وهنا يرى حوقل فى الفسطاط شبهاً ببغداد من حيث الحجم لكنه يلمح أيضاً أن سكانها قبائل على نحو ما بالكوفة والبصرة [1]

تلك منهجية الكتابة الجغرافية عند العرب والتي أفاد منها الغرب في الكتب المترجمة إلي اللغات الأوروبية وقد ولع بعض المستشرقين بدراستها أمر آخر أفاد منه الغرب هو تقليد المسلمين في رحلاتهم الطويلة الجريئة . وربما شجعهم علي التقليد استخدام البحارة المسلمين للبوصلة البحرية في الملاحة وها هو ماجلان (١٤٧٠ . ١٥٢١م) البرتغالى . قام برحلة حول العالم واكتشف مضيق ماجلان جنوب أمريكا الجنوبية ، واستأنف طريقه حتي وصل إلى الفليبين وقتل فيها . ولم تقف جهود المستشرقين على الترجمة . بل أنهم قاموا بطبع كثير من كتب الجغرافية بلغتها العربية في مطابع أوروبا .

---

(١) تحقيق دى جويه De Goeje . طبعة ليدن . ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣ وأنظر أيضا : نقولا زيادة : الرحالة العرب القاهرة ١٩٥٦ .

من رواد العلوم الجغرافية

(١) المســعودى (*)

(ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)

حياته ، هو على بن الحسين بن على ، من ذرية الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، ولذا عرف باسم المسعودى ، ويكنى بأبى الحسن . نشأ فى مدينة بغداد بالعراق ، وكان ينتسب إلى أسرة عربيـة عريقـة ، اهتمت بتعليمه وتثقيفة ، وتنشئته نشأة عربيه إسلامية ، وكانت بغداد حينئذ أعظم مراكز العلم الكبرى فى العالم ، واشتهرت بمكتباتها وما حوته من تراث العرب المسلمين ، وضمت عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء والأدباء ، ولذا أتيحت الفرصة للمسعودى ليتلقى قسطاً وافراً من العلم والثقافة . ونظراً لتميز العصر العباسى الثانى بسيطرة عناصر أجنبية متعددة على الخلفاء العباسيين واستئثارهم بالسلطة دون هؤلاء الخلفاء ، رأى المسعودى أن يرحل بعيداً عن هذه الإضطرابات السياسية ، وحتى يكون أكثر حرية فى تدوين تاريخ هؤلاء الخلفاء العباسيين . حتى إذا استقر المسعودى بعد فراغه من رحلاته الكثيرة ، كان قد جمع كثيراً من الحقائق التاريخية والجغرافية ، مما جعل المفكرين يعتبرونه مؤرخاً وجغرافياً ورحالة .

بدأ المسعودى رحلاته فى سنة ٣٠٩ هـ، فغادر بغداد إلى بلاد فارس وكرمان، واستقر فترة فى إصطخر . وكانت هذه البلاد مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالدولة العباسية وفى السنة التالية (أى ٣١٠ هـ) . رحل المسعودى إلى الهند وملتان ، ثم عطف إلى كنباية فصيمور فسرنديب (سيلان) ، ومن هناك ركب البحر مصاحباً بعض التجار إلى بلاد الصين وجاب المحيط الهندى ، وزار جزائره وموانيه ، وخاصة مدغشقر وزنجبار ، ثم عاد فى نهاية رحلته إلى عمان . أما الرحلة الثانية للمسعودى ، فكانت سنة ٣١٤ هـ إلى ما وراء أذربيجان وجرجـان ، ثم رحل بعدها إلى بلاد الشام وفلسطين ، وفى سنة ٣٣٢ هـ رحل المسعودى إلى أنطاكية ، وزار ثغور الشام ، ثم

---

(١) اعتمدت فى عرض على المراجع الآتية :

١ - ابن النديم : الفهرست . القاهرة ١٣٤٨هـ . ٢ - ابن شاكر : وفيات الأعيان .

٣ - ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم .

٤ - لوبون : حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٤٥ .

٥ - نقولا زيادة : الرحالة العرب ١٩٥٦ .

عاد إلى البصرة ، ولكنه عاود الرحيل إلى بلاد الشام واستقر فترة فى دمشق .

لم تكن رحلات المسعودى هذه للنزهة ، بل كانت للإستقصاء والبحث ، ولذا جمع الكثير من الحقائق التاريخية والجغرافية ، فتفوق بذلك على المؤرخين الذين دونوا تاريخهم معتمدين على الروايات ، أو على إنتاج من سبقهم ، دون أن يعتمدوا على المشاهدة ، كما تفوق المسعودى على الرحالين الذين دونوا أخبار رحلاتهم دون أن يضعوا لها منهجاً علمياً واضحاً محدداً ، كما تفوق على الجغرافيين العرب الذين اقتصرت دراستهم على النواحي الجغرافية دون الإهتمام بالدراسات التاريخية ، وكانت رحلات المسعودى أكثر جدوى وأهمية من رحلات " المقدسى " و " البيرونى " مثلاً ، فقد تميز عنهما بالدقة والعمق .

وعندما جاب المسعودى أرجاء العالم تعرض لكثير من الأخطار والمغامرات ، وشعر بحاجته إلى الاستقرار مرة أخرى ، فكانت نهاية المطاف فى مصر ، فى مدينة الفسطاط سنة ٣٤٥ هـ ، وقد نتساءل عن سبب إختيار المسعودى الإقامة فى مصر دون غيرها من الأقطار العربية والإسلامية . ويمكننا أن نعلل ذلك بعاملين :

أولهمـــا : إضطراب الأحوال السياسية الداخلية فى بغداد ، نتيجة تنازع وتصارع كثير من القوى غير العربية حول السلطة والنفوذ مثل الأتراك والبويهيين.

وثانيهما : ما اشتهرت به مصر من هـدوء واستقرار ونهضة علمية وثقافية ، وكان الأخشيديون يحكمون مصر حينئذ ، وقد حققوا لمصر نوعاً من الشخصية المستقلة .

ظل المسعودى مقيماً فى مدينة الفسطاط بمصر حتى توفى فى السنة التالية (٣٤٦ هـ) وقد نشر فى مصر كتابه " مروج الذهب " فكان لذلك أثره فى تقدم الدراسات التاريخية فى مصر . تذكر بعض المصادر أن المسعودى كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، وقد أطنب الكتاب الأقدمون في الإشادة بالمسعودى ومؤلفاته ، فقال ابن شاكر في فوات الوفيات [١] عن المسعودى أنه " كان إخبارياً علامة ، صاحب غرائب وملح ونوادر " ووصفه ابن النديم فى كتابه الفهرست بأنه " مصنف لكتب التواريخ وأخبار الملوك " وقال ابن خلدون عن المسعودى إنه " صار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأملا يعولون فى تحقيق الكثير من أخبارهم عليه " ورغم أن ابن خلدون كثيراً ما ناقش بعض الأخبار التى رواها المسعودى فى كتبه ، ونقض بعضها ، إلا أنه أشاد به واعترف بفضله على التاريخ .

---

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

واهتم المفكرون الغربيون بالمسعودى وإنتاجه العلمى فقاموا بترجمة كثير من كتبه منذ القرن التاسع عشر إلى كثير من اللغات الأوروبية ، وقال بعضهم عنه إنه " بلينوس المشرق " وقال البعض الآخر عنه إنه " هيرودوت العرب " ولقبه ابن خلدون أمام المؤرخين ، أما تشبيهه بهيرودوت العرب فلأنه يشترك والمؤرخ اليونانى فى منهجية واحدة فى كتابة التاريخ، كلاهما جاش بصورة حب المعرفة والدأب علي جمعها، كذلك جمع بينهما استعداد كلى لتسجيل الخوارق والعجائب دون تحيز.

مصنفات المسعودى : وضع المسعودى عشرات من الكتب ، حوت أخبار رحلاته ومشاهداته وتجاربه ، ولكن معظم مؤلفاته كان مصيرها للأسف الضياع ، ومن هذه الكتب كتاب " **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة** " ، وكان يضم ثلاثين مجلداً ، لم يبق منه حتى اليوم سوى جزء واحد فى مكتبة فينا ، وهو الجزء الأول ، وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، وأخرى في المكتبة الأهلية فى باريس ، وقد أشار المسعودى إلى كتابه هذا كثيراً فى كتاب " مروج الذهب " ، فكان إذا اختصر الكلام فى باب من أبواب " مروج الذهب " قال : " وقد فصلنا ذلك في كتابنا أخبار الزمان " ، وبدأ المسعودى هذا الكتاب بالحديث عن هيئة الأرض ومدنها وجبالها وأنهارها ومعادنها ، ثم تحدث عن تقسيم الأرض إلى أقاليم وأثره فى تباين الناس ، كما تحدث المسعودى أيضاً عن أخبار الملوك القدماء ، وسير الأنبياء ، وانتهى المسعودى في كتابه إلى أحداث سنة ٣٣٢ هـ وهى السنة التى وضع فيها كتابه " **مروج الذهب** ".

ومن كتب المسعودى "**الكتاب الأوسط**" وهو وسط بين كتاب "أخبار الزمان" وكتاب " مروج الذهب " ، وقد ضاع هذا الكتاب أيضاً ، ولكن في مكتبة اكسفورد نسخة يرى البعض أنها كتاب المسعودى ، كما يظن بعض الباحثين أنه توجد فى بعض دور الكتب فى دمشق بعض أجزاء هذا الكتاب ، وإن كان من العسير الجزم بذلك .

أما كتاب " **التنبيه والإشراف** "[1] فقد جمع المسعودى فيه ألواناً متعددة منوعة من الثقافات والعلوم ، فقد لخص فيه آراءه فى فلسفة التاريخ ، ووصف صوراً من الكون ، وتحدث عن تطور آراء الفلاسفة ، والعلاقة بين كل من الحيوان والنبات والمعدن ، ونجد في الكتاب أيضاً صوراً تاريخية إسلامية وصوراً جغرافية ، ووصفاً لكثير من البلاد والأقاليم ، وقد انتهى من كتابه هذا فى سنة ٣٤٥ هـ ، وقد طبع هذا

---

(١) المسعودى: كتاب التنبيه والإشراف: تحقيق دى جويه De Goeje . ط بريل - Brill ١٨٩٤.

الكتاب فى ليدن سنة ١٨٩٤ ضمن المكتبة الجغرافية فجاء فى خمسمائة صفحة ، كما طبع طبعات مختلفة فى القاهرة وبعض العواصم العربية . وللمسعودى كتب أخرى كثيرة لم تصلنا للأسف ، وقد أشار المسعودى إليها فى مواضع مختلفة من كتابه " مروج الذهب " وهذه الكتب هى :

١ - كتاب المبادئ والتراكيب . ٢ - كتاب الرؤوس السبعة .
٣ - كتاب الزلف . ٤ - كتاب الصفوة فى الإمامة .
٥ - كتاب الإستبصار . ٦ - كتاب الزاهى .
٧ - كتاب المقالات في أصول الديانات . ٨ - كتاب سر الحياة
٩ - كتاب الدعاوى . ١٠ - كتاب الاسترجاع .
١١ - كتاب مزاهر الأخبار وظرائف الآثار . ١٢ - كتاب الرؤيا والكمال .
١٣ - كتاب طب النفوس .
١٤ - كتاب حدائق الأذهان فى أخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام .
١٥ - كتاب القضايا والتجارب . ١٦ - كتاب الواجب فى الفروض اللوازم .

منهج المسعودى في كتابه مروج الذهب : الكتاب موسوعة تاريخية وأدبية ضخمة ميزتها على سائر الموسوعات التى تضاهيها أن مؤلفها على سعة علمه وتنوع معلوماته تم له جمعها ليس فقط من الكتب ، بل أيضا من الأسفار والرحلات التى قام بها إلى كل أنحاء أسيا وأفريقيا .

أولاً : لم يتبع المسعودى سنة من سبقه من المؤرخين ، بل وضع منهجاً جديداً ، وطور الدراسات التاريخية ، وحذا بعض المؤرخين حذوه ، وخاصة ابن خلدون، فقد حاد المسعودى عن طريقة الطبرى - شيخ المؤرخين - فى كتابة التاريخ ، فقد اتبع الطبرى طريقة التأريخ بالسنين . فكان يؤرخ لأحداث التاريخ سنة بسنة ، وقد أبرز المؤرخ ابن الأثير عيوب هذه الطريقة فقال : " ورأيتهم - أى من سبقه من المؤرخين - أيضاً يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ، ويذكرون عنها فى كل شهر أشياء ، فتأتى الحادثة مقطعة ، لا يحصل منها على غرض ، ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر ، فجمعت أنا الحادثة في موضوع واحد ، وذكرت كل شئ منها ، وفي أى سنة كانت ، فأتت متناسقة متتابعة ، قد أخذ بعضها برقاب بعض . . . " وهو نفس المنهج الذى سبقه المسعودى .

أما المؤرخ اليعقوبى ، وهو معاصر للطبرى ، فقد ابتعد عن التأريخ بالسنين ، وقسم تاريخه تقسيماً موضوعياً وجعل الشخصيات التاريخية أحياناً محوراً لدراسته

وخاصة عند حديثه عن العصر الإسلامى ، واتبع المسعودى طريقة اليعقوبى ، ولكنه طورها وأضاف إليها من تجاربه وخبراته الكثير ، ومزج الدراسات التاريخية بالجغرافية، وفتح آفاقاً جديدة ، فى الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، واهتم بمعالم الحضارات . المختلفة . و لزم المسعودى الموضوعية ، وأصبحت الشعوب والملوك والأسرات والخلفاء محاور لدراساته .

ثانياً : اعتمد المؤرخون ممن سبقوا المسعودى على الروايات عن السند ، وتعدد الرواة ، وبعضهم من الثقاة ، وبعضهم الآخر ممن اشتهر بالاختلاق أو المبالغة أو عدم الدقة . وكثيراً ما تتناقض الروايات ، وتختلف فى التفاصيل والأسلوب . ولم يهتم المسعودى فى " مروج الذهب " بأن يسند أخباره إلى الرواة ، واكتفى بذكر مصادره في سلفه اليعقوبى ، فقد كتب دراسة نقدية مقارنة لمصادره ، فتحدث عن قيمة كتاب المعارف لابن قتيبة الدينورى ، ثم أشاد بكتب الطبرى وأطنب فى مدحه ، فوصفه بأنه " فقيه عصره ، وناسك دهره ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار وحملة السنن والآثار " ، ووصف كتابه بأنه " الزاهى على المؤلفات " كما امتدح كتاب نفطويه فالمؤلف " أحسن أهل عصره تأليفاً وأملحهم تصنيفاً " ، ونقد كتاب الأوراق للصولى ، وامتدحه لأن المؤلف اعتمد على المشاهدة ودعم مشاهداته بالعلم والمعرفة ، وأشار المسعودى إشارة عابرة إلى كتاب ابن المشاطة ، ثم أطنب فى مدح كتب قدامة بن جعفر ، لأنه " حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجزاً للألفاظ ، معرباً للمعانى " وكان المسعودى قاسياً فى نقده لسنان بن ثابت بن قرة الحرانى فقد وصفه بأنه " انتحل ما ليس فى صناعته ، واستنهج ما ليس فى طريقته " ، وأراد المسعودى أن يبرر نقده لهذه الكتب فاستشهد بعبارة لابن المقفع : من وضع كتاباً فقد استهدف ، فإن أجاد فقد استشرف ، وإن أساء فقد استقذف . وهذه الطريقة التى استنها المسعودى ما زال يتبعها المؤخون المحدثون حينما يخصصون مقدمة لدراساتهم يتحدثون فيها عن مصادرهم ، ينقدونها ، ويقارنون بينها ، وللمسعودى فضل السبق .

ثالثاً : اتبع المسعودى طريقة النقد التاريخى ، فلم يجامل أحداً ، ولم يتحامل على أحد ، ورغم ميله إلى مبادئ المعتزلة إلا أنه لم يتعصب لها ، وساعد المسعودى على انتهاج هذه السياسة أنه كان بعيداً عن التيارات السياسية والمذهبية التى دفعت بعض المؤرخين إلى العصبية أو الشعوبية ، وأمضى المسعودى معظم سنوات حياته فى رحلات مستمرة فلم يقع تحت سطوة حاكم أو أمير ، مما يجعله يتملقه أو يتحامل عليه ، واعتاد الحرية فى التنقل ، ومارس هذه الحرية فى كتابته . وأصبح حراً فى

نقده التاريخى ، حتى إنه لم يجد حرجاً فى انتقاد الخلفاء العباسيين المعاصرين له ، ووصفهم بالضعف وسيطرة الأتراك عليهم ، ولم يكتف المسعودى بالسرد التاريخى ، بل اهتم بالتحليل التاريخى ، والبحث عن المسببات والدوافع ونقد الأحداث ووصل إلى نتائج هامة .

رابعاً : اعتمد المسعودى فى كتابه " مروج الذهب " على المشاهدة ، فقد كان شاهداً عياناً لكل الأماكن والشعوب التى تحدث عنها ، ولم يعتمد على الروايات السماعية التى اعتمد عليها من سبقه من المؤرخين ، وساعده على ذلك رحلاته العديدة ، إذ جاب أرجاء العالم القديم ، ولذا كانت أخباره تنبض بالحياة ، وتتصف بالواقعية ، وتبعد عن الخيال أو إضافات الرواة وتحريفهم للوقائع .

خامساً : تميز المسعودى عن غيره من المؤرخين بما نسميه اليوم بالعقلية التاريخية ، وظهرت عقلية المسعودى التاريخية واضحة فى كتابه " مروج الذهب " فقد اهتم بالتطور الزمنى ، وربط بين الأحداث التاريخية ، وعقد كثيراً من المقارنات ، فهو يشبه مثلاً الدولة العباسية فى ضعفها وانقسامها بدولة الإسكندر بعد وفاته ، أما الحاسة التاريخية فقد اكتسبها المسعودى من رحلاته العديدة إلى بلاد تختلف تماماً فى معالمها وحضاراتها ، ولما كان هدفه من الرحلات البحث والإستقصاء فقد اهتم بأن ينظر إلى كل ما يراه بعين النقد والاختبار والتحليل ، ووازن بين مشاهداته وبين ما سمعه من قبل أو قرأه فى الكتب .

وقد تمت ترجمة كتاب مروج الذهب إلى الفرنسية . قام بها بارييه دومينار سنة ١٨٦١ - ١٨٧٨ وطبع فى باريس فى تسع مجلدات وهو كتاب جغرافى تاريخى ، كما ترجم إلى الانجليزية فى منتصف القرن التاسع عشر مع شروح وتعليقات وافرة . ونسخته العربية تقع فى أربعة مجلدات مذيلة بفهارس وافية .

(٢) المقدسى

(٣٣٥ - ٣٨٧هـ) (٩٤٦ - ٩٩٧م)

حياته : من مواليد مدينة القدس (ويقال إنه ولد فى الرملة من أعمال فلسطين) فى سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م وكان جده لأبيه بناء معروفا وهو الذى بنى ميناء عكا لابن طولون حاكم مصر ، ولعل هذا هو سبب عنايته بوصف الأبنية فى كتابه . والمقدسى هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الشامى

المقدسى البشارى ، ولكنه شُهر باللقبين الأخيرين فقط . واسم كتابه هو أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . وقد طبع فى ليدن في عام ١٩٠٦ بتحقيق المستشرق دوجويه [١] .

وقد زار المقدسى أصقاع العالم الإسلامى باستثناء الأندلس والسندوسجستان ، وانتهى من تأليف كتابه سنة ٣٧٥ هـ وهو بشيراز . والمقدسى منظم فى عرضه لمادته، مرتب فى تخطيطه ، واضح الأسلوب ، وكان يتعمد السجع أحيانا ، لكنه سجع طبيعى لا تكلف فيه . وقد وقف المقدسى من سابقيه فى موضوع جغرافية البلاد الإسلامية – موقف الناقد فهو يرى مثلا ، أن العلماء من قبل لم يكتبوا فى الموضوع إلا على ماندر .

أما تنظيم الكتاب من حيث مواضيعه . ففيه ذكر الأقاليم الإسلامية ، ووصف تضاريسها ، ومدنها ، وتجارتها ، وصناعتها ، وعاداتها ، وما إلى ذلك . ثم هو يحدد مصطلحاته تحديدا دقيقا من حيث معنى القصبة والمدينة ، ومن حيث المسافات والمراحل. ومن أطرف أبواب الكتاب « باب اختصرناه للفقهاء » ، حتى يوفر عليهم الجهد فى قراءة الكتاب بأجمعه . ويروى المقدسى أخبار ما عاين من الأسباب فى تأليف كتابه ، وهى أخبار طريفة لكن ليس هنا موضعها .

طبيعة إقليم الشام : يصف المقدسى « إقليم الشام » بقوله « ووضع هذا الإقليم طريف : وهو أربعة صفوف . فالصف الأول يلى بحر الروم وهو السهل : رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصف الثانى الجبل: مشجر ذو قرى وعيون ومزارع . يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا (بيت المقدس) ونابلس واللجون (تل المتسلم) وقدس والبقاع وأنطاكية . والصف الثالث الأغوار : ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل . يقع فيه من البلدان ويلة (ايلة) وتبوك (تابوك ليست من اقليم الشام) وصغر (زغر) واريحاء وبيسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع سيف البادية . وهى جبال عالية باردة ، معتدلة مع البادية ، ذات قرى وعيون واشجار . يقع فيه من البلدان ماب (مؤاب) وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب » .

يشير المقدسى إلى أن أقليم الشام يقع على بحر الروم ، وأنه يتصل ببحر الصين ، وذلك عن طريق البحر الأحمر عبر مدينة ويلة (أيلة) . كما يتحدث لماما

---

(١) وأيضا تحقيق وترجمة دى جويه De Goeje فى مجموعة طبعة ليدن ١٨٧٠ – ١٨٩٣ . وله طبعات أخرى بالإنجليزية والفرنسية .

عن مناخ الشام فيقول أنه اقليم متوسط الهواء إلا وسطه من والشراة إلى الحولة فإنه بلد الحر والنيل والموز والنخيل ، ويضيف : وأشد هذا الإقليم بردا بعلبك وما حولها . ويروى مثلا شاميا وهو أنه « قيل للبر أين نطلبك ، فقال بالبلقاء ، قيل له فإن لم نجدك ، قال بعلبك بيتى » . ويذكرنا المقدسى أن كل ما علا من إقليم الشام نحو الروم كان أكثر أنهارا وثمارا وأبرد هواء ، وما سفل منه فإنه أفضل وأطيب وألذ ثمارا وأكثر نخيلا . ويتنبه المؤلف إلى أن إقليم الشام ليس فيه نهر يسافر فيه، إنما يعبر .

كان الجغرافيون يخلطون ، أحيانا كثيرة ، بين المدن والبلدان والقصبات . أما المقدسى فقد وضع لنفسه تعريفا التزمه . فهو يقول : « وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال ، وأضيف إليه مدن الإقليم مثل دمشق . . . وربما كان للمصر أو للقصبة نواح . . . ولابد لكل إقليم من كور ثم لابد لكل كورة من قصبة ثم لكل قصبة من مدن » . ويشبه المقدسى الأمصار بالملوك ، والقصبات ، أى عواصم الكور بالحجّاب ، والمدن بالجند والقرى « بالرجالة » . وفى رأيه أن دمشق هى المكان الوحيد فى إقليم الشام الذى يصح أن يسمى مصر، وذلك بحكم ما كانت عليه فى الماضى (أى فى أيام الأمويين). أما بالنسبة إلى أيامه ، فلم تكن أكثر من عاصمة لكورة فقط .

مكونات الاقليم وموارده : وإقليم الشام ، كما قسمه المقدسى ، يتكون من ست كور هى: قنسرين وقصبتها حلب ، وحمص وقصبتها حمص، ودمشق وقصبتها المدينة ، وفلسطين وقصبتها الرملة ، والأردن وقصبتها طبرية ، والشراة وقصبتها صغر. والمقدسى كان يعرف أن بلاد الشام لم يكن فيها تقسيم إدارى واضح ، بسبب إنقسامها إلى دويلات تتحارب فيما بينها .

يجمل المقدسى ما يرتفع من بلاد الشام وأجزائها من تجارات وغيرها بقوله :

« والتجارات به مفيدة . يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والموالح والصابون والفوط ، ومن بيت المقدس الجبن وثياب القطن وزبيب العينونى والدورى ، والتفاح ، والمرايا وقدور القناديل والإبر ، ومن اريحاء نيل غاية ومن صغر وبيسان النيل والتمور ، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل ، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد ، ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال ، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات ، ومن مؤاب قلوب اللوز ، ومن بيسان الرز. ومن دمشق المعصور والبلعيسى وديباج ودهن بنفسج والصفريات ، والكاغد والجوز والنقطين

والزبيب ، ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة ، ومن بعلبك الملابن . ولا نظير لقطين وزيت وحوارى وميازر الرملة . . . ومسابح بيت المقدس » . ويشير فى مكان آخر إلى وجود معدن الحديد فى جبال بيروت ، والمغرة الجيدة بحلب ، وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام. وبالأغوار معدن كبريت. ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور . على أنه عندما يحدث عن المدن وما يتبعها أو يلحق بها ، يقدم الكثير من التفصيل ، الذى يدلنا على المكان بالذات لا على مركز تجميع المصنوعات والغلات الزراعية وغيرها . والمقدسى ينصح طالب النعمة بالحيازة للأرض وزراعتها بالفواكه وباللجوء إلى دمشق وقيسارية فى بلاد الشام . ويكثر من التغنى بالخبز فى الرملة ويمتدح كروم بصرى . ويقول أن أكثر أسواق دمشق مغطاة ، وفيها سوق على طول البلد مكشوفة . وتكثر بدمشق الثمار . ويشير إلى موضع الوراقين فى أروقة المسجد الجامع (الأموي) . والوراقون، كما هو معروف ، هم باعة الكتب يومها . ويقول عن بعلبك أنها ذات مزارع وهى موطن الاعناب . وحوران موطن القموح والحبوب ، والحولة موطن الأقطان والأزهار . وبحيرة طبرية كثيرة الأسماك . وبهذه المناسبة فإنه حرى بنا أن نذكر أن السمك المملح كان ينقل من بحيرة طبرية إلى تدمر في القرن الثانى الميلادى . وجبل عامل فيه قرى نفيسة وأعناب وأثمار وزيتون ، والمطر يسقى زروعهم . وبيسان كثيرة النخيل . وكابل مدينة على الساحل قرب عكا بها مزارع الأقصاب وبها يطبخ السكر . وعكا فى جامعها غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة . وحبرى (خليل الرحمن فى جنوب فلسطين) كثيرة القرى والكروم والأعناب والتفاح. وعسقلان كثيرة الفواكه وموطن الجميز . وغزة كبيرة على جادة مصر ويافا صغيرة إلا أنها خزانة فلسطين . وقيسارية أجل بلد على بحر الروم ، وهى حسنة الفواكه . ونابلس كثيرة الزيتون . وأريحا موطن النخيل . وعمان موطن الحبوب والاغنام . وصغر ، (جنوب البحر الميت) بها المتجر المربح وويلة فرضة فلسطين وخزانة الحجاز .

ويؤكد المقدسى على التجارة البحرية عن طريق بحر الروم من يافة (يافا) وقيسارية ، وعلى أهمية ويلة (ايلة) للبحر الأحمر وبحر الصين وعلى أهمية الزقاق (البرى) الذى يقود إلي تيماء . وهذا هو وادى سرحان .

المدن وتوابعها : يورد المقدسى أسماء أربعة وستين مركزا فى إقليم الشام ، وهى التى يسميها مدنا ، منها واحدة فقط اعتبرها مصرا بحكم ما كانت عليه فى سابق عهدها ، وهى دمشق . ولكنه عدّها فى أيامه قصبة مثلها مثل القصبات الأخرى، وهى حلب وحمص وطبرية والرملة وصغر . وقد كانت تتبع لهذه القصبات مدن أخري .

لكن المقدسى لا يعين نوع التبعية تماما أو درجتها . ويضاف إلى هذه المدن قرى ونواح. وهناك تعبير آخر هو الرستاق . والكلمة معناها ، قاموسيا ، مجموع القرى . لكن المقدسى يستعملها فى معنى آخر هو - فيما نعتقد - المنطقة التى تزود المدينة الكبيرة والقصبة ، بحاجتها من نتاج الزراعة ، كما أنها كانت تعتمد على القصبة أو المدينة فى الحصول على ما تحتاجه هى من مصنوعات . ويورد المقدسى أسماء رباطات فى كورة فلسطين يقع فيها فداء الأسرى الذين يقعون بيد الروم هى : غزة وعسقلان وأشدود ويافا . وحرى بالذكر أن افتداء الاسرى كان أمرا يتقرب به الناس إلى الله .

كانت هذه محاولة تقديم دراسة حول إقليم واحد (إقليم الشام) مستخلصة من كتاب واحد (أحسن التقاسيم) القصد منها تبيّن ما يمكن أن نحصل عليه من معلومات اقتصادية من الكتب الجغرافية هى مصدر مهم لدراسة المجتمع العربى - اقتصاديا وسياسيا . والذى أرجوه هو أن ألفت الباحثين إلى الغوص على هذه الكنوز فى المخطوطات ، كى تصبح دراساتنا مبنية علي الجهود المنظمة علميا .

(٣) الاصطخرى وفن الخرائط

(توفى ٣٨٧ هـ / ٩٩٧م)

حياته : فى دائرة المعارف الإسلامية ، هو أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى . عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

نبغ سنة ٣٤٩هـ . وطلب العلم ، وعنى بأخبار البلاد ، وما يتعلق بها ، أثار فيه ذلك شوقا وحنينا إلى السياحة ، فخرج سنة ٩٥١م يطوف البلاد ، مبتدئا من بلاد العرب إلى الهند ، ثم إلى سواحل المحيط الأطنطلى . لقى فى رحلاته نفرا من العلماء في كل فن . ولم تكن مصادر علم البلدان (علم الجغرافيا) موفورة في عصره ، فكان بذلك أول جغرافى عربى ، صنف فى هذا الباب ، إما عن مشاهدة فعلية ، وإما عن سمع سنيم من أهل البلاد ، وإما نقلا عن كتاب بطليموس فيما لم تطأ قدماه . وقد ترجمت كتبه إلي كثير من اللغات ، كما تم طبعها عدة مرات .

والذى وصل إلينا من أعماله كتابان هما :

١ - كتاب (صور الأقاليم) الذى ألفه علي اسم كتاب أبو زيد البلخى ، كما يقول الاصطخرى نفسه في صدر ذلك الكتاب .

٢ - كتاب (مسالك الممالك) ، وقد نقل عنه وعن الكتاب الأول ياقوت فى مؤلفه (معجم البلدان) .

ومسالك الممالك هذا ، هو المجلد الأول من المكتبة الجغرافية التى نشرها عام ١٩٦٧ العلامة دى جوية De Goeje .

مسالك الممالك : فى هذا المؤلف الجغرافي النفيس ، الذى يعتبر من أول ما كتب في هذا العلم، يذكر الاصطخرى أقاليم الأرض وممالكها إجمالا ، ثم يعرج قدما علي ذكر بلاد الإسلام مفصلة . ويقسم المعمور من الأرض إلي عشرين إقليما ، ثم يذكر كل إقليم منها ، بما اشتمل عليه من المدن ، والبقاع ، والبحار ، والأنهار .

وعلى هذا النحو ، ذكر أولا ديار العرب ، ثم اتبعها بالكلام على بحر فارس فبلاد المغرب ، ومصر ، والشام ، وبحر الروم ، والجزيرة ، والعراق ، وخراسان ، وكرهان ، وما اتصل بهما من بلاد السند والهند إلى ما وراء النهر .

ويروى دى جويه أنه اعتمد فى تأليف هذا الكتاب ، علي كتاب سابق هو (صور الأقاليم) لابن زيد أحمد بن سهل البلخى ، من علماء القرن الرابع الهجرى . وعلي اية حال ، فقد ألف الاصطخرى كتابه الثانى وأسبغ عليه نفس الاسم . ومن هذا الكتاب نسخة (في مجلد واحد) مخطوطة بقلم نسخ ، ناقصة من الأول ومن الآخر ، تبدأ بالكلام عن مصر وتنتهى بالكلام عن المسافة بين نهر الترك ونهر إيلات . وهناك نسخة أخرى منها (فى مجلدين) مأخوذة بالتصوير الشمسى عن نسخة مخطوطة بقلم نسخ تضم ٢٩٩ لوحة ، منها إحدى وعشرون خريطة . الخريطة الأولي في صورة الأرض ، والثانية فى ديار العرب ، والثالثة في بحر فارس ، والرابعة في بلاد المغرب ، والخامسة فى بلاد مصر ، والسادسة فى بلاد الشام ، والسابعة فى بحر الروم ، والثامنة فى صفة البحر وما فيه ، والتاسعة فى العراق ، والعاشرة فى خرذستان، والحادية عشرة في إقليم فارس ، والثانية عشرة فى إقليم كرمان ، والثالثة عشرة في جبال السند وما فيها من المدن ، والرابعة عشرة فى أرمينية وأذربجان، والخامسة عشرة فى جبال السند وما فيها من المدن والسادسة عشرة فى إقليم الديلم وطبرستان ، والسابعة عشرة فى بحر الخزر (قزوين) ، والثامنة عشرة فى مفاز بين فارس وخراسان ، والتاسعة عشرة فى إقليم سجستان .والخريطة العشرون فى إقليم خراسان، والحادية والعشرون فيما وراء النهر: ومكتوب عليها (كتاب صور الأقاليم).

وهناك نسخة أخرى في مجلد واحد مأخوذة بالتصوير الشمسى ، عن مخطوطة بقلم نسخ ، كتبها ابراهيم أحمد السنيابى ، وقد تم منها فى أواخر شوال سنة ٧٧٨هـ. هذا كما توجد نسخة أخرى بالزنكغراف عن مخطوطة كتبت عام ٦٩٠هـ . وفي ليدن نسخة أخيرة مطبوعة عام ١٨٧٣م فى مجلد واحد .

كتاب صور الأقاليم : يشتمل هذا الكتاب على حدود الممالك . وصور أقاليم الأرض ، ومدنها ، وبحارها ، وأنهارها ، والمسافات بينها مفصلة . وقد وضح كل ذلك بالخرائط ويسميها الاصطخرى باسم (الصور) . وجملتها ١٩ صورة . وقال المؤلف فى صدر كتابه أنه عول على (صور الأقاليم) لأبى زيد البلخى - طبع بمعرفة المستشرق مولار ومعه الخرائط ملونة ، وهى ١٩ خريطة مثل الأصل تماما - طبع حجر دى جويه ١٨٣٩م .

(٤) أبو حامد الغرناطى

(٤٧٣ - ٥٦٥ هـ) (١٠٨٠ - ١١٧٠ م)

حياته : ربما كانت سير رحالة العرب أغرب من الكثير مما ملأوا به كتبهم من أحاديث العجائب وهذا أمر ليس بغريب لأن الرحلات فى تلك العصور كانت ضرباً من المغامرة بالنفس والمال ، فإن الطرق كانت غير آمنة ، واللصوص وقطاع الطريق كانوا رَصَداً للقوافل على مراحل السبل ، ولم يكن للحكومات عناية كبيرة بالطرق والمواصلات ، وكان رجال الجمارك بلاء على التجار وأهل القوافل . أما سفن البحر فكانت مهالك ومعاطب . فمن يترك أمان بيته ، وبلده وأهله ويلقى بنفسه فى المهالك إلا المغامر الجرئ القلب ، أو طالب الحج الذى يخرج لأداء الفريضة وكأنه خارج للجهاد ، أو التاجر الذى يطلب الرزق ولا مفر له عن هذا السبيل ، أو طالب علم متعطش للمعرفة ساع لمستقبله ، فهو يخرج طالباً للشيوخ وأهل العلم ، أو مغامر بطبعه لا يحلو له العيش إلا مع ركوب الأخطار .

ومن أغرب نماذج أولئك المغامرين بالطبع في تاريخنا الفكرى هو **أبو حامد الغرناطى** ، واسمه الكامل محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسى الغرناطى الأندلسى ، كان إنسانًا قلقًا جمع صفات شتى منها الرغبة فى المعرفة لذاتها ، والجرأة على ركب المخاطر والاستهانة بالمتاعب والقدرة على السفر الطويل ، والعيش فى أجواء قاسية فى بلاد نائية عن بلاد الإسلام . وكانت تحركه إلى الرحلة رغبة فى الاتصال بالجماعات الإسلامية المنقطعة فى نواح نائية وتعليم أفرادها قواعد الإسلام .

وأطرف من هذا كله أن أبا حامد كان رجلاً يحب الحلال والعيش الطيب، ويجيد المقاومة ورواية الفكاهات ، فكان محبَبًا إلى الناس قريباً إلى قلوبهم فى كل مكان حلّ فيه . وإلى جانب ذلك ، وعلى رغم ما ركب من مخاطر عاش أبو حامد تسعين عاماً ،

ومات على فراشه فى دمشق سنة ١١٧٠ ميلادية مخلفًا أهلاً وأولاداً فى المجر ، وأهلاً وأولاداً فى بلدة تسمى سجستى عند مصب نهر الفولجا ، وأهلاً وأولاداً آخرين فى خوارزم فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود . فإذا ذكرنا إلى جانب هذا أن ابا حامد كان أندلسيًا ولد فى سنة ١٠٨٠ فى قرية صغيرة تسمى قيس قرب غرناطة في جنوبى أسبانيا مبيّنًا أن هذا الرجل طوى الأرض طيًا بالفعل كما يقولون ، ورأى بعينيه معظم العالم المعمور على أيامه ، وفاق ابن بطوطة فى بعد الرحلة وطول السفر.

بدأ رحلاته وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، فغادر الأندلس إلى المغرب فى طلب الرحلة ومشاهدة البلاد والعباد ولا زيادة ، فإنه لم يكن بذى ولع كبير بالدراسة المنتظمة على الشيوخ على طريقة طلاب العلم فى أيامه . ذهب أبو حامد أولاً إلى المغرب الاقصى ووصل إلى جنوبه واستقر بعض الوقت فى بلدة سجلماسة ، وكانت علي الحدود بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربى ، فإلى جنوبها تمتد الصحراء الفاصلة بين المغرب والسودان الغربى . وقد اهتم أبو حامد بقبائل بلدان السودان ووصفها وأعطانا فكرة عن أسلوب حياتها . من المغرب اتجه أبو حامد شرقًا ، فزار الجزائر ثم تونس ثم وصل إلى مصر حيث قضى سنتين يتعرف على الناس ويتفرج على المعالم والآثار ويبحث عن العجائب ، وكان شديد الولع بها وبأحاديثها .

من ذلك الحين تصبح حياة أبى حامد رحلة واحدة متصلة ، فلا يقرّ له قرار فى ناحية عامًا أو عامين حتى يشدّ رحاله من جديد ، وكان بالإضافة إلى ذلك إذا استقر فى بلد أخذ يطوف بنواحيه ومدنه يتفرج ويعمل ويتصل بالناس ، كأنما كان يدفعه إلى الحركة شوق عظيم نحو المجهول ورغبة لا تخبو فى الوقوف على غرائب هذا الكون وبدائع صنع الله فيه .

من مصر مضى إلى الشام ، فزار دمشق وأقام بها بعض الوقت ، ثم مضى إلى بغداد ، ومن يوم وصوله إليها أصبحت مركز حركاته ورحلاته ، منها يخرج للرحلة وإليها يعود ، لأنه حظى هناك بصداقة أحد الوزراء العباسيين ، وهو يحيى بن عمرو بن هبيرة المعروف بعون الدين ، فأصبح هذ الرجل راعيه وملجأه ، فكان هذا الوزير لا يضن على أبى حامد بشئ ، وكان أبو حامد يطرفه ويسلّيه بأخبار رحلاته وعجائب ما يصادفه فيها . وهذا الوزير عون الدين هو الذى كان يستحث أبا حامد إلى الكتابة والتأليف ، ولولاه ما كتب أبو حامد شيئاً . من بغداد اتجه أبو حامد شرقًا حتى وصل إلى أبهر فى أقصى شرقى هضبة ايران ، ثم رحل إلى أردبيل عند الضفة الجنوبية لبحر

قزوين ، ثم سواحل بحر قزوين ودربند وبلاد الخزر ، وقد ألف كتاباً عرض فيه لرحلاته في أرجاء الأندلس وأفريقيا وأسماه **نخبة الأذهان** في عجائب البلدان وله كتابان معروفان آخران هما **المغربان بعد عجائب البلدان** وموضوعه الرحلات في بلاد المغرب وكذلك **تحفة الكبار في أشعار البحار** وموضوعه رحلات البحر ، وتوجد منه نسخة مخطوطة في الأكاديمية التاريخية بمدريد . ذكره بالنثيا Palencia في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي . كما ذكره شوقي ضيف في كتابه الرحلات سلسلة دار المعارف عن فنون الأدب العربي .

(٥) الإدريسي وفن الخرائط (*)

(٤٩٥ - ٥٦٠ هـ)(١٠٩٩ - ١١٦٦ م)

حياته : - يعرف بالشريف الإدريسي إذ يتصل نسبه بالحسن بن علي ، وهو عالم جغرافي ورحالة كبير ، تعلم في مدينة قرطبة بالأندلس ، وأخذ عن علمائها و اشتهر بمعرفة علم الهيئة والجغرافيا والطب والنجوم ، وكان إلى جانب ذلك أديباً ذواقة للأدب، يقرض الشعر وينظمه ، زار بلداناً مختلفة ، وترك لنا وصفاً شائقاً لمعالمها ومدنها ، وطاف في القسطنطينية وآسيا الصغرى ومصر ومراكش والأندلس ، وعبر البحر إلى إنجلترا بعد أن زار فرنسا ، ثم عاد إلى جزيرة صقلية حيث قابله أهلها بترحاب عظيم ، وأغدق عليه ملكها " روجر الثاني " (١١٠١ - ١١٥٤م) واصطنع الإدريسي للملك " **روجر** " - بناء على طلبه - كرة أرضية من الفضة ، وكتب عليها بأحرف عربية كل ما كان يعرفه من البلدان المختلفة . وقد سجل الإدريسي ما شاهده في كتاب أطلق عليه " **نزهة المشتاق في أخبار الآفاق**"، **وقيل " في اختراق الآفاق** " . وكان هذا الكتاب عوناً للجغرافيين الغربيين في توسيع معارفهم العامة ، كما كان عوناً للمستكشفين البرتغاليين في القرن الخامس عشر على إرتياد الأماكن المجهولة .

(*) أعتمدت في عرضي لشخصية الادريسي على المراجع الآتية :

١ - **الإدريسي** : نزهة المشتاق في أخبار الآفاق .

٢ - **كراتشكوفسكي** : تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة ١٩٦٢

٣ - **عبد الحليم منتصر** : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف ١٩٨٥

٤ - **نافيس أحمد** : جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان ، القاهرة ١٩٥٧.

٥ - **قدري طوقان** : العلوم عند العرب . القاهرة ١٩٦٠ .

وكان مما وصف به نهر النيل فى بلاد النوبة قوله : "وعرض النيل فى بلاد النوبة ميل واحد ، وعرضه فى قبالة مصر ثلث ميل ، وفى البطيحات الصغار وما بعدها من النيل ، الحيوان المسمى بالتمساح ، يخرج إلى الجهات المجاورة إلى النيل فيأكل بها الزرع ويرجع النيل ، وفى النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها "اللاش " لا تظهر به إلا ندرة ، وهى كثيرة اللحم ، طيبة الطعم ، وفيه أيضاً سمك يسمى "الأبرميس " وهو أبيض مدور أحمر الذنب ، ويقال أنه ملك السمك . وتلمح فى كتاب الإدريسى ملامح واضحة للجغرافيا البشرية وعادات الأهالى ، وتقاليدهم الإجتماعية ، وملابسهم وأزيائهم . . . فيقول فى وصف أهل المغرب الأقصى : " أهلها يلبسون أفواههم - وهى عادة من عوائدهم توارثها الأبناء عن الآباء ، لم ينتقلوا عنها ، ولم يتحولوا منها " .

وقد وصف الإدريسى فى رحلاته شتى مدن الأندلس ، ألقى أضواء على ماعبره من جزر أو طاف به من مدن ، وعندما وصل إلى قرطاجنة ألفاها مدينة " أزلية " ، لها مرسى ترسو عنده المراكب الصغيرة والكبيرة ، ووجدها كثيرة الخصب والرخاء ، ولها إقليم يسمى " الفندون " قلما يوجد مثله فى الخصوبة والجودة ، ويحكى أن الزرع فيه يثمر بسقى مطرة واحدة ، وإليه المنتهى فى الجودة ، ووصف الإدريسى الأنهار التى تشق أرض الأندلس وصفاً شائقاً ، كما صور الحياة في وديان هذه الأنهار ، والأسواق الموجودة فيها ، والمعادن الدفينة فى أرضها ، وألوان المتاجر التى تعبر البحر إلى شتى الأقطار والأمصار ، والستور والثياب وأنواع الحرير وصنوف النحاس والحديد وغيرها مما تحمله السفن من الموانى المختلفة .

كما وصف الإدريسى القصور الموجودة فى الأندلس ، والقلاع والحصون ، وعرج على ذكر تواريخها ، ومنها تلك الحصون التى كان يسكنها البربر فى عهد الأمويين .

وقد وفق فى وصف البيئة الجعرافية للبلاد التى زارها ، فقال مثلاً فى وصف مدينة " جنوة " فى إيطاليا ، " مدينة قديمة أزلية البناء ، حسنة الجنبات والأفناء ، بنيانها شاهق ، وهى وافرة الثمر ، كثيرة المزارع والقرى والعمارات ، وهى على قرب نهر صغير، وأهلها تجار ، يسافرون براً وبحراً ، ولهم أسطول مخيف ، ولهم معرفة بالحيل الحربية ، والآلات السلطانية ، ولهم بين الروم عزة نفس " . وقال فى وصف مدينة روما : "ومدينة رومة مدينة عظيمة الدور ، يذكر أن محيطها تسعة أميال ، ولها

سوران من حجارة ، وعرض السور الداخلى إثنا عشر ذراعاً ، وسمكه إثنان وسبعون ذراعاً ، وعرض السور الخارجى ثمانية أذرع ، وسمكه إثنان وأربعون ذراعاً ، وفيما بين السورين نهر مغطى ببلاطات نحاس ، طول البلاطة منها ستة وأربعون ذراعاً ، وسوقها ما بين الباب الشرقى إلى الباب الغربى ، وعليها حوانيت تجار ، وفى مقدم هذه الحوانيت نهر يشقها من المشرق إلى المغرب ، قاعه كله مفروش ببلاط النحاس (يقصد صفائح النحاس) . ومضى الإدريسى بعد ذلك يصف مدن إيطاليا ومدن فرنسا وإنجلترا ، بيد أن الشئ الملاحظ في كتابات الإدريسى كثرة أسماء المدن التى تغيرت في الجغرافيا الحديثة حتى إن القارئ المتخصص يحتاج إلى كثير من الجهد والعناء فى التعرف على البلاد التى كانت تحمل هذه الأسماء ، ويضم كتاب الإدريسى " **نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق** " بعض المعلومات الجغرافية المتصلة بالجغرافية الفلكية ، كقوله : "... إن الأرض مدورة كتدوير الكرة ، والماء لاصق بها وراكد عليها ركوداً طبيعياً لا يفارقها ، والأرض والماء مستقران فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ، ووضعهما وضع متوسط ، والنسيم محيط بهما من جميع جهاتهما ، وهو جاذب لهما إلى جهة الفلك ، أو دافع لهما ... والله أعلم بحقيقة ذلك. " والأرض مستقرة فى جوف الفلك - وذلك لشدة سرعة حركة الفلك - وجميع المخلوقات على ظهرها ، والنسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ، بمنزلة حجر المغناطيس الذى يجذب الحديد إليه " .

ويقسم الإدريسى الأرض بعد ذلك إلى سبعة أقاليم ، وتخترقها سبعة أبحر يسميها خلجانا ، ستة منها متصلة ، وبحر واحد منفصل لا يتصل بشئ من البحور المذكورة . وأحد هذه البحور التى فى الأرض المعمورة هو بحر الصين والهند والسند واليمن ، مبدؤه من جهة المشرق فوق خط الإستواء بثلاث عشرة درجة ، ممتد مع خط الإستواء إلى جهة الغرب ، فيمر بالصين أولاً ثم بالهند ثم بالسند ثم باليمن على جنوبها ، وينتهى إلى باب المندب .

ولاشك أننا نضع أيدينا فى كتاب الإدريسى على كثير من المعلومات فى الجغرافيا الفلكية والطبيعية والإقتصادية ، كما ظهرت فى كتابه لمحات عن النظم الإجتماعية عند مختلف الجماعات والأقوام ، وذلك من حيث توزيعها وعلاقتها بالبيئة، ثم علاقة بعضها ببعض - أو ما يسمى بالجغرافيا الإجتماعية .

كما ظهرت فى كتاب الإدريسى تلك الصلة بين الجغرافيا الإجتماعية والجغرافيا الإقتصادية ، وهناك إشارات مختلفة إلى نظم الحكم السائدة فى بعض المناطق ، مما يعد محاولة أولى لدراسة الجغرافيا السياسية .

بيد أن الإدريسى يستحق كل إعجاب وتقدير ، إذ استطاع - مع ما فى كتابه من أخطاء جغرافية - أن يضع أمام من أتوا بعده من الجغرافيين أساساً للبناء .

وقد وجدت من كتابه نسخة خطية بمكتبة باريس عام ١٨٢٠ ، فترجمها "جوبرت " إلى اللغة الفرنسية ونشرت بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ ، وقد ترجمها أيضا يوحنا الحصرونى وجبرائيل الصهيونى إلى اللغة اللاتينية ، ونشرت مع النسخة العربية ، وهاتان النسختان المنشورتان اختصار لنسخة موجودة فى مكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، وقد طبعت ترجمة الحصرونى وجبرائيل فى باريس . ونشر الأستاذان دوزى ودى جويه مختصراً للكتاب أطلقا عليه "صفة المغرب والسودان " . وطبع قسم من الكتاب فى "بانورمى" عام ١٧٩٠ ، ومنه "ذكر الأندلس" تأليف شريف الإدريسى (كذا) ، ومعه ترجمة أسبانية بقلم المستشرق كوندى عام ١٧٩٩ . وطبع الكتاب أيضاً في مدريد عام ١٨٨١ ومعه ترجمة أسبانية للأستاذ سافدرا.

وترجم إميدى جوبار إلى الفرنسية جغرافية الشريف الإدريسى عن النسخة الموجودة فى مكتبة باريس وطبعها بين عامى ١٨٧٧ و ١٨٧٩ ، ومنه مملكة إيطاليا، ومعها ترجمة إيطالية وشروح وتعليقات بقلم إمارى وشيابارلى . وطبع الكتاب فى مدينة ليبزج عام ١٨٢٨ على وجه التقريب مرة أخرى ، وقام بطبعة العالم روزن ملر.

وذكر المؤرخ الكبير المرحوم أحمد زكى باشا[١] فى مقال له نشره بجريدة المؤيد فى ٦ فبراير عام ١٩١٢ أنه تمكن من العثور على أربع نسخ خطية من هذا الكتاب ، ولم يكن في دار الكتب الخديوية منه إلا الجزء الأول مكتوباً بخط جميل ومتضمناً للمصورات الجغرافية (الخرائط) ، غير أنه طرأ عليها تشوية وتحريف كبير قلل من قيمتها العلمية .

---

(١) **أحمد زكى** شيخ العروبة : (١٨٦٧ - ١٩٣٤) رائد مصر الأول لإحياء الآداب العربية ، والبحث عن ذخائر المخطوطات وجمعها وتصويرها وتحقيقها .حقق عشرات القضايا والمواقف والأعلام وأسماء البلدان وكلمات اللغة .

راجع : أنور الجندى : أحمد زكى الملقب بشيخ العروبة . أعلام العرب العدد ٢٩ - ١٩٦٣.

وجاء في مقدمة هذه النسخ التي عثر عليها أحمد زكي باشا أن الإدريسي ألف هذا الكتاب مصوراً لأشكال الكرة الأرضية وصورها ، وزاد عليها بوصف الأحوال والأرضين : في خلقها وبقاعها ، وأماكنها وصورها ، وبحارها وجبالها وأنهارها ، ومزروعاتها وغلاتها ، وأجناس بنائها وضواحيها ، والصناعات التي تنفق فيها ، والتجارات التي تجلب إليها وتحمل عنها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها .

ولما اتسعت أعمال مملكة روجر أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقيناً وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً ، وفي أي إقليم هي مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار ، وطلب ما في الكتب المؤلفة في هذا الفن - مثل كتاب العجائب للمسعودي وكتاب أبي نصر سعيد الجيهاني ، وكتاب أبي القاسم عبيد إبن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذري ، وكتاب أبي القاسم محمد الحوقلي البغدادي، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكي ، وكتاب موسى بن قاسم القردي ، وكتاب قدمة البصري ، وكتاب بطليموس القالوذي ، وكتاب أرسيوس الأنطاكي ... إلخ - فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلاً ... فأحضر إليه العارفين بهذا الشأن ، لم يجد عندهم أكثر مما في الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال ، بعد إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها . وقد شفى الإدريسي غليل الملك "روجر" بتأليف هذا الكتاب وبلغ من إكرامه أن كان أجلسه معه ، وأفاده بما أراد ، ثم عندما هم بالخروج ... شيعه الملك بنفسه إلى عتبة القصر . وقد رسم الإدريسي ٨٢ خريطة لبلاد العالم وعلي الأخص أوروبا . وقد بقيت هذه الخرائط لعدة قرون الأساس الذي بني عليه رسم الخرائط في عصر النهضة الأوروبي ، كما أن طبقة الجغرافيين المسلمين الذين أتوا بعد الإدريسي لم يضيفوا خرائط جديدة [(١)] .

مؤلفات الإدريسي الأخرى :

شغف الإدريسي بالمعارف الطبية فألف كتاب "الأدوية المقرحة والعقاقير البسيطة" ذكر فيه أسماء بعض العقاقير بإثنتي عشرة لغة مما يدل على قدراته اللغوية .

---

(١) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى . الانجلو ١٩٧٢ ص ٢٤ .

(٦) ياقوت الحموى

(٥٧٥ - ٦٢٦هـ) (١١٧٩ - ١٢٢٨م)

حياته : هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي . لا تذكر المراجع الأصيلة شيئا عن تاريخ ميلاده ، إلا أن الثابت أنه أخذ أسيرا من بلاد الروم ، وحمل إلى بغداد مع غيره من الأسرى ، حيث بيع ، واشتراه تاجر غير متعلم، يقال له عسكر الحموي، فنسب إليه وسمي ياقوت الحموى. وقد ألحقه مولاه بأحد « الكتاتيب » ليتعلم ، على أمل أن ينفعه وينفع الناس ، ولو في ضبط الحسابات ، وحصر الأعمال التجارية . وقرأ ياقوت شيئا عن النحو ، والصرف، وفنون اللغة ، واستخدمه مولاه فى الأسفار للتجارة ، ثم أعتقه وأقصاه عنه. وعدئذ راح ياقوت يكد ويكسب العيش ، عن طريق نسخ الكتب ، إلا أنه استفاد من ذلك كثيرا ، وطالع العديد من الكتب . واتسع أفقه العلمى . وكانت الكتب تنسخ ، ويقتنيها الناس ممن يهتمون بالعلم والقراءة ، وجمع الكتب وكانت الأسواق تعج بالكتبة والخطاطين ، وباعة الكتب والوراقين .

وبعد فترة ، أعاد مولى ياقوت ، الرجل إلى عمله عنده ، وعطف عليه ، ووكل إليه إدارة أعماله ، والسهر علي أسفاره للتجارة ، فاستفد ياقوت من رحلاته العديد، وجمع المعلومات الجغرافية الفريدة . وقد شارك في تركة مولاه بعد وفاته ، ثم سافر إلي حلب ، وبدأ استغلال معلوماته ، بالتنقل من بلد إلي بلد ، حتي استقر به المقام في خوارزم ، التي مكث فيها إلي حين إغارة جنكيز خان المغولي عام ٦١٦هـ (١٢١٩م) ، ففر ياقوت معدما إلى الموصل ، مخلفا وراءه كل ما يملك ، ثم سار إلى حلب ، وأقام في ظاهرها ، إلى أن مات عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م).

فكره ومدرسته : لعل أهم مرجع يدلنا علي فكر ياقوت ، وعلي مدرسته ، أقواله التي ظهرت في مقدمة كتابه العاني المشهور «معجم البلدان» إذ نجده يقول:

« أما بعد ، فهذا كتاب في أسماء البلدان ، والجبال ، والأودية ، والقيعان ، والقرى ، والمحال ، والأوطان ، والبحار ، والأنهار ، والغدران ، والأصنام ، والأوثان.. ولم أقصد بتأليفه بها نفسى وتصنيفه ، لهوا ولا لعبا ، ولا رغبة حدثتنى إليه ، ولا رهبا ولا حنينا إلى وطن ، ولا طربا حفزنى إلى ذى ود وسكن ، ولكن رأيت التصدى

له واجب ، والانتداب له مع القدرة عليه فرضا لازما . ونقفنى عليه الكتاب العزيز الكريم ، وهدانى إليه النبأ العظيم ، **وهو قوله عز وجل حين أراد أن يعرف عباده آياته . . ويقيم الحجة عليهم :**

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور ﴾ . فهذا تقريع لمن سار في بلاده ولم يعتبر ، ونظر إلى القرون الخالية فلم ينزجر).

من كلامه عن البيئة الطبيعية : « وأما أهل الحكمة والتفهيم ، والطب والتنجيم ، فلا تقتصر حاجتهم إلى معرفته عمن قدمنا ، فالاطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها ، والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها ، إذا كانوا لا يحكمون علي البلاد إلا بطوالعها ولا يقضون لها أو عليها بدون معرفة أقاليمها ومواضعها . ومن كمال المتطيب أن يتطلع إلي معرفة مزاجها وهوائها . وصحة أو سقم منبتها ، وصارت حاجتهم إلى ضبطها ضرورة ، وكشفهم عن حقائقها فلسفة .

كلمة جغرافيا : ويستمر ياقوت فى حديثة عن البيئة الطبيعية ، بطريقة فريدة رائعة حتى يقول : « . . ولذلك صنف كثير من القدماء كتبا سموها (جغرافيا) ، ومعناها صورة الأرض ، وألف آخرون كتبا فى أمزجة البلدان وأهوائها . . . » .

اختصار الكتب وعمل الملخصات : لياقوت الحموى رأيه في هذا الشأن ، وهنا المطلب الذى يستهوى الطلبة وذلك كأستاذ قدير ومعلم فذ ، إذ نجده يقول :

« وقد التمس منى الطلاب ، اختصار هذا الكتاب مرارا ، فأبيت ، ولم أجد لى علي قصر همتهم أولياء ولا أنصارا ، فما انقدت لهم ، ولا ارعويت . ولي علي ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ، إنه لا يضيع نصبى ونصب نفسى له ، بتبديد ما جمعت، وتشتيت ما لفقت ، وتفريق ملتئم محاسنه . . . » .

« ثم اعلم أن المختصر لكتاب ، كمن أقدم على خلق سوء ، فقطع أطرافه ، وتركه أسل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصم الأذنين ، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلا ، أو كالذى سلب الكمى سلاحه ، فتركه أعزلاً راجلا !! » .

أهم مؤلفاته : أهم مؤلفاته كتاب «معجم البلدان»، ويقع فى خمسة أجزاء، وهو مؤلف عظيم الفوائد، منه مخطوطة نشرها المستشرق الألمانى وستنفلد، بعد أن حققها من ثلاث نسخ فى برلين، وباريس، وبتر سبرج. كما ترجم باربيه دومينار الجزء الخاص ببلاد فارس إلى الفرنسية وطبع فى باريس عام ١٨٦١ . ويصفه چورج سارتون بأنه معجم غنى جداً للمعرفة ولا نظير له فى مختلف اللغات . ولياقوت كتاب أخر خلد ذكراه هو معجم الأدباء ، يتضمن معلومات جغرافية نافعة بجانب فوائده الأدبية .

ومهما يكن من شىء ، فان « معجم البلدان » قد حقق وطبع عدة مرات ، منها طبعة أخيرة فى بيروت عام ١٩٥٥ . وهو كتاب جم النفع . وكما أن «لسان العرب» معجم جغرافى ، فيه مواقع ما يحتاج إليه الباحث . أو يتطلع إليه الدارس ، من مدن، وقرى ؛ وجبال وأنهار ؛ و . . . الخ . ويسجل الكتاب وصفاً لكل ما استطاع المؤلف أن يعلم شيئا عنه من المدن والمواضع ، كما يقدم وصفاً مفصلا لديار الإسلام من الأندلس إلى ما وراء النهر والهند فى القرن الثالث عشر .

ويقول ياقوت الحموى فى مقدمة كتابه هذا : « الحمد لله الذى جعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا ، وبث من ذلك نشورا ووهادا ، وصحارى وبلادا ثم فجر خلال ذلك أنهارا، وأسال أودية وبحارا ، وهدى عباده إلى اتخاذ المساكن وأحكام الأبنية والمواطن، فشيدوا البنيان ، وعمروا البلدان، ونحتوا من الجبال بيوتا، واستنبطوا آثارا للغابرين.

ويعالج ياقوت الحموي في كتابه هذا خمسة مواضيع رئيسية هي :

١ - ذكر صورة الأرض ، وما قاله المتقدمون فى هيئتها ، والمتأخرون فى صورتها.

٢ - معنى الأقليم وكيفية . .

٣ - البريد - الفرسخ - الميل - الكورة . . . وهى ألفاظ يكثر تكرارها .

٤ - حكم الأرضين والبلاد المفتتحة فى الإسلام .

٥ - أخبار البلدان التي يختص ذكرها بموضع دون موضع .

ويشهد بأسبقية ياقوت الحموى وأصالته المستشرقان الأمريكى چورج سارتون فى كتابة المدخل لتاريخ العلم والفرنسى كارادى ڤو فى كتابه الإسلام، وأن أول مصنف أوروبي من هذا النوع وضعه أورتليوس البلجى سنه ١٥٧٨م أى بعد ٤ قرون من ياقوت[١] .

---

(١) راجع : **محمد بهجة الأثرى** : الرواد دار المقتطف . المجمع الراقى ١٩٥٢ ص ٥٦ .

(٧) القزوينى والجغرافية البيئية

(٦٠٥ - ٦٨٢ هـ) (١٢٠٨ - ١٢٨٣م)

هو ابن عبد الله بن زكريا بن محمد بن محمود القزوينى . وينتهى نسبة إلى أنس بن مالك . . ولد فى قزوين فى مطلع القرن السابع (٦٠٥ هـ) وتوفى سنة ٦٨٢ هـ الموافق ١٢٨٣م . كان إلى جانب اشتغاله بالقضاء . معنيًا بالتأليف فى الجغرافيا والتاريخ وما يشبه التاريخ الطبيعى ومن أشهر كتبه **عجائب المخلوقات** وغرائب الموجودات ، تكلم فيه عن السماء وما فيها. معالجاً ما يسمى بعلم الفلك ، وصف الكواكب والأبراج وحركاتها ، وما يترتب على ذلك من الفصول والشهور وتكلم عن الأرض وما عليها ، فذكر أصل الأرض وطبيعتها ، وكرة الهواء ، وأصل الرياح وأنواعها ، وكرة الماء وما فيها من البحار والجزر ، والحيوانات العجيبة ، ثم اليابسة ، وما عليها من جماد ونبات وحيوان ، ورتب كلا من هذه على حروف المعجم .

وله كتاب فى آثار البلاد وأخبار العباد فى التاريخ ، بدأه بعد الديباحة بثلاث مقدمات ، الأولى فى الحاجة الماسة إلى أحداث المدن والقرى ، والثانية فى خواص البلاد وقسمها إلى فصلين ، الأول فى تأثير البلاد فى السكان ، والثانى فى تأثير البلاد فى النبات والحيوان ، والثالث فى أقاليم الأرض ، ثم أفاض بعد ذلك فى أخبار الأمم الماضية، وتراجم كثيرة عن الأولياء والعلماء والسلاطين والشعراء ، والوزراء والكتاب ، وغيرهم ، وله مؤلفات أخرى كثيرة .

وقد شغف القزوينى بالفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن ، ويعتبر كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات من أنفس مؤلفاته فى الجغرافية البيئية .

كان يوصي بإعادة النظر فى عجائب صنع الله ، وكان مستغرقاً بالنظر فى آيات الله البينات فى مصنوعاته ، وغرائب إبداعه من مبتدعاته مسترشداً بقوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج ﴾ . يقول: وليس المراد بالنظر تقليب الحدقة نحوها ؛ فإن البهائم تشارك الإنسان فيه ، ومن لم ير من السماء إلا زرقتها ، ومن الأرض إلا غبرتها ، فهو مشارك للبهائم فى ذلك وأدنى حالاً منها وأشد غفلة . كما قال تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم

أعين .. ﴾ إلى أن قال : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ [(١)] .

يقول : والمراد من النظر التفكير فى المعقولات ، والنظر فى المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها ، لتظهر له حقائقها ، فإنها سبب اللذات الدنيوية والسعادات الأخروية . وكلما أمعن النظر فيها ، ازداد من الله تعالى هداية ويقيناً ، ونوراً وتحقيقاً . والفكر فى المعقولات لا يتأتى إلا لمن له خبرة بالعلوم والرياضيات ، بعد تحسين الأخلاق وتهذيب النفس ، فعند ذلك تتفتح له عين البصيرة ، ويرى فى كل شئ من العجب ، ما يعجز عن إدراك بعضها [(٢)] .

ويقول : لقد حصل لى بطريق السمع والبصر والفكر والنظر ، حكم عجيبة ، وخواص غريبة أحببت أن أقيدها لتثبت ، وكرهت الذهول عنها مخافة أن تفلت ، وإنه ليوصى القارئ بأنه إذا أراد أن يكن على ثقة ما فى كتابه ، فليشمر للتجربة « وإياك أن تفتر أو تعتل . إذا لم تصب مرة أو مرتين ، فإن ذلك قد يكون لفقد شروط أو حدوث مانع ، فإذا رأيت مغناطيساً لا يجذب فلا تنكر خاصيته واصرف عنايتك إلى البحث عن أحواله حتى يتضح لك أمره » [(٣)] .

ويقول : « *ولننظر إلى الكواكب وكثرتها ، واختلاف ألوانها* . فإن بعضها يميل إلى الحمرة وبعضها يميل إلى البياض . وبعضها إلى لون الرصاص ، ثم إلى سير الشمس فى فلكها مدة سنة . وطلوعها وغروبها كل يوم لاختلاف الليل والنهار ومعرفة الأوقات ، وتمييز وقت المعاش عن وقت الاستراحة . ثم إلي جرم القمر ، وكيفية اكتسابه النور من الشمس . لينوب عنها فى الليل ثم امتلائه وانمحاقه ، ثم إلى كسوف الشمس وخسوف القمر ، ثم إلى ما بين السماء والأرض من الشهب والغيوم والرعود والصواعق والأمطار والثلوج والرياح المختلفة المهاب . ولنتأمل السحاب الكثيف كيف اجتمع في جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف حمل الماء وكيف تتلاعب به الرياح وتسوقه وترسله قطرات متفاصلة ، لاتدرك منها قطرة قطرة ليصيب وجه الأرض برفق، فلو صب صبا لفسد الزرع ، ولخدش وجه الأرض . ثم إلى اختلاف الرياح . فإن منها ما يسوق السحب . ومنها ما يعصرها ، ومنها ما يقتلع الأشجار ، ومنها ما يروى الزرع والثمار ، ومنها ما يجففها » [(٤)] .

---

(١) ، (٢) ، (٣) د. **جمال الدين الرمادى** : القزوينى مقالة بالعدد ٤٣ دائرة معارف الشعب. ١٩٥٩ ص ص ٣١٢ - ٣١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣١٥ .

ويقول : ولننظر إلى أنواع المعادن المودعة تحت الجبال ، منها ما ينطبع كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، ومنها ما لا ينطبع كالفيروز والياقوت والزبرجد، وكيفية استخراجها وتنقيتها ، واتخاذ الحلى والآلات منها ، ثم إلى معادن الأرض ، كالنفط والكبريت . وأنواع النبات وأصناف الفواكه ، ثم لننظر إلى أصناف الحيوان وانقسامها إلي ما يطير ويقوم ويمشى ، وإنقسام الماشي إلى ما يمشى على بطنه وما يمشى على رجليه وما يمشى على أربع ، وإلى أشكالها وأنواعها وتجميع غذائها ، وإدخارها القوت لوقت الشتاء وحذقها فى هندستها ، وكيف صنعت النحل هذه المسدسات المتساوية الأضلاع التى عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة [١] .

ويقسم القزوينى الكون إلى علوى وسفلى ، وقد عنى بالعلوى ما يتعلق بالسماء من الكواكب وبروج ومدارات ومجرات والشمس والقمر وتحدث عن كواكب الزهرة والمريخ والمشترى وعطارد وزحل وكسوف الشمس وخسوف القمر ، والخسوف الكلى والجزئى وربط بين حركتي المد والجزر وتحركات القمر ، وربط بين زيادة القمر ونقصانه ، وبين كثير من الظواهر عن الإنسان والحيوان والأسماك والحشرات والأشجار والفواكه والرياحين .

ويتحدث عن الحركة اليومية للأزهار والأوراق ، وعن الكواكب الثوابت ، ويشير إلى أرصاد بطليموس ، وعن كوكبات الدب الأكبر والأصغر ، ووصف الرعد والبرق والهالة وقوس قزح والبحار والمحيطات والجبال والأنهار والعيون والآبار والزلازل ، كما وصف مئات من أنواع النباتات والحيوان والمعادن ، وخاصة ما تتخذ منها عقاقير تستعمل فى الطب . مثل الزئبق والكبريت ، كما تناول النفط وقال أنه يطفو على الماء ومنه أسود وأبيض ، لذا يعتبر كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات من أنفس مؤلفات القزوينى ، ويدل على افتنانه بالمعرفة الموسوعية حيث استطاع أن يجمع أشتاتا من المعارف عن البحار والجبال والأنهار والكواكب . وممالك النبات والحيوان مع التنوية بالفوائد الطبية بين حين وآخر . وقد ترجم الكتاب إلي الفارسية والألمانية والفرنسية والتركية . وطبع مرتين في ليبزج بألمانيا عام ١٨٦٨، ١٨٧٠م ، وترجم بعضه إلى الفرنسية وطبع فى باريس عام ١٨٠٥م وترجم وكتبت له مقدمة نشرت مع الكتاب فى ليبزج عام ١٨٤٨م .

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٨) ابن بطوطة الرحالة الأمين (*)

(٧٠٣ - ٧٧٧ هـ) (١٣٠٤ - ١٣٧٨ م)

حياته : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف الطنجى ، عُرف بابن بطوطة ، وهو من الرواد الرحالة ، والمؤلفين فى العالم الإسلامى . اشتهر برحلاته وما دونه من خبرات خلال تلك الرحلات عبر آسيا وأفريقيا ، وهو لم يهتم بالأقطار إلا قليلاً ، وحتى المدن إنما وصفها باعتبار ما يقطنها من الناس ولذلك فهو يفيدنا فى التاريخ والاجتماع أكثر من الجغرافية. ينتمى ابن بطوطة إلى أسرة علمية من أهل طنجة ، ظهر فيها القضاة ومشائخ العلم . وقد ولد فى طنجة عام ٧٠٣ هـ ونشأ بها ولم يغادرها قبل رحلته فى الثانية والعشرين من عمره ، فهو إذن قد تلقى دراسته على مشائخها ، وتكون تكوينا صالحا فى علوم العربية والفقه والتصوف ، وعلى كل حال فهو قد اشتغل بطلب العلم منذ صباه ، وأشبع نهمه من قبل أن يتجه إلى الرحلة ، نحن لا نراه فى تجوله يقصد أحدا من أهل العلم للدراسة عليه إلا أن يكون على سبيل التبرك واتصال السند كما هى عادة المشائخ ورجال العلم . ونعتقد أن ذلك مما أعانه على رحلته الطويلة ، فإن الرجل إذا كان من أهل العلم تمهد أمامه السبيل ووجد الناس فى خدمته كلما حَلّ وارتحل .

يضاف إلى ذلك تربيته الدينية التي جعلت منه رجلا قوى الإيمان ، شديد الصبر على المكاره ، واثقا فى العناية الإلهية ، مما كان له أكبر الأثر فى اتساع رحلته وإقدامه على المخاطر بشجاعة وثبات ، ولا أدل على متانة دينه من أن باعثه الأول على الرحلة ، الحج وأداء هذه الفريضة، كما أشار لذلك فى أول رحلته، لا سيما وهو شاب أمامه متسع من الوقت للقيام بهذه العبادة ، لكنه كان شابا نشأ فى عبادة الله ، فلا غرو إذا سعى مبكراً لاستكمال فرائض دينه . من العوامل التى ساعدته على طول الرحلة أنه كان ذا أخلاق اجتماعية ، سريع التأقلم ، أى التكيف بطبيعة الإقليم الذى يستقر به والإندماج فى أهله ، والأخذ بعاداتهم ومألوفاتهم حتى يصير كأنه واحد

(*) اعتمدت فى عرضى على المراجع الآتية :

١ - **نقولا زيادة** : الرحالة العرب الألف كتاب .

٢ - **د. العدوى** : ابن بطوطة فى العالم الإسلامى .

٣ - **فتحى عثمان** : رحلة بن بطوطة .

٤ - **ابن بطوطة** : " رحلة " ط ٢ ، مصر ١٣٢٢هـ .

٥ - **د. شوقى ضيف** : الرحلات . سلسلة دار المعارف عن فنون الأدب العربى .

منهم، وكأنما ولد بين ظهر انيهم وعاش معهم زمن طويلاً ، ولعل لبلده طنجة التى هي طريق رئيسى بين الشرق والغرب ، وملتقى لمختلف الأجناس والعناصر ، وطبيعة أهلها المرحة دخلا فى ذلك ، وهذا العامل هو الذى سهل له التغلغل فى الأوساط المختلفة ، وجعل رحلته سجلا مهما للحياة الاجتماعية فى أكثر البلاد التى زارها .

رحلته الكبرى : رحل ابن بطوطة ثلاث رحلات (الأولى) وهى الكبرى قضى فيها ٢٥ سنة ، زار فيها معظم أقطار العالم . (والثانية) كانت بضعة أشهر زار فيها مملكة غرناطة من بلاد أسبانيا . (والثالثة) دامت عامين وكانت إلى أفريقية السوداء .

(١) **فى تونس** : دخل مملكة تلمان ، وسلطانها يومئذ أبو تاشفين ، ومنها انتقل إلى تونس ، فمرض فى الطريق ، ولكنه تحامل على نفسه حتى وصلها مع ضعف ،نفتيجةً شعور بالغربة فبكى ، وسرعان ما استأنس وتجلد فلم يعرف الضعف بعد. وذكر من أعلامها ابن الغماز وابن عبد الرفيع وابن فداح الهوارى ، وقال عن هذا الأخير أن من عوائده أنه كان يستند كل جمعه بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيته الناس فى المسائل ، فإذا أفتى فى أربعين مسألة انصرف .

(٢) **فى مصر** : وغادر تونس فى ركب الحاج التونسى قال : وكان أكثره من أهل الدولة - فقدمونى قاضيا بينهم . وهذا دليل علي مكانته العلمية ، وتزوج فى الطريق ، ووصل الركب إلى طرابلس . فمكثت بها حتى دخلت سنة ٧٢٦ هـ ، وفي أواخر محرم منها انفصل عن الركب وسافر إلى الاسكندرية فى جمادى الأول ، ويخصّها الرحلة بوقفة طويلة يصف مشاهداته فيها ويذكر بعض علمائهاءالذى لفت نظره على الخصوص بعمامته التى كانت تملأ المحراب . وتجول فى الأقاليم المصرية ، ووصف بعضها وصفا دقيقا وقارن بين الحالة الاقتصادية فى مصر والمغرب . وفي مدينة دمياط شاهد عجباً ، وهو أنه إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بطابع الوالى، وهذا الإجراء الذى يشبه ما نسميه اليوم بتأشيرة المرور ، لا شك أنه مما كان يفرضه موقع المدينة الحربى .

وركب الرحالة النيل إلى مصر التى بهرته بعظمها ، وقد وصف مشاهدها ومعالمها وذكر أشياء من أخبار أمرائها وأخلاق أهلها ، وكان سلطانها يومئذ محمد الناصر بن قلاوون وقد أثنى عليه وحمد سيرته، ثم ذكر القضاة فقال أن أعلاهم منزلة

هو القاضي الشافعي، وذكر العلماء أيضا فكان من بينهم أبو حيان النحوى الغرناطى.

وسافر من مصر متوجها إلى الحجاز بطريق الصعيد ، وفى قوص عاصمة هذا الإقليم رأى العالم ابن دقيق العيد ، وكان هو الخطيب بها فأثنى عليه بالفصاحة وقال: لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى ، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبى فحصر خطباء العالم الإسلامى فى وقته فى هؤلاء الثلاثة .

(٣) **الحجاز** : وواصل ابن بطوطة سفره فى صعيد مصر إلى مدينة إدفو ، ثم ركب النيل إلى مدينة العطوانى ومنها دخل الصحراء مع جماعة من الأعراب إلى مدينة عيذاب التى كان بصدد الإبحار منها إلى جدة ، لكن ميناءها كان متعطلا بسبب حالة الحرب التى كانت قائمة بين صاحبها والسلطان الناصر ، فرجع مع قافلة الأعراب ، وقطع الصحراء ثانية إلى الصعيد وانحدر فى النيل إلى مصر ، وقصد الشام فاخترق شمال مصر كما اخترق جنوبها .

(٤) **فى فلسطين** : ويصل ابن بطوطة إلى غزة ثم ينتقل منها إلى الخليل ، فالقدس ، ويصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ويذكر بعض مشائخ القدس ، ثم يغادرها ، فينتقل بين عدة مدن إلى أن يصل إلى صور فيقول : وهى خراب وبخارجها قرية معمورة ، ولقد نزلت بها على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض أهلها ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ، ثم مسح بعض رأسه فأخذت عليه فى فعله . فقال أن البناء يكون ابتداؤه من الأساس .

(٥) **فى لبنان وسورية** : ويواصل الرحالة سيره إلى بيروت فطرابلس فحلب ، وينوه بها كثيرا ويذكر من وجد بها عن العلماء ومنهم ابن الزملكانى ، ويمر بعد ذلك بأنطاكية ثم بحصون الاسماعيلية «ويقال لهم الفداوية وهم سهام الملك الناصر ، ثم يمر بمنازل النصيرية ويتحدث عنهم ، وبجبل لبنان فيصفه بخصب التربة وجمال الطبيعة ، ومن لبنان يصل إلى بعلبك فيصف من خيراتها ومصنوعاتها الشئ الكثير .

(٦) **فى دمشق** : ويصل إلى دمشق فينزل بها فى مدرسة المالكية ، ويصفها أبلغ وصف ويتجول فيها ، ويتحدث عن الجامع الأموى بإسهاب ، وعن غيره من المعاهد والمدارس والمزارات وعن الأوقاف الخيرية التى أوقفها أهل دمشق على السابلة والمحتاجين ، وتجهيز البنات الفقيرات ، وإعانة العاجزين من الحجاج ، وفكاك الأسرى وإصلاح الطرق ، ويذكر أن لطرق دمشق رصيفين فى جنبيها يمر عليهما المترجلون ويمر فى وسطها الركبان ، ويذكر من لقى بها من العلماء ومنهم ابن الشحنة .

فى المدينة ومكة : يتجه مع الركب قاصداً المدينة المنورة عن طريق الصحراء، فيزور الروضة المشرفة ويشفى غليله من مشاهدها ومآثرها ، ثم يقصد مكة لأداء فريضة الحج . وهكذا يحقق أمنيته بعد عام وخمسة أشهر من مفارقة بلده ، ولكنه اكتسب في هذه المدة حب السفر والتجول فى البلدان ولذلك نراه يغادر مكة بعد الانتهاء من مناسك الحج مباشرة، صحبة الركب العراقى. وكان ركبا حافلا يحتوى على جمع كبير من العراقيين والخراسانيين وأجناس الأعاجم ، وهو مزود بالشئ الكثير من المؤن والأدوية والأشربة والذخائر ، وأميره من الموصل يدعى البهلوان وقد قرَّب ابن بطوطه.

في العراق : ويترك ابن بطوطة الركب العراقى فى النجف بعد زيارة مشاهد أهل البيت ، فيقصد البصرة عن طريق واسط ، ويصف المدينة العربية الشهيرة .

في فارس : ثم يجوب شط العرب ويخترق بلاد فارس ، لما كان من عادته أن لا يعود من طريق سلكها ما أمكنه ذلك ، فقد تقدم فى بلاد العجم ، ليزور مدينة تستر ويحل بها ضيفا على شيخها صدر الدين من ذرية سهل بن عبد الله التسترى ، قال « وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ، ولما شاهدت مجالسه فى الوعظ صغر لدى كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر . » . وزار أيضا مدينة أصبهان ووصف من ثراء أهلها ما يُقْضَى منه العجب ، ثم زار شيراز ، وذكر من غريب أمورها اجتماع النساء لسماع الوعظ فى المسجد الأعظم بأيديهن المراوح فى أعداد تبلغ الألف والألفين ، ولاحظ تعظيم العجم لأهل العلم ، وأن الفقيه عندهم إنما يخاطب بمولانا ، وأن ملوكهم ربما سموا أبناءهم بأسماء بعض العلماء ، وذكر ممن لقيه بشيراز من العلماء الشيخ مجد الدين بن خداد وأنه سمع عليه مسند الأمام الشافعى.

في الكوفة وبغداد : ثم دخل البر قاصدا الكوفة ومنها توجه إلى بغداد دار السلام عاصمة الرشيد ، وكان يوجد بها فى رجب عام ٧٢٧ هـ الشيخ سراج الدين القزوينى ، ولم يطل ا لكلام عليها لأنها كانت فى أدبار من أمرها ، إلا أنه تبسط فى الكلام علي ملكها أبى سعيد بهادر الذى عرف أنه يريد الحج من جديد فأمر له بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل ، ولما كان الموسم لايزال بعيدا فإنه زار تبريز وأعجب بسوقها الجامعة وخاصة سوق الجواهر التى حار بصره لما رأى من أنواعها وهى بأيدى مماليك حِسَان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشددة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك قال : « فرأيت من ذلك كله فتنة » .

وبعد أن عاد زار الموصل وديار بكر ، ثم لحق بالركب العراقى وكان أميره هو البهلوان ، فأعتنى به غاية الاعتناء ، ووصل مكة وحج ثانية عام ٧٢٧ هـ واستقر بها مجاورا حتى حج ثالثة عام ٧٢٨ هـ ورابعة عام ٧٢٩ هـ وكأنه كان يتدارك ما فرط منه فى الحجة الأولى من قصر الإقامة بمكة ، إذ عجل بالسفر منها مع الركب العراقى. وفى حجة ٧٢٨ هـ لقى أناسا من بلده طنجة ، فتعرف منهم أخبار المغرب .

إلي اليمن ، فالصومال ، فاليمن : ثم فارق مكة وركب البحر من جده لأول مرة متوجها إلى اليمن عبر سواكن ، فطاف بأرجاء القطر العربى العريق ولم يغفل أن يسجل التشابه بين اليمنيين والمغاربة فى كثير من الأحوال ، واتجاهه مع الرأى الذى يقول بأن أصل هؤلاء من عرب اليمن . وأبحر بعد ذلك من عدن إلى مدينة زيلع بالصومال ولاحظ عليها شدة القذارة ، ثم توجه إلى مقديشيو عاصمة البلاد ولقى سلطانها ، وذكر من غيب أحوالها أنه عندما تصدح الموسيقى الرسمية لايتحرك أحد ولا يتزحزح من موضعه ، ومن كان ماشيا وقف ، كما هو الحال الآن في كثير من البلدان حينما ، يعزف النشيد الرسمى . وعاد إلى اليمن عبر ظفار ثم عرج على هرمز وسيراف والبحرين ووصف مغاصات اللؤلؤ فيما بين تلك البلاد ورجع أدراجه فعبر إلى القطيف مجتازا باليمامة صوب مكة ، حيث حج للمرة الخامسة سنة ٧٣٢.هـ وذكر أن الملك الناصر بن قلاوون حج تلك السنة .

عودته إلي مصر ، فالشام ، فآسيا الصغري : وبعد هذه الحجة يتجه ابن بطوطة للشطر الأكبر من رحلته ، ومع أنه مر عليه ٨ سنوات ، فإنه ما استوحش ولا تقاعس بل جدّد العزم وعقد النية على دخول الهند وبلاد آسيا الوسطى والشرق الأقصى ، وسائر البلاد التى لم يزرها من قبل . وقد أراد ركوب البحر إلى اليمن قاصداً الهند فلم يجد مركبا ولا رفيقا ، فعاد إلى مصر بطريق الصعيد ثم إلى الشام عن طريق بلبيس ، وركب البحر إلى العلايا بجنوبى آسيا الصغرى ، قال : « وهى أول بلاد الروم » فجاس خلالها وكان الأتراك حينئذ لم يستكملوا وحدتهم السياسية ، فحديثه عنهم فى هذه الحقبة له أهمية كبيرة . ومما يلفت النظر وصفه لمنظمة الفيتان التى كانت منتشرة فى هذه البلاد وتعرف بالآخية ، وهى تشبه الكشافة فى عصرنا ، وغلب عليها الصبغة الدينية والخلقية. ولها اعتناء كبير بإكرام الضيف وتسلية الغريب. وشعارهم لبس السراويل رمزاً لما يأخذون به من التزام الصيانة والعفة . وقد اتصل بهم ابن بطوطة وأكرموه واعتنوا به ، وهذا مما يفسر لنا ما كان يجده من التسهيلات والمعونة المادية والأدبية على مواصلة رحلته الطويلة ، مع اتصاله أيضا بالأمراء

والرؤساء الذين كانوا يمدونه ولاشك بما هو فى حاجة إليه من النفقات والأسباب الضرورية للسفر .

إلي القرم وبلاد البلغار : وانتقل ابن بطوطة إلى شبه جزيرة القرم من ثغر صنوب بشمال آسيا الصغرى ، ثم إلى البلغار التى وصلها فى رمضان ، قال : « فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذنّ للعشاء فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر أثر ذلك . وكذلك يقصر النهار بها في فصله » . وفي هذه البلاد الفسيحة ركب ابن بطوطة العربات لأول مرة وأكل لحم الخيل وذاق البوظة وهى نوع من النبيذ . وبما أن أهل البلاد أحناف فإنهم لم يكونوا يتحرجون من شربها كما قال . واتصل بالسلطان محمد أوزبك وحظى عنده ، حتى أرسله مع إحدى زوجاته إلى القسطنطينية لزيارة أبيها ، فأتيحت له فرصة زيارة العاصمة الشهيرة ، ولم تكن فتحت بعد .

إلي خوارزم وبخاري وخراسان وأفغانستان : وعاد إلى مدينة السرا عاصمة السلطان أوزبك ، ثم ذهب منها إلى خوارزم فبخارى وسمرقند وترمذ فخراسان فأفغانستان إلى الهند . ويطول الأمر لو وقفنا معه في كل هذه البلاد وتتبعنا ملاحظاته عنها وعن أهلها .

في الهند : وقد وصل إلى الهند فى محرم سنة ٧٣٤هـ ، وفى الحين أُعلم به ملك الهند محمد شاه ، حسب النظام المتبع فى هذه البلاد ، لا يجاوز أحد حدودها حين يرفع به إلى الملك، فصدر الأمر بإكرامه والاعتناء به . وعرض عليه أن يوليه بعض المناصب فاختار ولاية القضاء لأنها شغله وشغل آبائه ، وبقى فيها إلى سنة ٧٤٢هـ ، وقد مكنته إقامته هذه المدة فى الهند وولايته القضاء أن يتعرف أحوالها وشؤونها السياسية والاقتصادية ، ويتبطن حياتها الاجتماعية وعوائد أهلها مما جعل القسم الذى يختص بالهند من رحلته ، وهو يكاد يستغرق الجزء الثانى منها ، مرجعا هاما للمؤرخين والباحثين فى تأريخ الهند وحضارته .

وفى جمادى الآخرة من عام ٧٤٢هـ ترك الهند على رأس سفارة عظيمة إلى الصين ، وبرغم الاستعدادات الكبيرة التى أتخذت لهذه السفرة فإنها تعوقت ، وطوحت الأقدار بابن بطوطة إلى جزائر ذيبة المهل (ملديف) فى المحيط الهندى حيث أقام عاما ونصف عام عند سلطانتها خديجة بنت جلال الدين وولى هناك القضاء أيضا ، فاستطاع بحكم ذلك أن يتحدث عن حياة أهل ملديف حديث العارف المطلع .

في الصين : ثم غادر هذه الجزر متوجها إلي الصين عن طريق سيلان ، فبنغالة فالملايو فسومطرا فالزيتون وهى من موانىء الصين الواقعة على المحيط الهادى، وتوغل فى داخل البلاد التى تقع على مقر من الساحل حتى وصل إلى بكين عاصمة الصين الآن ، ومع أنه لم يجب الصين كما جاب الهند فإنه لم تخل رحلته عن أخبار هامة عن هذه البلاد ، ولا سيما أحوال المسلمين بها . وتحدث عن براعة الصينيين فى فن التصوير وصناعة الفخار وعن تعاملهم بأوراق النقد وإدخارهم الذهب والفضة بشكل سبائك كما هو الحال فى المدنية الحديثة .

أما حديثه عن أمن الطريق وسهولة المواصلات والتحفظ على أموال الناس وتنظيم الملاحة التجارية فشئ لا يقل عما هو معروف الآن . كانت الطرق حسبما يروى مقسمة إلى مراحل يجد فيها المسافر كل ما يحتاج إليه، وبعضها كانت عليه النصب فيها عدد الأميال التى قطعها المسافر والتى بقيت عليه. وهذا فضلا عن الأمان التام.

ومن الصين إلي المغرب : ومن الصين يعود ابن بطوطة راجعا إلي المغرب عن طريق سومطرة فالهند فاليمن فبلاد العجم فالعراق فالشام فمصر إلى أن يصل إلى مكة فى شعبان ٧٤٩هـ، فيقيم بها إلى أن يحج للمرة السادسة ويسافر إلى المدينة المنورة ومنها إلى القدس ثم إلى مصر فالمغرب ، إذ يدخل عاصمة فاس أواخر شعبان عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩م) بعد أن قضى فى رحلته هذه ٢٥ سنة .

رحلته إلي أسبانيا : لم يستقر ابن بطوطة حتى بدأ رحلته الثانية إلى مملكة غرناطة من أسبانيا الإسلامية أو الأندلس ، وذلك لئلا يفوته هذا القسم من العالم الإسلامى ، وقد خرج من بلده طنجة فمرّ بسبته ومنها انتقل إلى جبل طارق ، ثم مر بمدينة رندة وكان القاضى بها أحد أقربائه ، ثم مدينة مالقة ثم العاصمة غرناطة ، وكان ملكها حينذاك أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ، ولقي بها من الأعلام أبا القاسم الشريف شارح مقصورة حازم ، والفقيه أبا القاسم ابن لب ، وأبا البركات ابن الحاج، وأبا القاسم ابن عاصم وسواهم .

رحلته إلي أفريقية السوداء : وعاد إلى المغرب لكى يشرع فى رحلته الثالثة إلى بلاد السودان وقد أخذ أهبته لهذه الرحلة ، والتحق برفقة يرأسها أحد رجال مسنوفة وذلك فى محرم ٧٥٣ هـ فوصل إلى بنغازى بعد ٢٥ يوما ومنها استأنف الرحلة عبر الصحراء إلى مدينة (أيوا لاتن) وهى أول بلد من السودان ، ثم فارقها متوجها نحو مالى عاصمة البلاد ، فلقى سلطانها منسى سليمان ولم ينل منه خيرا إلا

أنه وصفه بالعدل والاستقامة ، ثم توجه إلى تيمبكتو ومنها إلى تكدا . وفى تنقلاته بين هذه المناطق وصل إلي نهر النيجر فظنه النيل ، ورأي التمساح فى بعض ضفافه « كأنه قارب صغير » ومن المحقق أنه جاب فى هذه الرحلة أماكن لم يصلها سائح قبله ووصفها وصفا عجيباً .

وفيما هو يوالى رحلته وأفاه أمر السلطان أبى عنان بالرجوع إلى المغرب ، فكر راجعا ، وفى نهاية عام ٧٥٤ هـ وصل إلى فاس بعد أن قضى فى هذه الرحلة عامين كاملين وبحساب ذلك مع رحلته الكبرى يكون قد صرف زهاء ٢٨ سنة فى التنقل والتجوال .

وأمره السلطان بإملاء رحلته على الكاتب أبي عبد الله بن جُزيّ الكلبى ، وهو والد المفسر الشهير أبى القاسم بن جزى . فقام بما أمر به من ضم أطراف الرحلة وترتيبها وتصنيفها وسماها تحفة النُظّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وانتهى من ذلك فى ذى الحجة عام ٧٥٦ هـ . ويظهر أنه فى بعض المواضع إنما أملى رحلته من حفظه وذاكرته ، فلذلك قد لا ينضبط التاريخ وقد تقع له بعض الأوهام ، ولكنه بكل وجه كان متحرياً وصادقا فيما يخبر به ، وإن عَجِبَ الناس من بعض حديثه . ثم ينسدل حجاب كثيف على حياة ابن بطوطة ، والمعروف أنه مات ، وهو يتولى القضاء بمراكش عام ١٣٧٨م فى نحو الرابعة والسبعين .

وقد كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثير من البلاد التى زارها ابن بطوطة ، إذ يعد أول من ذكر شيئا عن استعمال ورق النقد في الصين ، وعند استخدام الفحم الحجرى ، وكان صادقاً فى أغلب أوصافه حتى أن المستشرق الكبير « دوزى » أطلق عليه الرحالة الأمين . وأفاد ابن بطوطة علم الجغرافيا بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس . والجغرافية البشرية والسكان والعادات والتقاليد . وما إلى ذلك من أمور تهم الجغرافيين كما تهم علماء الإجتماع وغيرهم من الدارسين فى أحوال الشعوب . وقد نقل كثير من المستشرقين بعضها إلى اللاتينية ونشروه ونقلها « لى » إلي اللغة الإنجليزية وطبعت بلندن عام ١٨٢٩ ونقلها ديفريمرى وسنكونيتى إلى الفرنسية عام ١٨٥٣ ، ١٨٥٩م فى خمسة مجلدات . وترجم دى سلان بعضها إلى الفرنسية وترجمها فريك إلى الألمانية وطبعت عام ١٩١٢م ، وطبعت فى مصر فى مطبعة وادى النيل عام ١٨٧١ وفى المطبعة الخيرية عام ١٩٠٤م .

(٩) شهاب الدين بن ماجد الملاح العربى الأول

(٨٣٨ - ٩٠٠ هـ) (١٤٣٤ - ١٤٩٤م)

حياته : هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن معلق السعدى، المتوفى بعد عام ٩٠٠هـ . كان ملاحا يلقب بأسد البحر ، وله مؤلفات فى علوم فنون البحر ، نثرا ونظماً . هذا الربان حصل قسطا نافعاً من علوم الحساب العربى والهندى والزنجى وحساب أهل جادة والصين منذ كان حدثا يافعاً . مكنه من مقارنة قياسات الأخرين.

كان البرتغاليون يسمونه « الملاندى » (أو الميرانتى) ومعناها أمير البحر . وفى سفينة ڤاسكو دى جاما ، جانب من قصة هذا البحار العالمى العربى ، الذى استعان به ڤاسكو دى جاما في رحلته الشهيرة حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند .

وفي محفوظات معهد الدراسات الشرقية بلينتجراد وبباريس ، مخطوطة عربية هى " حاوية الاختصار فى أصول علم البحار " كتبها ابن ماجد ، وصف فيها طرق الملاحة المختلفة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وبداية القرن السادس عشر . وتعد هذه المخطوطة بمثابة مرشد الملاح فى تلك البحار . والحق أنه لولا ابن ماجد ، ما استطاع البرتغاليون عبور المحيط الهندى لعظم أمواجه، وشدة رياحه، خصوصا في موسم هبوب الرياح الجنوبية الغربية المطرة. وقد بين ابن ماجد ما يهم الملاح معرفته فى البحر ، بما يناظر الإرشادات الملاحية التى تنشرها الأمم الحديثة لغرض الاهتداء إلي الموانئ ، ومعرفة صفات السواحل ، والمسافات بين الأماكن ، والرياح السائدة ، والتسهيلات التى يمكن توفيرها فى كتابه "الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد" الذى ألفه بعد ثلاثين عاماً من كتاب حاويه الاختصار . أى عام ٨٩٥ هـ .

العرب والكشوف الجغرافية : جاب العرب أرجاء المحيط الهندى بقصد التجارة ، بعد أن انتقلت إليهم السيادة بسقوط الدولة الرومانية والدولة الفارسية ، ووصلوا فى رحلاتهم التجارية هذه إلي جزر الهند والصين شرقا ، ومدغشقر وموزمبيق جنوبا . وبدأ عصر الكشوف الجغرافية ، بمحاولات البرتغاليين الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، ابتغاء الوصول إلى الهند . وقد أدت تلك المحاولات بعد جهد شديد ، إلى نجاح ڤاسكو دى جاما عام ١٤٩٨م فى إكمال الرحلة . كان ساحل أفريقيا الغربى مجهولاً تماماً لدى الأوروبيين ، فقد أحاطت به الهواجس ، وكثرت من حوله الأوهام ، خصوصا وأن عبور خط الاستواء ، يعنى المرور بمناطق ركود الرياح ، واستحالة عبور

السفن الشراعية ، ما لم تستعن بقوارب لدفعها ، ويقوم البحارة بتسيير تلك القوارب بوساطة المجاديف . وكان المعتقد لدى الأوروبيين آنئذ ، أن السفن التى تصل إلى هناك لا تعود ، ولكن بدأ البرتغاليون القيام بعمل رحلات متوالية ، إبتداء من عام ١٤٦١م . وفى عام ١٤٨٦م ، أرسلت البرتغال بعثة إلى الهند ، عن طريق مصر . وفى طريق الأوبة ، توقف قائد البعثة وهو ا لبحار « **كوفيلهام** Covilham » ، في جزيرة سوقط جنوب شبه جزيرة العرب ، وهناك التقى بالبحار العربى ابن ماجد ، وسمع عن جزيرة القمر ، وهى جزيرة مدغشقر كما نعرفها اليوم . وعندما وصل إلي القاهرة ، سارع بإرسال خطاب إلى ملك البرتغال ، يحثه فيه على إرسال بعثة للطواف من حول أفريقيا ، والوصول إلى جزيرة القمر ، وعرض معاونة ابن ماجد . وفي عام ١٤٩٨م ، أتم فاسكو دى جاما تلك الرحلة بنجاح ، بمعاونة ابن ماجد . ويرجع الفضل فى التعرف على أن ابن ماجد كان هو المرشد الذى قاد سفن فاسكو دى جاما إلى الهند إلى جهود المستشرق الفرنسى جبرييل فران عام ١٩٢٢ (G. Ferrand 1922) وقد أهتدي إلى ذلك فى مخطوط لقطب الدين النهروالى يرجع تاريخه إلى عام ١٥٧٧م بعنوان البرق اليمانى في الفتح العثمانى [٢] .

مؤلفاته :

١ - كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد (١٧٦ صفحة × ١٩ سطر) .

٢ - حاوية الأختصار فى أصول علم البحار (٦٠ صفحة) .

٣ - الأرجوزة المسماه بالسبعية .

٤ - القصيدة لابن ماجد .

بعض الكتب المترجمة [٤] في الجغرافيا

١ - **ابن حوقل :** أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ترجم أوزيلى ما هو خاص منه بجغرافية المشرق إلى الإنجليزية وطبع بلندن سنة ١٨٠٠م . وترجم دوسلان ما هو خاص منه بافريقية إلى الفرنسية وطبع بباريس ١٨٤٢م . وترجم امارى الجزء الخاص منه بوصف بلرم فى القرن العاشر . وطبع بباريس ١٨٤٥م .

(٢) **ابن بطوطة :** تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار وتعرف برحلة ابن بطوطة . ترجمها ديفريميرى وستكونيتى إلى الفرنسية وطبعت بباريس بين

---

(١) ، (٢) د. أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح. أعلام العرب ١٩٦٧ ص ٢٨ وما بعدها.

(٣) **G. Ferrand** : Le pilote arabe de vasco de Gama 1922.

(٤) يلاحظ أن المستشرقين لم تقف جهودهم على الترجمة ، بل أنهم قاموا بطبع كثير من كتب الجغرافية بلغتها العربية فى مطابع الغرب .

سنة ١٨٧٣ و ١٨٧٩م فى أربعة مجلدات .

(٣) **ابن خرداذبة** : المسالك والممالك . ترجمة مينار إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٦٥م .

(٤) **ابن الوردي** : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، فى الجغرافية . ترجمة هيلاند وطبع بلندن سنة ١٨٢٣م .

(٥) **أبو الفدا** : ترجمة رينو وجويار إلي الفرنسية وطبع بباريس بين سنتى ١٨٤٨ و ١٨٨٣م فى ثلاثة مجلدات . وترجم جانيه الجزء الخاص منه بجزيرة العرب سنة ١٧٤٠م وطبع باكسفورد . وترجم سولفا الجزء الخاص منه بالمغرب وطبع بالجزائر سنة ١٨٣٩م .

(٦) **الإدريسى** : نزهة المشتاق فى اختراق الافاق . ترجمة جوبر إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٤٠م فى مجلدين .

(٧) **البكرى** : المسالك والممالك ، ترجم دوسلان ما هو خاص منه بإفريقيا الشمالية، طبع فى باريس سنة ١٨٥٩م .

(٨) **التيجانى** : رحلة التيجانى ، ترجمها إلى الفرنسية الفونس روسو وطبعت سنة ١٨٥٢م .

(٩) **القزوينى** : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (في الجغرافيا والطبيعة والفلك) ترجم إلى الألمانية وطبع فى ليبزج سنة ١٨٦٨م .

(١٠) **المسعودى** : مروج الذهب . ترجمة باربيه دومينار سنة ١٨٦١ - ١٨٧٨ وطبع فى باريس فى تسع مجلدات وهو كتاب جغرافى تاريخى .

(١١) **نصر الدين الطوسى** : وله تآليف ترجم بعضها إلي اللاتينية باسم التقويم الجغرافى وطبع في لندن سنة ١٦٤٨م وفى لندن ١٦٥٢م .

(١٢) **ياقوت الحموى** : ترجم منه باربيه دومينار الجزء الخاص ببلاد فارس إلي الفرنسية وطبع فى باريس سنة ١٨٦١ . ومن أبرز دراسات المستشرقين في هذا المجال :

١ - نشر رينو كتابا بعنوان : مدخل إلي جغرافية الشرقيين ، وهو تاريخ شامل فى علم الجغرافيا عند العرب سنة ١٨٤٨م .

٢ - نشر دفيك بحث بعنوان : نظرة في كتب الجغرافية العربية فى العصر الوسيط فى باريس سنة ١٨٨٢م .

٣ - نشر بلاشير بالتعاون مع درامون بحث عنوانه : الجغرافيون العرب فى العصر الوسيط . باريس عام ١٩٥٧م .

(٤) أسهامات العرب فى التاريخ والاجتماع :

نشطت حركة الترجمة للتاريخ الذى سجله المسلمون فى العصور الوسطى حوالى منتصف القرن التاسع عشر . وسبب ذلك أن علم التاريخ علم من العلوم الاجتماعية التى تكمل علم الجغرافية ، تلك التى اهتم بها الغربيون فى عهد متقدم علي دراستهم لتاريخ الشعوب ، وتفصيل ذلك أن الأوروبيين بدأوا اكتشافاتهم الجغرافية فى نهاية القرن الخامس عشر وانتهوا إلى استعباد كثير من شعوب الأرض ، فلما استقر بهم الحال بين هذه الشعوب أصبح لزاما عليهم أن يحتفظوا بمكاسبهم ، ولابد أن يعاملوا هذه الشعوب معاملة ترضى عنها ولو في الظاهر ، وهذه الغاية تحتاج إلى كثير من السياسة وعلم النفس والإحاطة بتاريخ هذه الشعوب وأصل نشأتها حتى يمكن التعرف على نفسية هذه الشعوب من خلال ماضيها وما كانت عليه من ثقافة . وهذه أمور تعرض لها المسلمون فى العصور الوسطى . والمسلمون أقدر من غيرهم على تفهم أحوال الشعوب ، ذلك بأنهم بحسب ماضيهم ، وخاصة العرب منهم ، كانوا مغرمين بتقصى الأنساب وأحوال القبائل وربط المسلمون التاريخ بكل العلوم مثل : الأدب والسياسة والاجتماع والفقة والجغرافيا والرحلات فكان علم العلوم ، ويتبين من أسماء الكتب التى ألفها أعلام العرب صلة التاريخ الواسعة بالعلوم التى قد لا تكون دائما من صميم التاريخ مثل « غرائب ، تحفة ، عقود ، ودرر ، ونزهة ، وروضة ، وحديقة وحسن وحقائق وخريدة وخطط ، وأخبار وسير وفتوح . الخ ، الأمر الذى أكسبهم خبرة فى تدوين تاريخ الشعوب . فلماء جاء الغربيون على أثرهم أفادهم التراث الإسلامى فى تاريخ الشعوب فائدتين : الأولى أنه كان خادما للاستعمار الذى سخر لرفاهية الشعوب الأوروبية ، فعاملوا الشعوب المستعمرة بحسب عقليتها واستنزفوا أموالها وجعلوها سوقا للمواد الأولية تخدم صناعتهم وحاجياتهم الاستهلاكية.

وأما الفائدة الأخرى فهى فائدة علمية بحتة ، ذلك بأن الغربيين لم يكن لهم تاريخ مدون ، وكيف يكون لهم هذا التاريخ ، وقد كانوا يعيشون في همجية ولا يعرفون فائدة لتدوين التاريخ . ومن هذا العلم نشأ علم آخر هو علم الأجناس وهو يبحث في تاريخ الجنس ، ويقسم العالم أجناسا كالجنس السامى ، والجنس الآرى ، ويبين خصائص كل هذه الأجناس من ناحية التكوين الخلقى والخلقي .

ولقد ساعد على التمكين لعلم التاريخ وتحريره من الخرافات ووضعه على قواعد سليمة ومقاييس دقيقة تلك المقدمة الفذة التي كتبها عبد الرحمن بن خلدون

فى نهاية القرن الثامن الهجرى فجعل التاريخ علما وفلسفة بعد أن كان خرافة ، وأصبحت له قواعد بعد أن كان مرسلا فى قصص أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة الأمر الذى كان يختلط فيه الحق بالباطل ولا يعرف الناقد كيف يميز بينهما . ثم لم يلبث كتاب الغرب أن جعلوا من مقدمة ابن خلدون للتاريخ أنموذجا يحتذى فى كتاباتهم فى فلسفة التاريخ وفى الاجتماع وفى الاقتصاد ، ونقلوا معظم أفكار ابن خلدون إلى مؤلفاتهم .

من رواد التاريخ والاجتماع

(١) عبد الرحمن ابن خلدون (*)

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) (١٣٣٢ - ١٤٠٥ م)

حياته : هو عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين بن خلدون ، اسمه عبد الرحمن ، وكنيته أبو زيد ، ولقبه ولى الدين ، وشهرته ابن خلدون . ويظهر أنه اكتسب كنية أبى زيد ، من اسم ابنه الأكبر حسب ما جرت عليه عادة العرب ؛ وأما لقب ولي الدين ، فقد لقب به بعد توليه وظيفة القضاء في مصر ، وكان الجد التاسع لعبد الرحمن هو خالد بن عثمان أول من دخل من هذه الأسرة بلاد الأندلس ومن خالد هذا جاء اسم الأسرة ، ويبدو أن به شيئا من التحريف ، فالأندلسيون درجوا على أن يجمعو الاسم جمع مذكر سالما تعظيما لصاحبه فيقولون : حفصون ، وحمدون وزيدون وفرحون وهكذا . . . ، ولد ابن خلدون بتونس ، فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ . ولما بلغ سن التعليم ، بدأ يحفظ القرآن الكريم ، وكان أبوه معلمه الأول ، غير أن الطاعون الذى انتشر سنة ٧٤٩ هـ فى معظم أنحاء العالم ، أهلك أبويه ، وجميع من كان يأخذ عنهم العلم من شيوخه . والأمر الذى أثر فى مجرى حياة ابن خلدون ، هو هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا سنة ٧٥٠ هـ . وعندما طلب أن تحضر إليه أسرته من المغرب . وكانت فى طريقها إليه هبت عليها عاصفة فأغرقتها ، وذهبت الأسرة وقد تعذر على ابن خلدون ، بعد ذلك ، متابعة الدراسة وطلب العلم بتونس ،

(*) اعتمدت فى عرضى على المراجع الآتية :

١ - د. على عبد الواحد وافى :

* عبد الرحمن بن خلدون ، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته . أعلام العرب وزارة الثقافة .
* ابن خلدون منشىء علم الاجتماع . * عبقريات ابن خلدون ط ٢ .

٢ - ابن خلدون : المقدمة ط . القاهرة ١٣١١ هـ .

٣ - محمد عبد الله عنان : ابن خلدون . حياته وتراثه الفكرى دار الكتب . القاهرة ١٩٣٣ .

ولذا غير مجرى حياته ، وتطلع إلي الوظائف العامة .

وظائفه الديوانية في المغرب : كان ابن خلدون ببلدة بسكرة فى المغرب ، فسعى للقاء السلطان أبي عنان، الذى أكرم وفادته ، وعينه عضواً في مجلسه العلمى بفاس . وقد أتيح لابنُ خلدون ، وهو بفاس ، أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء والأدباء ، الذين نزحوا إليها من تونس والأندلس .

رحلته إلى الأندلس : قصد ابن خلدون إلى سبتة فى طريقه إلى الأندلس ، واختار غرناطة ، واحتفى به سلطانها محمد بن يوسف ابن الأحمر النصرى ، واختصه بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة ، لإبرام صلح بينهما ، فأدى مهمته على خير وجه ، وكافأه السلطان بأن أقطعه إقطاعا من الأرض ، فزاد رزقه ، واتسعت أحواله ، وقضى فى الأندلس نحو سنتين ونصف ، عاد بعدها إلى المغرب ، وقضى فى المغرب نحو عشر سنين ، ثم رحل ثانية إلى الأندلس ، لما رأى انصراف أمراء المغرب عنه ، لتوجسهم خيفة منه ، وارتيابهم فى أمره ، لطموحه . فذهب إلى غرناطة، ونزل فى ضيافة سلطانها ابن الأحمر . ولكن بلاط فاس، خشى من استقراره بالأندلس ، فطلب إلى ابن الأحمر . إقصاءه عن الأندلس ، فأجابهم إلى ذلك .

مرحلة تفرغه للتأليف : قضى ابن خلدون مع أهله فى قلعة ابن سلامة ، زهاء أربعة أعوام ، تفرغ فيها للدراسة والتأليف ، فأخذ يدون كتابه : **العبر وديوان المبتدأ والخبر** . قدم لهذا المؤلف ببحث عام فى شئون الاجتماع الإنسانى وقوانينه ، وهو البحث الذى اشتهر فيما بعد باسم : (مقدمة ابن خلدون) . ويشمل خطبة الكتاب التى تشغل نحو سبع صفحات ، وتمهيدا أسماه ابن خلدون : (المقدمة فى فضل علم التاريخ) ، ويشغل نحو ثلاثين صفحة ؛ والكتاب الأول من مؤلفه ، ويشتمل على ستة أبواب كبيرة فى شئون العمران ، ويشغل نحو ستمائة وخمسين صفحة . وقد ارتقى تفكير ابن خلدون ، ونضجت معارفه ، وأفاد أيما فائدة من تجاربه ومشاهداته فى شئون الاجتماع الإنسانى ، وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن فى غمار السياسة ، متقلبا فى خدمة القصور والدول المغربية والأندلسية . وكتاب العبر يشتمل على مقدمة وثلاثة كتب .

مقدمة ابن خلدون : المقدمة والكتاب الأول ، وهما اللذان يطلق عليهما الآن مع خطبة الكتاب ، مقدمة ابن خلدون. **والكتاب الثانى** : يشتمل على أخبار العرب ، وأجيالهم ، ودولهم منذ بدء الخليقة إلى عهده . وفيه الإلماع ببعض من

عاصرهم من الأمم المشهورة ، ودولهم ، مثل النبط ، والسريان ، والفرس ، وبنى إسرائيل ، والقبط ، واليونان ، والروم والترك ، والفرنجة . **الكتاب الثالث :** وهو فى أخبار البربر ، ومواليهم ، وأجيالهم ، وملوكهم .

قدومه إلى مصر : وصل ابن خلدون إلى الإسكندرية سنة ٧٨٤ هـ ، فرارا من اضطراب السياسة فى المغرب. وفى القاهرة تلقاه أهلها بالحفاوة، وتصدر للإقرار بالجامع الأزهر . وقد عمل ابن خلدون على الاتصال بالسلطان برقوق ، الذى أكرم وفادته ، وعينه فى أوائل سنة ٧٨٦هـ ، فى منصب تدريس الفقه المالكى بمدرسة (القمحية). وفى نفس السنة ، استدعاه السلطان إلى القلعة ، وفوض إليه قضاء المالكية ، وخلع عليه لقب (ولى الدين) .

وفى سنة ٧٨٧ هـ ، عينه السلطان أستاذا للفقه المالكى فى المدرسة الظاهرية البرقوقية فى سنة افتتاحها . وفى النصف الثانى من سنة ٨٠١ هـ ، عين مرة ثانية في منصب قاضى قضاة المالكية، بعد أن ظل مقصيا عنه زهاء أربعة عشر عاما، حيث كان ابن خلدون شديداً لا يقبل لينا ولا هواد ة فى العدالة ، ولعل هذا هو سبب عزله من القضاء وإعادته إليه مراراً لكنه كان يعود لتدريس الحديث والفقه المالكى . وقد قامت خصومات حادة بينه وبين علماء مصر خصوصا ابن حجر العسقلانى . ومع هذه الخصومة نجدابن حجر يثنى عليه ويصفه بحسن الأسلوب وقوة البلاغة وسعة العلم.

تنقيح ابن خلدون لمؤلفاته : لم ينقطع ابن خلدون ، فى أثناء إقامته الطويلة بمصر ، التى تمتد زهاء أربع وعشرين سنة هجرية ، عن مراجعة مؤلفه الكبير ومقدمته . فأضاف إلى تاريخه (العبر) عدة فصول ، ووسع بوجه خاص أبحاثه المتعلقة بتاريخ الدول الإسلامية فى المشرق ، وتاريخ الدول القديمة ، والدول النصرانية والأعجمية ، وأضاف كذلك بعض فصول وبعض فقرات إلى مقدمة كتابه .

وتبدو عبقرية ابن خلدون ونبوغه فى نواح كثيرة ، أهمها ما يلى : **(أولا)** أنه المنشئ الأول لعلم الاجتماع ، فقد عالج فى مقدمته الظاهرات الاجتماعية ، وما يسميه واقعات العمران البشرى أو أحوال الاجتماع الإنسانى ، ومثل لها فى فاتحة مقدمته . **(ثانيا)** أنه مجدد فى علم التاريخ ، فقد خلص ابن خلدون البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة . **(ثالثا)** أنه مجدد أسلوب الكتابة العربية ، فقد امتاز أسلوبه بالسهولة ، والوضوح، والتعبير الدقيق عن الحقائق، والتخلص من قيود السجع، ومحسنات البديع. **(رابعا)** رسوخ قدمه فى الفقه المالكى **(خامسا)** أحدث ابن

خلدون حركة علمية واسعة بمصر فقد تلقى عليه الأساتذة المصريين ومنهم المقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى .

وعلى الجملة ، فإن ابن خلدون لم يترك أى فرع آخر من فروع المعرفة ، إلا ألم به ، وأجاد فيه . وقد توفى ابن خلدون فى رمضان سنة ٨.٨ هـ . وهكذا أطفئت سراج حياة مليئة بالنشاط ، حافلة بجليل المآثر ، وروائع الابتكار والتفكير .

مقدمة ابن خلدون في الغرب :

بدأت عناية الغرب بآراء ابن خلدون والاهتمام بها فى أوائل القرن التاسع عشر، فقد نشر المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساس Isaac Sylvestre de Sacy سنة ١٨.٦م ترجمة لبعض ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته ، وتلاه المستشرق النمساوى فون هامر Von Hammmer فنشر سنة ١٨١٢ رسالة بالألمانية عن اضمحلال الإسلام بعد القرون الثلاثة الأولى أشاد فيها بابن خلدون وبحوثه التى جاءت فى مقدمته ، ثم نشر بالفرنسية فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٢٢م بحثا كشف فيه عن عظمة ابن خلدون ، وبين مقامه من علماء الاجتماع ومكان مقدمته .

وفى سنة ١٨٢٥ كتب شولتز Schulz فى المجلة الأسيوية أيضا بحثا كالسابق دعا فيه إلى طبع المقدمة وترجمتها ترجمة كاملة . وفى سنة ١٨٥٨ طبع المستشرق الفرنسى كاترمير Quatremére المقدمة باللغة العربية وفصولا منها باللغة الفرنسية. وأخيرا قدم المستشرق الفرنسى دى سلان De Slane ترجمة كاملة للمقدمة باللغة بعنوان Les prolégoménes d'Ibn Khal. طبعت فى ثلاث مجلدات بين سنتى ١٨٦٢ و ١٨٦٨م . وقد وضعت هذه الترجمة مقدمة ابن خلدون فى متناول جميع العلماء والمفكرين في الغرب بعد أن كان إمكان الإطلاع عليها هناك مقصورا على طائفة المستشرقين ، كما أتاحت للمشتغلين ببحوث علم الاجتماع معرفة قدرها وإنزالها المنزلة اللائقة بها فى البحوث ، بعد أن كانت مجهولة المكانة فى هذه الناحية ، لأن معظم المستشرقين الذين كانوا يستطيعون قبل ذلك الإطلاع عليها فى نصفها العربى كانوا بعيدين عن هذا العلم .

وكان من آثار ذلك أن تغيرت آراء علماء الغرب فيما يتعلق بنشأة العلوم ، فقد كانوا يزعمون مثلا أن فيكو Vico هو أول من بحث فى « فلسفة التاريخ » ، ولكنهم علموا حينئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك بمدة تزيد علي ثلاثة قرون ونصف قرن ، وأنه قد أقام دراسة لتطور الحضارة الانسانية لما يسمونه « فلسفة

التاريخ » وعلي درجة علمية قومية لا يذكر بجانبها ما أتخذه فيكو أساسا لبحوثه . وكانوا يدعون أن أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) Auguste. C. هو أول من أنشأ علم الاجتماع ، ولكنهم علموا حينئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلي ذلك بمدة تزيد على أربعة قرون ونصف قرن ، وبطرق ومناهج مبرأة من عيوب الطرق التى لجأ إليها أوجست كونت ومن مساوىء مناهجه ، ووجدوا كذلك أن كثيرا من الآراء والمبادىء التي قال بها المحدثون من علماء الاقتصاد وفلسفة القانون والفلسفة السياسية كالفيزيوقرات وآدم سميث وجان باتست ساى منسيكو وجان جاك روسو وغيرهم قد سبقهم إليها ابن خلدون فى مقدمته [١]. وكان من آثار ذلك أن تعددت البحوث[٢] عن بن خلدون وعن مقدمته حتى لقد تألف منها فى مختلف مكتبات الغرب مجموعة من أوسع المجموعات .

أثر المقدمة في علم الاجتماع :

ينظر الغربيون إلى ابن خلدون من خلال مقدمته باعتباره من علماء الاجتماع، وقليل منهم من يعنى ببحوثه الاقتصادية . أما فى الاجتماع ، فإنهم قد خصصوا للمقدمة كتبا مطوله وبحوثا مسهبة تزيد على العشرات ، وفصولا من كتب علم الاجتماع التى ألفوها . والذى دعا ابن خلدون إلى كتابة مقدمته على النحو الذى كتبت به هو رغبته فى تخليص التاريخ من الخرافات والأكاذيب وإيجاد مقاييس يستطيع الناقد أن يلجأ اليها وقوانين يفند بها الوقائع التى تُروى . وهذا ما يسمى فلسفة التاريخ .

وغرض آخر رمى إليه ابن خلدون ، وهو وضع موازين العمران ويقصد أحوال الناس الاجتماعية ، أو أراد أن يضع قوانين اجتماعية للدول ، وبذلك يكون كما يقول عن نفسه أول من وضع هذه الدراسة . ولكن الغرض الأخير لم يكن مقصودا بذاته عند ابن خلدون ، فهو يذكر أن « علم العمران » إنما ثمرته فى الأخبار فقط وأن كانت مسائلة فى ذاتها وفى اختصاصها شريفة [٣] .

---

(١) على عبد الواحد - المقدمة ص ١٧٩ .

(٢) تعرض الأستاذ ساطع الحصرى لبيان هذه البحوث فى كتابه « دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٩ - ٢٦٠. ، وص ٥٦١ - ٦٤٤ والأستاذ محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وأثره الفكري ص ١٥٧ - ١٨٧ والدكتور أحمد على نشأت فى رسالته «الأراء الاقتصادية لابن خلدون»

(٣) أنظر المقدمة تحت عنوان « فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ج ١ ص ٢١٩ وما بعدها لجنة البيان العربى » .

أما الغرض الثانوى الذى يتحصل من موازين كتاب ابن خلدون فقد جعله أوجست كونت غرضه الأول الذى أودعه كتابه . فقد قصد أوجست كونت إلى اصلاح المجتمع من الفوضى الأخلاقية والفساد الخلقى الذى يعيش فيه المجتمع . فقد كان الناس في عهده وقبله يفرقون فريقين فى صدد تفسير ظواهر الطبيعة ، فيذهب البعض إلى طريقة وضيعة فى التفسير وهى البحث في طبيعة الظاهرة وسببها المباشر، ويذهب الآخرون إلى تفسير الظاهرة تفسيرا دينياً ميتافيزيقياً بردها إلى قوة مشخصة كالآلهة أو أية قوة ميتافيزيقية أخرى .

وهذا الخلط فى الفهم أدى إلى فوضى عقلية انعكست علي الأخلاق والسلوك. وفساد الأخلاق أدى بدوره إلى فساد الحياة الاجتماعية بأكملها ، وقد كان بين يدى الفيلسوف وسائل ثلاثة لإصلاح هذه الفوضى العظيمة التى هى أساس الفساد الاجتماعى ، فإما يأخذ الناس بالطريقة الأولى في الفهم ، وأما أن يأخذوا بالثانية وأما أن يوفقوا بين الطريقتين .

وفى رأى كونت إن الظاهرات إنما هى ناحية من نواحى الكون ، والكون لا يجرى على المصادفات بل تحكمه قوانين محكمة ، وإذن فلابد أن نأخذ بالطريقة الوضعية ، ولكن الأخذ بما يتطلب معرفة هذه القوانين وهو ما يجب علي الباحثين أن يقوموا به ، ومن أجل ذلك وضع قواعد علم الاجتماع . ولذا يظهر أن كلا من ابن خلدون وكونت قد رأى ضرورة انشاء دراسة جديدة للظاهرات الاجتماعية ، وإن كلا منهما قد رأي أن تكون هذه الدراسة وضعية ترمي إلى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر وما تخضع له من قوانين ، وأن كل منهما قد قام بانشاء هذه الدراسة [(١)] .

بيد أن ابن خلدون كان صادقا فى قوله أنه سبق غيره إلى هذا البحث الاجتماعى . أما قول كونت أنه صاحب هذا العلم فبعيد عن الحقيقة وإنما هو وهم خيل اليه [(٢)] . وإذا كان كونت قد مات عام - ١٨٥٧ قبل طبع المقدمة بتمامها عام ١٨٦٨ ، فإن الإطلاع على آراء ابن خلدون كان فى متناول يده ، فمنذ سنة ١٨٠٦ والمقالات تجرى حول ابن خلدون والترجمات لآرائه تتوالى ، وليس ببعيد ، بل هو المحتمل أن يكون كونت ، قد اطلع علي هذه التراجم ومعظمها باللغة الفرنسية ، وأن يكون قد نقل عنها.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ١٤٨ - تعليق الدكتور على عبد الواحد .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٩ .

ويقول الاستاذ ناتانل شمت N. Schmidt أستاذ اللغات السامية بجامعة كورنيل الأمريكية: أن ابن خلدون كمؤرخ يمكن أن يوضع فى صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلى ونيقلاوس الدمشقى أو تروجوس بومبيوس ممن كتبوا فى القرن الأول الميلادى ، أو مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جانيرر وشلتزر ، هذا مع كونه يتفوق عليهم. . على أن حق ابن خلدون لا يرجع إلى تاريخه ، بل يرجع إلي ذلك الأثر المدهش الذى كتبه مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته فى روعة بهائها، وهنا ينثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى .

ويرى شمت أن علم الاجتماع وجد قبل أوجست كونت وان ابن خلدون ذهب فى تفكيره إلى حدود لم يذهب إليها كونت وأنه ، فيما عالج من خواص العادة والاقليم والأرض والغذاء قد سبق منتسكيو وهربرت سبنسر وغيرهم .

ويقول أيضا : أن المفكرين الذين وصفوا أسس علم الاجتماع من جديد ، لو كانوا قد أطلعوا على مقدمة ابن خلدون فى حينها ، فاستعانوا بالحقائق التى كان قد اكتشفها والطرائق التى سار عليها ذلك العبقرى العربى قبلهم بمدة طويلة ، لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلا، وإذ يقول كذلك : أن ابن خلدون قد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها أوجست كونت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر [(1)] .

ويقول چورچ سارتون فى مقدمتة للعلوم [(2)] ان ابن خلدون لم يكن من علماء الرياضة ، ولا من علماء الطبيعة ، فقد كان من هذه الناحية أقل مستوى من البيرونى .

ويقول العلامة التميرا الأسبانى[(3)]« وقد اشتمل تاريخه (يقصد ابن خلدون)

---

(1) Schmidt; Ibn khaldoun. Historinn, Sociologist and Philosopher, p. 356. 257. New-York, 1930.

(2) Sarton : Irtr. V. 2 p. 1775.

(3) S. Colozio : Contribution à l'étude d'Ibn khaldoun : Revue du mondre muslman 26-1911.

وأنظر أيضا :

Maunier (René) Lesidées : Economiques d'un philosophe arabe-Revue d'histoire économique et sociale - 1912.

ورسالة الدكتور نشأت فى الآراء الاقتصادية لابن خلدون - القاهرة .

على مقدمة هى فى الحقيقة مؤلف فى الاجتماع والفلسفة التاريخية لم يفقه حتى أيامنا فى الأهمية أي مؤلف آخر » .

ويقول كلوزيو فى آراء ابن خلدون الاقتصادية « أن المؤرخ البربرى العظيم ، استطاع فى العصور الوسطى أن يكشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيديران وماركس وباكونين » ويقول أيضا « إذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعه فى مقدمة فلاسفة التاريخ ، فإن فهمه للدور الذى يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه فى مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين »[1] قال الكاتب ذلك ، بعد أن استعرض آراءه عن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية وطرق التملك وأنواع الملكية ووظيفة العمل الاجتماعية وتقسيم العمل إلى حر ومأجور وكون العمل الحر مصدرا للرزق (المعاش) وقانون العرض والطلب . . .

(٢) إبن ايـــاس

(٨٥٢ - ٩٣١هـ) (١٤٤٨ - ١٥٢٤م)

حياته : هو محمد بن أحمد بن اياس الحنفى ، من مشاهير المؤرخين للتاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر الميلادى . من أصل مملوكى . فوالده شهاب الدين أحمد ، من مشاهير «أبناء الناس» ، وهم فرقة مملوكية كانت تضم أبناء الأمراء من المماليك المتوفين الذين جرت العادة على أن يعطى للواحد منهم إقطاع كبير ، بشرط أن يندمج في البلاط السلطانى ، ويكون صالحا للخدمة فى إحدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم . ومما قاله ابن اياس عن والده أنه كان يعيش مع الأمراء وأرباب الدولة ، وأنه بلغ من العمر نحو أربع وثمانين سنة ، أنجب فى خلالها خمسة وعشرين ذكور واناث ، لم يعش منهم إلا ثلاثة فقط ، هم ابن اياس الذي نتحدث عنه ، وأخ له يدعى الجمالي يوسف ، كان يعمل بالزردكاشية (هندسية المدفعية) على عهد السلطان قانصوه الغورى ، وأخت كانت زوجة الأمير قرقماش . . . الرجل المصارع وأحد أمراء السلطان قايتباى . أما الجد الأكبر لابن اياس فكان اسمه « ازدمر » . من أمراء الدولة المملوكية الأولى ، على عهد السلطانين حسن وشعبان ، وتولى مدة حكمهما وظيفة أمير سلاح ، ونال فى عهد ثانيهما ثقة بالغة ، فتقلب في نيابات

---

(١) رجعنا فى هذه المادة إلى مقدمة الدكتور محمد مصطفى لكتابه « صحائف لم تنشر من بدائع الزهور ووقائع الدهور ، وكتاب « مؤرخو مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى » للدكتور محمد مصطفى زيادة ، ودائرة المعارف الإسلامية .

صفد ، وطرابلس وحلب ، واختير فى أواخر أيامه لنيابة دمشق ، ولكن المنية عاجلته وهو فى الطريق إليها عام ١٣٦٩م .

أما جد ابن اياس ، فكان من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، وقد وصل إلى الامارة سريعا حتى تولى وظيفة الدوادار الثانى زمن السلطان فرج بن برقوق . يتضح من هذا أن ابن اياس نشأ فى وسط مملوكى بحت ، وأنه انتمى بصلة المصاهرة أو القرابة إلى كبار رجال الدولة المملوكية فى عصر قايتباى والغورى . . . ومع هذا لم يكن له صلة رسمية بالبلاط السلطانى ، ولم يكن من المقربين لأحد من السلاطين وذلك بخلاف معاصريه من المؤرخين الذين تقلدوا وظائف فى البلاط . ولقد أعطته عزلته عن البلاط ميزة الشخصية المتحررة المستقلة ، وما هو معروف به من الروية والتبصر والاتزان في أحكامه .

وكان مولد محمد بن أحمد بن اياس الحنفى بالقاهرة فى يونيه عام ١٤٤٨م أما وفاته فلم تعرف على وجه التحديد ، فقد قيل أنه توفى عام ١٥٢٢ ، وقيل عام ١٥٢٤ ، ولكن المؤكد أنه بلغ من العمر أكثر من ٧٦ عاما .

وقد أدى فريضة الحج عام ٨٨٢هـ ، ورجع من الحج فى المحرم من عام ٨٨٣هـ (١٤٧٨م) ، فدون ما قاساه الحجاج من « شدائد عظيمة من الغلاء والموت » . وقد لاقى هو هذه الشدائد ، فقد حج كأى واحد من الناس دون أن تسند إليه وظيفة معينة فى الركب المصرى . وحكى ابن اياس كل ما رآه من حوادث وقعت فى مكة نتيجة الخلاف بين السلطات المملوكية وبعض المكيين ، وجاء وصفه لما وقع فى هذا العام من حوادث برهانا قاطعا على الكره المتبادل بين ممثلى السلطان وسادة الحجاز وأمرائه خلال عهد المماليك .

وابن اياس – كواحد من فئة « أبناء الناس » – كان له اقطاع كبير يدر عليه دخلا وافرا جعله يتفرغ للكتابة والتأليف ونظم الشعر فى مناسبات مختلفة . ولكن فى منتصف عام ١٥٠٨م ، حدث ما عكر صفو هذه الحياة الهادئة المطمئنة ، إذ تأزمت أحوال السلطان الغورى المالية فعمد إلى إخراج طائفة « أولاد الناس » عن اقطاعاتهم. ونال ابن اياس من تلك الكارثة ما نال باقى أبناء طبقته ، إذ أخذ اقطاعه أربعة من مماليك السلطان ، إلا أن سوء حالته لم يدم طويلا ، حيث وقف للسلطان الغورى في أوائل سنة ١٥١٠م بقصة يشكو فيها حاله ، وقدمها إليه وهو فى طريقه للعب الكرة بميدان القلعة ، ومدحه ابن اياس بعد فعلته هذه بقصيدة طويلة من خمسة وثلاثين

بيتا . . . ورغم أنه لم يكن من المعجبين به ، كما تدل على ذلك كتاباته عنه في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » .

مؤلفاته : كتب بن اياس عدة مؤلفات عرف منها :

١ - « **نشق الأزهار فى عجائب الأقطار** » ، وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون وآثار مصر القديمة وملوكها .

٢ - « **نزهة الأمم في عجائب الحكم** » ، ويبحث فى تاريخ العالم .

٣ - « **منتظم بدع الدنيا وتاريخ الأمم** » ، ويتناول تاريخ الدنيا إلى عصر الخليفة المكتفى.

٤ - « **عجائب السلوك** » ، وهو ملخص لكتابه الكبير « بدائع الزهور في وقائع الدهور ».

٥ - « **عقود الجمان في وقائع الأزمان** »، وهو ملخص مستقل فى تاريخ مصر، ويوجد الجزء الثانى منه مخطوطا في مكتبة أيا صوفيا باستانبول بخط المؤلف.

٦ - « **مرج الزهور في وقائع الدهور** » ، وهو مؤلف شعبى في قصص الأنبياء والرسل ويشك بعض المحققين في أنه من مؤلفاته ، برغم اشارته هو لبعض محتوياته فى الفصل السابع من الجزء الأول من بدائع الزهور

٧ - « **بدائع الزهور فى وقائع الدهور** » ، وهو مؤلف شامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى .

وهذا الكتاب الأخير لابن اياس هو الذى وضعه فى مركز الزعامة بين معاصريه من مؤرخى مصر في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وبه أيضا أصبح عمدة المؤرخين فى أحوال دولة المماليك وأخبارها فى طورها الأخير ، وهو ذلك المرجع الرئيسى لحوادث فتح العثمانيين لمصر . وقد بدأ ابن اياس فى تأليف « بدائع الزهور » حوالي سنة ١٤٩٣م ، وظل معنيا به حتي أواخر أيامه . وعدد أجزائه أحد عشر جزءا ، انتهى الجزء الحادى عشر منها بأخبار سنة ٩٢٨ للهجرة إلى آخر يوم منها . وقيل ان ابن اياس كان آنذاك فى السابعة والسبعين من عمره ، وأنه كان فى نيته أن يجعل أجزاء بدائع الزهور اثنى عشر ، لولا أن عاجلته المنية .

ولم يصل أحد من الباحثين إلى حقيقة هذا الجزء الثانى عشر ، وهم فى حيرة من أمره . . . هل عاجلت المؤلف المنية قبل أن يبدأ فى كتابته ؟ أو أنه بدأه فعلا وكتب قسما منه فقدت مسوداته ؟ ولم يصل أحد إلي رأى قاطع فى هذا الموضوع. وقد تناول النساخون كتاب « بدائع الزهور » فنقلوا منه نسخا بعضها كامل واف وبعضها مختصر ناقص .

منهجه في بدائع الزهور : بدأ ابن اياس تاريخ مصر القديم بذكر خرافات وأساطير ليست هناك أى صلة بينها وبين الحقائق التى كشفت عنها البحوث العلمية في العصر الحديث . وقد كانت هذه الأساطير شائعة بين من سبقوه ممن تناولوا تاريخ مصر القديم . ثم أخذ يسرد تاريخ دخول عمرو بن العاص مصر وتحريرها من الرومان ، ثم أتى على ذكر الولاة الذين كانت توفدهم الخلافة الإسلامية من المدينة ثم الكوفة على عهد الخلفاء الراشدين ، ومن دمشق على عهد الأمويين ، ثم من بغداد على عهد العباسيين . ولما اضمحل شأن العباسيين ، واستقل بأمر مصر الطولونيون ، أخذ ابن اياس يفرد فصلا لكل أسرة ، ويورد أسماء الملوك وأفعالهم فى ثنايا هذه الفصول. ثم أخذ بعد ذلك يفرد فصلا لكل ملك ، ثم أخذت طريقة « الحوليات » تظهر في وضوح . فكان يأتى علي حوادث العام في ثنايا سيرة الملك، ثم يأتى على ذكر من ماتوا في خلال هذا العام من الأعلام، وقد يستطرد فى ذكر مناقبهم - أو مساوئهم - ثم يعود إلى التسلسل التاريخى ذاكرا أحداث العام الذى يليه . وكما تدانى ابن اياس من العصر الذى عاش فيه ، لاحظنا اهتمامه بذكر أحداث كل شهر . ثم يزداد اهتماما بالدقائق حتى ليدون أحداث الأيام .

وقد وصف ابن اياس ، فى الأجزاء الأخيرة من « بدائع الزهور » . أحوال مصر إبان الفترة الأخيرة من الدولة المملوكية ، ولاية الحكام والخلفاء ووفاتهم أو خلعهم ، وما يصحب ذلك من ثورات داخلية وطغيان المماليك . أو عن النظم الإدارية والحربية وما تجدد منها وما ألغى وما عدل ، أو أن يكتب عن الحياة العامة والحالة الاجتماعية والأعياد والمواسم والحفلات الشعبية ومواكب الخلفاء والسلاطين ، واستقبال سفراء الدول الأخرى وما يرتبط بذلك من خلع وهدايا ورسائل ، أو الحالة الاقتصادية وأسعار المحاصيل والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس ، أو ما ابتليت به البلاد من أوبئة وأمراض وتعداد من توفى ، أو الظاهرات الكونية من خسوف القمر وكسوف الشمس ، أو الظاهرات الجوية من ثورة العواصف وسقوط الأمطار والبرد والثلج ، أو ارتفاع مناسيب المياه فى أيام الفيضان أو إنخفاضها فى أيام التحاريق ، أو ما أنشئ من مبان

وعمائر ومساجد وقباب ومدافن ، أو أخبار العلماء والأدباء والشعراء وتراجم من توفي منهم ، يوردها فى حينها وفى مكانها بين زحمة كل تلك الأخبار . وهو فى كتابته هذه الأشياء جميعها ، كان عزوفا عن الاطالة ، أكثر ميلا إلى الاختصار ، ولكن بما يدل على دقة ملاحظة وشدة استقصاء للحقائق . وقد قال أنه قرأ نحو سبعة وثلاثين تاريخا قبل أن يبدأ فى كتابة الأجزاء غير المعاصرة من كتابه «بدائع الزهور » . والواقع أن ابن اياس كان علي جانب كبير من القدرة على النقد ، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع علي وتيرة أغلب السالفين من كتاب التاريخ ، ولكنه وقف بين الحادثة والأخري يعقب ويشرح ويفلسف ، ولكن مع شئ من القسوة فى الحكم والجرأة فى التقدير ، والمغالاة نوعا فى التصوير .

وكان ابن اياس يستقى أخباره من مصادر موثوق بها ، علي صلة بأعيان البلاط السلطانى ، كالأمير تمراز الأتابك والأمير أقبردى الدوادار الكبير ، وكلاهما من رجال عصر قايتباى . وكأبى بكر ابن مزهر وولده البدرى محمد ، والقاضى محمود بن اجا ، وهم ممن شغلوا وظيفة كاتب السر فى الدولة . . . هذا فضلا عن أخيه الجمالى يوسف الذى أمده بأخبار القلعة ، ولا سيما أخبار المدفعية التى عنى ابن اياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها على عهد السلطان الغورى . أما الذين نقل عنهم من الأولين فى الأجزاء غير المعاصرة من كتابه ، فقد ذكر ابن عبد الحكم، والمسعودى، والذهبى، والواقدى، والكندى، والقضاعى، وابن وصيف شاه، وأبو شامة، والصولى، وابن زولاق، وابن الداية، والجاحظ، وابن خلكان، وابن عساكر ، وابن الأثير ، والمسبحي ، وابن الجوزى ، والثعلبى والمقريزى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن فضل الله المعمرى ، وغيرهم من أبناء الأجيال السابقة لعصره .

وقد نظم ابن اياس الشعر . ولم يكن ابن اياس ينظم الشعر للتكسب به ، فقد قلنا أنه كان ذا مال وافر ، ولكنه كان يقرضه تارة لنقد أعمال السلطان ، وتارة ليمدحه به . وقد كان فى نقده أو مديحه حرا . لا تؤثر فيه الظروف ولا المناسبات . وقال الشعر أيضا فى التهنئة والرثاء والمناسبات العامة .

ويتضح من أشعاره أنها كانت إنفعالا بأحداث المجتمع الذى كان يعيش فيه - لا مسايرة لظاهرة نظم الشعر التى كانت شائعة بين مؤرخى عصره كدليل على مبلغ ثقافتهم وتأدبهم . فلم يكن الشعر إذن عند ابن اياس مجرد اغتراف مما يغترف منه أهل عصره ، بل أنه قرض الشعر لانفعاله بما كان يجرى في دولة بدت عليها مخايل

الاحتضار . ونجده يسجل فى شعره محاسن السلاطين الذين عاصرهم ، كما يحصى عليهم مساوئهم .

شخصيته وكتابته : ميز « **مارجوليوث** » ابن اياس عن جمهرة المؤرخين المسلمين فى مصر وغيرها بقوله: « أن أسلوبه فى الكتابة والتأليف ، ونمطه فى التفكير ، ينم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأى قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين » . وقد عاصر ابن اياس أربعة من المؤرخين ، هم السيوطى ، وابن خليل ، وابن طولون الدمشقى ، وابن زنبل الرمال . ولكل من الأربعة فضل معلوم فيما تجمع للتاريخ المصرى الحديث من تراث محفوظ ، ولكن أحدهم لم يبلغ مبلغ ابن اياس فى هذا الفضل ، أو حتى يقربه فى المقدرة علي التأليف الضخم فى التاريخ . وربما يرجع ذلك إلى تفرغ ابن اياس لكتابة التاريخ وما يتصل به فقط ، هذا عدا نظم الشعر الذى كان انفعالا بأحداث المجتمع - كما ذكرنا - لا مهنة ، على حين أن معاصريه اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات .

ولا سبيل لمعرفة ما اشتهر به ابن اياس من صفحات بين معاصريه ، لأن جميع *كتب التراجم المعاصرة له والمتأخرة عنه خلت تماما من الحديث عنه ، على أن كتبه التى* ألفها ، وما أودعها من حوادث وملاحظات ، تدل على الكثير من كنه شخصيته ، فضخامة مؤلفاته برهان على أنه ظل طول حياته مجدا فى الكتابة ، دائبا على تدوين الحوادث يوما بعد يوم فى صورة تشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق . وكذلك تدل قسوته فى الحكم على الناس على أنه كان على درجة عالية من المستوى الخلقي . كما أن تناوله للحكم العثمانى فى مصر بالنقد والسخرية لإهماله مصالح المصريين، فى زمن أحيطت فيه السيادة العثمانية بالرهبة والخوف ، يدل على شجاعته، ويحله مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين . ومن المؤكد أن موقفه هذا من الحكم العثمانى هو السبب فى اختفاء ترجمته من كتب التراجم ، أما أسلوب ابن اياس ولغة كتابته فكانت - مثل غيره من مؤرخى ذلك العصر - سهلة بسيطة ، أقرب إلي المصطلحات الدخيلة من اللغات المجاورة مثل الإيرانية والتركية واليونانية ، هذا إلي جانب أنه كان لا يعبأ كثيرا بقواعد الإملاء ، فهو مثلا يكتب تاء التأنيث المفتوحة عوضا عن المربوطة في مثل زوجة القاضى أو نفقة البيعة ، فيكتبها «زوجت القاضى» و « نفقت البيعة » ، كما كان يستبدل حرف الذال بالدال كأن يقول « حذرة البقر »

---

(١) اختلفت الطبعات في رواية هذا البيت .

بدلا من حدرة البقر ، أو يخلط بين الجمع والمفرد فى مثل الذى والذين ، أو المذكر والمؤنث مثل التى والذى ، أو الرفع والجر والنصب فى كلمات «أخوه وأخيه وأخاه» . ربما وقعت مثل هذه الهنات سهوا من المؤلف فى زحمة حماسته لخبر أو لتعليق ، ولكنها لا تقلل من قدر ابن اياس كعمدة للمؤرخين فى أحوال دولة المماليك في الطور الأخير من حياتها ، ولحوادث فتح العثمانيين لمصر ، ولا تزحزحه قيد أنملة عن تصدر الزعامة بالنسبة لمؤرخى عصره .

أهم الكتب المترجمة في التاريخ

(١) **ابن جبير**. رحلة ابن جبير: ترجم أمارى ما يختص منها بصقلية فى باريس ١٨٤٦م.

(٢) **ابن خلدون** ، تاريخ ابن خلدون : ترجم دى سلان القسم الخاص بالجزائر إلى الفرنسية ونشره فى أربعة مجلدات (الجزائر ١٨٥٢ - ١٨٥٦) وترجم ديفرجيه إلي الفرنسية القسم الخاص ببنى الأغلب وأفريقية وصقلية إلى حين استيلاء الفرنج عليها (باريس ١٨٤١م) .

(٣) **ابن خلكان** ، وفيات الأعيان : ترجمه إلى الانجليزية دوسلان فى أربعة مجلدات (لندن ١٨٤٢ - ١٨٧١) .

(٤) **ابن عبد الحكم** ، فتح الأندلس ترجمة هارى جونس إلى الإنجليزية وطبع بلندن سنة ١٨٥٨م .

(٥) **ابن القوطية** - تاريخ الأندلس: ترجمة شاربونو إلى الفرنسية (باريس ١٨٥٦)

(٦) ابن مجير الدين العليمى - الأندلس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ترجمة سوفير إلي الفرنسية باريس سنة ١٨٧٢م .

(٧) **أبو الحسن الفارسى**: الأنيس المطرب وروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس . ترجمة بومية إلى الفرنسية باريس سنة ١٧٦٠م .

(٨) **أبو عبيد البكرى** - المسالك والممالك . ترجم جزءا منه ديفريمرى سنة ١٨٤٩ إلى الفرنسية . وترجمة دى سلان إلي الفرنسية - باريس سنة ١٨٥٦ .

(٩) **أبو الغازى بهادرخان** - تاريخ المغول، ترجمة ديميزون إلى الفرنسية في مجلدين بطرسبورج سنة ١٨٧١ .

(١٠) **أبو الفدا** - المختصر فى أخبار البشر. ترجمة أدلر إلى اللاتينية وطبع بليبزج سنة ١٨٧٩ - ١٧٩٤ فى خمسة مجلدات .

(١١) **أبو الفرج الملطى** - تاريخ مختصر الدول. وهو يشمل تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى زمن المؤلف . ترجمة بوكوك إلى اللاتينية وطبع باوكسونية سنة ١٦٦٣م . وترجمة دى بور إلى الألمانية - ليبزج سنة ١٧٨٥ .

(١٢) **البيرونى** - الآثار الباقية عن القرون الخالية . ترجمة سخاو الألمانى إلى الانجليزية (لندن ١٨٧٩م) .

(١٣) **رشيد الدين** - تاريخ المغول - ترجمة كماترمير إلى الفرنسية .

(١٤) زين الدين المعيرى - تحفة المجاهدين . ويشمل تاريخ مسلمى الهند - ترجمة رولندسن إلي الانجليزية (لندن ١٨٢٣م) .

(١٥) **سيد على أكبر** : ثلاثة فصول من ختاينامة - النصر الفارسى - ترجمة إلى الفرنسية شارل شيفر .

(١٦) **الطبرى** - كتاب أخبار الرسل والملوك. ويشتمل على تاريخ العالم إلى سنة ٣٠٢ هـ - ترجمه البلقمى إلى الفارسية وترجمه عن الفارسية زوتنبرج إلى الفرنسية فى أربعة مجلدات (باريس ١٨٧٤م) .

(١٧) **عبد اللطيف البغدادى** - الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار - ترجمه دى ساسى إلي الفرنسية (باريس ١٨١٠م) .

(١٨) **العتبى** - كتاب اليمنى ، ترجمة إلي الفارسية الجريادكنى - وترجمة عنها إلى الإنجليزية رينولد (لندن ١٨٥٨م) .

(١٩) **غلام حسن خان** - تاريخ الإسلام فى الهند فى القرن الأخير . ترجمه بريجس إلي الإنجليزية فى مجلد واحد (لندن ١٨٣٢م) .

(٢٠) **فرشتة** - تاريخ الإسلام فى الهند إلى سنة ١٦١٢ م . ترجمه عن الفارسية إلى الإنجليزية برجس فى أربعة مجلدات (لندن ١٨٢٩م) .

(٢١) **القيروانى** - تاريخ أفريقية. ترجمة ديموزه إلى الفرنسية (باريس ١٨٤٥م).

(٢٢) **المسعودى** - مروج الذهب . وهو تاريخ عام تمتد أخباره إلى القرن العاشر الميلادى ، ترجمه باربيه دومينار إلى الفرنسية في تسعة مجلدات (باريس ١٨٦١ - ١٨٧٨م) وإلى الإنجليزية (لندن ١٨٤١م) .

(٢٣) **المقرى** - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . لخصه بالإنجليزية باسكول دوكانيكوس فى مجلدين كبيرين (لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣) .

(٢٤) **المقريزى** - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . ترجمة إلى الفرنسية كاترميد فى مجلدين باسم تاريخ السلاطين للمماليك (باريس ١٤٣٧ - ١٨٤٥) ، وترجم بعضه إلي الإنجليزية مالان تحت عنوان « مختصر لتاريخ القبط) (لندن ١٨٧٣).

(٢٥) **المكين بن العميد** - المجموع المبارك ترجمة قانيه إلى الفرنسية (باريس ١٦٥٧).

أهم المراجع العربية

ابراهيم العدوى : المسلمون والجرمان القاهرة ١٩٦٠م

ابن النديم : الفهرست ، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٤٨هـ

ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١٨٨٢م

أحمد أمين : ظهر الإسلام - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م

ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مطابع الشعب ١٩٥٧م

ابن حوقل : صورة الأرض (المسالك والممالك) ليدن ١٩٤٠م

ابن خلدون : المقدمة بيروت ١٩٠٠م

ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر بولاق ١٢٨٤هـ

ابن خلكان : وفيات الأعيان . القاهرة ١٣١٠هـ

ابن سينا : حى بن يقظان ، تحقيق أحمد أمين ، القاهرة ١٩٥٢م

رسالة الطير ، تحقيق الآباء اليسوعيين ، لويس معلوف وخليل إدة ولويس شيخو بيروت ط ٢ ١٩١١م

ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات - القاهرة ١٢٩٩هـ

ابن طفيل : حى بن يقظان . تحقيق أحمد أمين - القاهرة ١٩٥٢م

ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول القاهرة

ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء القاهرة ١٣٢٦هـ

ابن القفطى : تاريخ الحكماء

البيرونى : رسائل البيرونى دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الهند ١٦٤٨م

البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية - ليبزج ١٨٧٨م

البيهقى : تاريخ حكماء الإسلام . تحقيق محمد كرد علي دمشق ١٩٤٦م

الجاحظ : البيان والتبين . تحقيق السندوبى - القاهرة ١٩٣٦م

جلال مظهر : مآثر العرب علي الحضارة الأوروبية - الأنجلو ١٩٦٠م

الأب چورج قنواتى : مؤلفات ابن سينا تاريخ الصيدلة والعقاقير دار المعارف ١٩٥٨م

الحسن بن الهيثم : كعالم طبيعي لمصطفي نظيف

: كعالم رياضي لعلى مصطفي شرفة

: الناحية الفلكية لابن الهيثم لمحمد رضا مدور .

حاجي خليفة : كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون . اسطنبول . ١٣١هـ
حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩م
الخازن : ميزان الحكمة ، تحقيق فؤاد جميعان ، القاهرة ١٩٤٧
الخوارزمي: الجبر والمقابلة ، تحقيق على مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد القاهرة ١٩٣٧
الخوارزمي : مفاتيح العلوم - القاهرة ١٣٤٢هـ
سعيد عبد الفتاح عاشور : فضل العرب علي الحضارة الأوروبية ١٩٥٧
سيديو : خلاصة تاريخ العرب العام . ترجمة علي مبارك - القاهرة ١٣٠٩هـ
شوكي ضيف : الرحلات ، دار المعارف عن فنون الأدب العربى
صاعد الأندلسى : طبقات الأمم - القاهرة بدون
صالح زكى : آثار باقية . اسطنبول ١٣٢٩هـ
عاطف العراقى : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، دار المعارف ط ٢ ١٩٨٣
عاطف العراقى : النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ، دار المعارف ط ٢ ١٩٦٨
عباس العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوروبية . القاهرة ١٩٦٥
عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية : دراسات لبعض المستشرقين القاهرة ١٩٤٠م
عبد الصبور شاهين : العربية لغة العلوم والتقنية - دار الاعتصام ١٩٨٦م
عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، بيروت ١٩٥٢م
الفارابى : * احصاء العلوم ، القاهرة ١٣٢٦هـ
* الجمع بين رأي الحكمين أفلاطون وأرسطو القاهرة ١٩٠٩م
* ما ينبغى أن يقدم قبل تعليم الفلسفة القاهرة ١٩١٠م
قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب القاهرة ١٩٦٠م
: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك . دار الشروق ١٩٦٣م
القزوينى : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات القاهرة
محمد بيصار : الفلسفة اليونانية ، مقدمات ومذاهب بيروت ١٩٧٣م
محمد حسين هيكل : حياة محمد ، دار المعارف ط ١١ ١٩٧١م
محمد عبد الهادي أبو ريدة : الكندي وفلسفية ، القاهرة ١٩٥٠م
محمود قاسم : الفيلسوف المفتري عليه (ابن رشد) - الأنجلو
مصطفي نظيف : الحسن بن الهيثم - القاهرة ١٩٤٣

المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦
نازلى إسماعيل حسين : التطور الحضارى . المكتبة القدمية ١٩٨٢
نازلى إسماعيل حسين : فلسفة الحضارة (عصر عبر العصور) القاهرة ١٩٨٣
نصير الدين الطوسى : مجموع الرسائل ، دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد الهند ١٣٨٥هـ
نقولا زيادة : الرحالة العرب القاهرة ١٩٥
ياقوت الحموى : معجم البلدان ٥ أجزاء طبعة بيروت ١٩٥٥

مراجع أجنبية مترجمة

آدم متيز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة
أرنولد وآخرون : تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس وآخرون . جزءان القاهرة ١٩٣٦ القاهرة ١٩٤٠م
أوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية إلى الغرب ترجمة د. تمام حسان الأنجلو ١٩٥٧م
بارتولو : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر دار المعارف ١٩٥٨م
باركر : تراث الإسلام
بروكلمان : تاريخ الأدب العربي G. A. L ليدن ١٩٤٧ - ١٩٤٩م
جب : تراث الإسلام ترجمة أحمد على . الألف كتاب النهضة ١٩٥٥م
جورج يعقوب: أثر الشرق فى الغرب. ترجمة د. فؤاد حسنين مطبعة مصر ١٩٤٦م
جوستاف جرينباوم : حضارة الإسلام . ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٥٦م
جوستاف جرينباوم : دراسات فى الأدب الشرقى : ترجمة احسان عباس وأنيس فريحة ومحمد نجم وكمال يازجى ١٩٥٩م
جو ستاف لوبون : حضارة العرب : ترجمة عادل زعيتر الفجالة .
خود ابخش : الحضارة الإسلامية . ترجمة علي حسن الخربوطلى - دار إحياء الكتب ١٩٦٠م
ديفز . هـ . و : أوروبا في العصور الوسطى ترجمة د. عبد الحميد حمدى اسكندرية ١٩٥٩م
سارتون : العلم القديم والمدنية الحديثة ترجمة عبد الحميد صبرة ، مكتبة النهضة ١٩٥٩م
كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان

كولتون ج: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم،١٩٨٤
نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحى عثمان ، الألف كتاب، النهضة ١٩٥٧
نللينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، روما ١٩١١
هاسكنز : نشأة الجامعات في العصور الوسطى ترجمة جوزيف نسيم ١٩٨٤
ول ديورانت قصة الحضارة ترجمة محمد بدران وآخرون . ١٩٦٥

أهم المراجع الأجنبية

Ball ; A short History Of Mathematics . London . 1927
Barker; The European Inheritance; .
Cam ; : Medieval History . London. 1944
Cantor N. F.; The Medieval world. 300 - 1300 New York. 1963
Dosy. R : Histoire des Masulmans d'Espagne. 1861
Dosy. R : Glossaire des mots Espagnols et portugais derves de Arabe.
Dampier ; A short History Of Science . London . 1955
Draper; a History of Intellectuel Development of Europe. 1914
Ernsi, K; Frederick the Second.
Eyre, European Civilization. its origin and Development. oxford. 1955
G. Ferrand; Lepilote arabe de vasco de gama. 1922
Gibb : The Legacy of Islam. Manchester. 1952
Sedillot; Histoire générale des Arabes. 1877
Toylor : Geography in the Twentieth Century.
Trend : The Legacy of Islam. 1931
Renan : Averroes et Averroisme paris. 1925
Renan. E; Histoire generale et Systéme Compare des Langues semitiques. paris. 1926
Richard Coke : The arab.s place under the sun.
Walt Toylor : Arabic words in English.

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧٢٣ / ١٩٩١

رواى للطباعة والإعلان

Raway Printing & Adrertising

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧٢٣ / ١٩٩١

R رواج للطباعة والإعلان

١٥ ش عمر إبن عبد العزيز - العصافرة قبلي
الإسكندرية - مصر